

دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية



المشروع القومي للترجمة



تأليف: جيرارد ديجورج
ترجمة: محمد رفعت عواد
مراجعة وتقديم: محمود ماهر طه

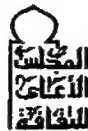
738

دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية

تأليف : جيرار ديجورج

ترجمة : محمد رفعت عواد

مراجعة وتقديم : محمود ماهر طه



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٢٨

- دمشق من عصور ما قبل التاريخ

- جيرار دي جورج

- محمد رفعت عواد

- محمود ماهر طه

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب :

DAMAS

Des Origines aux Mamluks

Gérard DEGEORGE

© L'Harmattan, 1997

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

7 تقديم المراجع
11 مقدمة المترجم
15 تمهيد
33 الفصل الأول : من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر الأموي
129 الفصل الثاني : العباسيون والسلاجقة
167 الفصل الثالث : حكم الأتراك

تقديم المراجع

دمشق الدرة الساطعة فى جبين الشام .. بل هى تاج المشرق العربى .. تلك المدينة التى تبدو فى واحة كأنها الزمردة الخضراء وسط رمال الصحراء الذهبية .. لا يعرف مؤرخ بداية لنشأتها ، فهى ولدت قبل التاريخ ، وعاصرت جميع أحداثه مما جعل اسمها مذكورا فى الكتب المقدسة ، والوثائق التاريخية بمختلف لغات العالم القديمة والحديثة . يقول عنها المؤرخ الشهير " المقدسى " « إن دمشق هى المكان الوحيد فى إقليم الشام الذى يصح أن يسمى مصرا » . ومصر عنده هى كل بلد أقام به السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين ، وقلدت منه الأعمال ، وأضيفت إليه مدن الإقليم مثل دمشق . لقد عثر فى بعض الحفائر الأثرية بهذه المدينة على فخار يرجع إلى العصر البرونزى القديم، أى إلى حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد .. وفى الآثار الفرعونية التى عثر عليها فى مدينة تل العمارنة بمصر ذكر اسم دمشق منطوقا بـ « دمشقا » مما يدل على وجودها العتيق . ثم جاء الشعب الآرامى فى أواخر الألف الثانى قبل الميلاد حيث انطلقت قبائله من الجزيرة العربية واستقرت فى بلاد الشام وكانت دمشق موطننا لشعبه ، فقد أسست عدة دويلات كانت دولة دمشق الآرامية أعظمها وأشهرها .. وقد أطلق الآراميون على هذه المدينة اسم « دراميسيق » وتعنى الدار المسقية .. ثم قام اليونانيون والرومان بعد ذلك بتحريف هذا الاسم إلى « داماسكوس » ، وبقي اسمها عند العرب دمشق . ولقد تحدث عنها المؤرخ الجغرافى الشهير استرابون كأشهر مدينة فى غرب آسيا .

ارتبط تاريخ دمشق ، منذ الغزو المقدونى ، بالغرب لفترة تقدر بحوالى عشرة قرون، وكانت الشام بعد الإسكندرية نصيب خلفائه السلوقيين الذين أولوا دمشق عناية

كبيرة . ولقد عرفت دمشق فى هذه الفترة من تاريخها ازدهار الحضارة الهيلينستية التى اندمجت فيها عناصر الثقافة اليونانية مع حضارة الشرق .. وخلال أواخر العصر اليونانى ازدهرت فى جنوب الشام ودولة عربية هى دولة الأنباط وصل نفوذ ملوكها مرتين إلى دمشق وذلك عام ٨٥ ق . م فى عهد الملك الحارث الثالث .. وفى عام ٢٧ فى أيام الملك الحارث الرابع كانت بلاد الشام - بما فيها دمشق - أصبحت تابعة للحكم الرومانى عام ٦٤ ق.م. وعرفت دمشق فى هذا العهد نشاطا تجاريا واسعا مستفيدة من كونها محطة رئيسية على طريق القوافل ومن اتساع الإمبراطورية الرومانية .. وأصبحت دمشق فى عهد الإمبراطور هادريان حاملة لقب « متروبول » أى مدينة رئيسية .

فى أواخر القرن الرابع الميلادى انقسمت الإمبراطورية الرومانية وأصبحت دمشق من أملاك الجزء الشرقى وهو ما يعرف باسم النولة البيزنطية وكانت دمشق حينذاك مركزا عسكريا مهما فى مواجهة جحافل الفرنس الذين قاموا باستعمارها عام ٦١٢ م ويستعيدها الروم بعد خمسة عشر عاما على يد هرقل عام ٦٢٧ ثم يقوم العرب بفتحها عام ٦٣٥ م بقيادة أبى عبيدة الجراح وخالد بن الوليد . أصبح لدمشق فى العصر الأموى بعد ذلك أعظم مكانة حضارية ممتازة مرت بها خلال تاريخها الطويل، حيث غدت عاصمة لدولة كبرى. لم تلبث أن وصل نفوذ حكامها إلى حدود الصين شرقا وإلى سواحل الأطلنطى غربا . فالعصر الأموى يعتبر بحق العصر الذهبى لمدينة دمشق قامت خلاله فيها قصور الخلفاء، وكان من أهم معالمها الأثرية فى هذا العصر جامع بنى أمية الكبير الذى تم تشييده فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ، ولا يزال يعتبر من أجمل الأبنية العربية الإسلامية فى العالم أجمع . وفى عجلة سريعة نذكر أن دمشق قد مرت بعصور العباسيين وحكمها ولاة طولونيون وإخشيديون وفاطميون وأيوبيون ومماليك وعثمانيون . ولكن يجب أن نلقى ضوئا على دور عظيم وباسل قامت به دمشق ضد الغزاة الصليبيين فى العصر الأيوبي . فقد نجحت دمشق بالصمود ضد هؤلاء الغزاة ونجحت من الوقوع فى أيديهم ، ثم تعرضت لحصارهم عام ١١٤٩ حين شارك

فى حصارها ملك الألمان « كونراد الثالث » وملك فرنسا « فرانسوا السابع » وعسكرت قواتهم فى منطقة داريا قرب منطقة المزة ، وقامت دمشق ببسالة بفضل قائدها « معين الدين أنر » الذى استعمل وسائل الحرب والسياسة حتى أنقذ دمشق من دخول الصليبيين . وخرجت دمشق من محتتها رافعة الرأس . ونجح البطل نور الدين محمود زنكى بعد ذلك بتوحيد المشرق العربى لطرد الغزاة الصليبيين من الوطن العربى بوساطة أحد قادته أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي .

توفى نور الدين فى دمشق عام ١١٧٤ ، ويستقر الحكم بعده إلى قائده فى مصر صلاح الدين الأيوبي ليجعل من دمشق عاصمته الثانية لحكمه منتقلا بينها وبين القاهرة ، لكنه فصل الاستقرار فى دمشق لقربها من عملياته العسكرية ولقربها من فلسطين الذى كان يخطط لتحريرها من الغزاة الصليبيين ، وحرر منهم القدس فكانت هذه الانتصارات ثمرة توحيد مصر بالشام . وتوفى القائد البطل صلاح الدين الأيوبي فى دمشق عام ١١٩٣ ، حيث دفن بها فى شمال الجامع الأموى .

كان هذا عرضاً موجزاً لأهم الأحداث التاريخية ولأماجد دمشق التى تعرض هذا الكتاب لها بالتفصيل الدقيق بأسلوب علمى رائع مع وصف لأهم المباني الأثرية والتاريخية التى تزدان بها دمشق وتقوم شاهدة على حضارات مجيدة مرت بها عبر تاريخها الطويل العظيم، ولعل من أشهرها الجامع الأموى الذى سبق ذكره فتوجد قلعة دمشق الأيوبية التى أنشئت عام ١٢٠٥ فى عهد الملك العادل ، والتى تعد من أهم الشواهد المعمارية والعسكرية فى العالم . كذلك سور دمشق وأبراجه والقصور القديمة مثل قصر العظم وبيت السباعى وخلافه والتكية السلمانية وكنيسة حنانيا والقديس بولس هذا بالإضافة إلى العديد من المتاحف الأثرية والحضارية مثل المتحف الوطنى ، ومتحف الخط العربى ، ومتحف مدينة دمشق التاريخى ، والمتحف الحربى ومتحف الطب والعلوم عند العرب وغيرها من المتاحف والأماكن الأثرية التى يطول حصرها . فدمشق مدينة تختال بحضارتها الراقية وتاريخها المجيد المستند لعصور طويلة مما يجعل لها مكانة عالمية تفوق بكثير العديد من عواصم العالم الحديث .

وهذه القيمة الحضارية الكبيرة لدمشق هي التي دعت العديد من علماء الآثار والتاريخ في العالم إلى الكتابة عن تاريخها وأثارها ومنهم هذا المستشرق الفرنسي الشهير جيرار ديغورج .. فقد كتب عن دمشق بحب عميق لها حيث قام بالاستقرار بها فترة طويلة وعاشر أهلها عن قرب وتأثر بهم عن حب حيث كان يعمل في معهد الآثار الشرقية بدمشق . وكتابنا هذا هو الجزء الأول تحت عنوان « دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية » . وسيعقبه الجزء الثاني بعنوان « دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر » .

وجدير بى أن أشيد بالجهد الكبير الذى بذله الأستاذ محمد رفعت عواد فى ترجمة هذا الكتاب بأسلوب عربى رشيق سهل ممتنع ، بحيث يشعر القارئ بأنه مؤلف وليس مترجماً . وفى الحقيقة لقد أحسن المترجم اختيار الكتاب لأهمية موضوعه، فالمكتبة العربية ينقصها بشكل واضح الكتب التى تتحدث عن مدننا بوجه عام ، وعن عواصمنا بشكل خاص والتى تتناول تاريخها وأثارها وجغرافيتها وسكانها .. وأرجو أن يكون هذا الكتاب بداية لسلسلة كبيرة تغطى هذا النقص فى موضوعة لقراء العربية .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

الدقى ٢٠٠٥

المراجع

محمود ماهر طه

مقدمة المترجم

فى عام ١٩٥٨ - وفى أثناء عملى بسوريا - وقفت على جبل قاسيون بدمشق وكنت أنظر إليه على أنه مجرد جبل عادى إلى أن وقع هذا الكتاب بيدي فتلقتة وقرأته بنهم واكتشفت فيه كنوزاً من المعرفة وإجابات لأسئلة ظلت تراودنى فترة طويلة .

أدركت أنى كنت أقف على معلم من معالم التاريخ السحيق بل من عصور ما قبل التاريخ حيث يمتد منذ نشأة الإنسان الأولى على وجه الأرض .

ذكر الكتاب أن جبل قاسيون من الأماكن المفضلة . ففى قمته توجد " مغارة آدم " وهى على مسافة ميل من المكان "المبارك" الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام بقرية برزة وتطل على "مغارة الدم " حيث قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الغيرة .

كما كان إبراهيم وموسى والمسيح ولوط وأيوب يقيمون شعائرهم الدينية فى مغارة الدم .

وهناك مغارة أخرى أطلق عليها « مغارة الجوع » لأنه ذكر فى الأثر أن أكثر من سبعين نبيا لم يكن لديهم من طعام سوى الخبز الجاف وماتوا جميعاً من الجوع .

وعلى بعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق ، توجد قرية ربوة وهى ملتقى سبعة أنهار . وذكرها القرآن الكريم فى (سورة المؤمنون) : ﴿ وَجَعَلْنَا إِبْنَ مَرْيَمَ وَآمَهُ آيَةً وَأَوْيَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

وتغنى بها محمد عبدالوهاب فى قصيدة لأحمد شوقى ولقد مررت على الرياض بربوة . والرياض هنا : الحداثق الغناء والماء الوفير . كما أن دمشق عاصرت ألواناً

مختلفة من الحضارات الآشورية والإغريقية والرومانية والمسيحية واليهودية ، إلى أن دخلها المسلمون ورويت أرضها بدماء الآلاف الذين سقطوا نتيجة الحروب والصراعات عبر التاريخ .

وفى عهد الملك أمنحتب الأول الذى خلف أحمس فى عام ٥٤٦ ق.م. امتد النفوذ المصرى حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين ، ووجدت هذه الحملات منقوشة على جدران المعابد ، واعتبرت مصدراً رئيسياً للمعلومات حول سياسة مصر وسوريا .

وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم عام ١٤٩٠ ق.م. قهر قوات التحالف بقيادة أمير قادش وسجلت أسماء ١١٩ مدينة على أحد جدران معبد الكرنك . ومن بين المدن التى ذكرت ، ظهرت دمشق لأول مرة فى التاريخ . كما نجح أمنحتب الثالث (١٤٣٨ - ١٤١٢) ابن تحتمس الثالث . وقد وجدت نقوش على قاعدة تمثال فى المعبد الجنائزى للملك رمسيس الثانى فى الجزء الغربى من طيبة تظهر دمشق للمرة الثانية فى النصوص ضمن المدن السورية التابعة أو الصديقة لمصر .

ويقال إن مكان دمشق كان داراً لنوح عليه السلام ، ومنشأ خشب السفينة كان من جبل لبنان وأن ركوبه السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع .

وصف أحد المؤرخين دمشق بأنها جنة الله فى أرضه ويحيط بها الغوطة ذات الأرض الخصبة التى تمد المدينة بخيرات غذائية متنوعة من بساينها الغناء .

السؤال الآخر الذى كنت أبحث عن إجابة له هو الجامع الأموى بدمشق . فعندما زرتة شعرت بانبهار أمام عظمة هذا الصرح الإسلامى ، ووجدت فى هذا الكتاب إجابات مستفيضة عن تكاليف بنائه فى عهد الأمويين والصراعات التى نشأت عند إنشائه حيث كانت توجد فى مكانه كنيسة ، كذلك الفن المعماري والزخارف . وعند انتهاء بنائه كان تحفة معمارية فنية إسلامية رائعة رغم ما تعرض له من حرائق وتدمير وتخريب .

ولا زالت دمشق تزخر بالآثار الإغريقية والرومانية والإسلامية الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبيّة والملوكية .

اشتهرت دمشق بالرخاء وتقدم الصناعة والحرف فى مجالات شتى لأن أهلها صناع مهرة فى المنسوجات والأسلحة والجلود ، كما كانت معبرا للتجارة القادمة من الشرق ومن الجنوب وتمر إلى أوروبا .

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٧ وفيه يتحدث الكاتب عن "دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية " وكان قد أصدر كتابا آخر عام ١٩٩٤ بعنوان " دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر " .

وللتسلسل التاريخي السليم ، يعتبر الكتاب الخاص بدمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية : الجزء الأول ، والكتاب الخاص بدمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر الجزء الثانى .

وبذا تكتمل الصورة عن إعطاء فكرة متكاملة عن دمشق أو بمعنى أدق الشام أو بمعنى أشمل : سوريا ولبنان والعراق والأردن وفلسطين والأحداث الجسام التي مرت بتلك المنطقة .

يبدأ كتابنا هذا بمقدمة يتحدث فيها المؤلف عن جمال دمشق ووفرة مياهها وحدائقها الغناء .

ثم يقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول مطولة :

١- من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة الأموية .

ففى عهد الأمويين سيطرت دمشق على إمبراطورية شاسعة تمتد من المحيط الأطلنطى حتى الهند والسند ، وكان ذلك عصرها الذهبى ويشهد على ذلك الجامع الأموى الشهير .

٢ - الدولة العباسية والسلاجقة .

٣ - حكم الأتراك .

ويتعرض المؤلف لما مر بتلك المناطق من أحداث .

ويفضل وحدة مصر وسوريا ، أمكن التغلب على الغزاة والمحتلين من الصليبيين والتتار وهزيمتهم وطردهم وذلك بزعامة عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وقطز إلى أن جاء العثمانيون بزعامة السلطان سليم الأول وهذا ما سيتحدث عنه المؤلف فى الجزء الثانى .

تمهيد

صورة من الجنة

رغم أن دمشق لا تبعد سوى خمسين ميلاً عن البحر ، فإن سلسلة جبال لبنان تصد الرياح الرطبة المحملة بالأمطار وتجعل جو دمشق شبه صحراوي . وتقع على منحني خط الأمطار حيث تتجاوز مائتي ملليمتر في العام ، ويفصلها عن الصحراء سهل خصب يمتد من الغرب محملاً بالمواد الرسوبية القادمة من جبال لبنان . تقع دمشق على ضفاف نهر بردى ، ويحدث في سنوات الجفاف الشديد أن تجف مياه نهر بردى ، وتساعد سلسلة جبال لبنان على الحد من بخر المياه الناتجة عن الأمطار وجريانها في أماكن شاسعة بل تعمل على امتصاصها وحفظها في باطن التربة وتتدفق بعد ذلك في شكل ينابيع عند سفوح سلسلة الجبال لتغطي منطقة سهل الزبداني . وهذه الينابيع لا تنضب ولا تجف بل تظل مليئة بالمياه الجوفية حتى مع تعاقب الفصول وتقلبات المناخ . يقال إن دمشق تشرب من سبعة أنهار عبارة عن فروع . وبالقرب من بسمية عين الخضراء ماؤها صاف عذب بارد طيب جداً يخرج من سفح الجبل ويجري في قناة قديمة . وعلى جانب منها يزهو بأبهى حلة طبيعية وفي الجانب الآخر النهر وحولها الجبال الشاهقة ، فهي جنة أصبحت سلوى الغريب ومنتزه القريب . وإذا سلكت دمشق ترى نهر بردى عن يمينك ونهر يزيد عن يسارك ، ثم بعيداً قليلاً وعلى بعد ميل من دُمر يتفرع منه نهر ثورا وهو على اليسار أيضاً ثم يتفرع منه نهر القنوات ثم نهر بانياس والباقي يظل اسمه بردى . أنشأ نهر بردى في موقع دمشق واحة متسعة هي الغوطة المشهورة ، وهذه الواحة تعد بحق روضة من الرياض . وتعتبر سهول دمشق ذات تربة حمراء خصبة جداً . وتنتج هذه الأراضي جميع البقول والحبوب والخضرة

والفواكه وكلها من أجود الأنواع ، ولاسيما المشمش والآس والعنب كما يكثر فيها الحور والصفصاف .

ومنذ العصر الآرامي ، عمل الإنسان على الاستفادة من تلك الميزة ، فقام بتوزيع المياه من جانبي نهر بردى بحفر أعداد كبيرة من القنوات مشكلا بذلك ما يشبه مروحة كبيرة تعمل على تغذية المدينة بالمياه ورى آلاف الهكتارات من الأراضي الخصبة الغنية بالفرين إضافة إلى تصريف المياه الراكدة من مياه الأمطار الشتوية . تتفرع جميع القنوات الرئيسية من نهر بردى عند وصوله إلى قرية ربوة التي تبعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق . يخرج من الشاطئ الأيسر فرعان هما اليزيد والتورة ، ومن الشاطئ الأيمن أربعة أفرع هم : الميزاوى والدارانى والقنوات وبانياس .

إن تلك الوفرة فى المياه - وبهذا الشكل من الاتساع - كانت من العوامل الدائمة التى تدعو للانبهار والإعجاب . وقد كتب العالم الجغرافى ابن حوقل فى نهاية القرن العاشر الميلادى يقول : " ينساب الماء فى كل مكان ، فى البيوت والشوارع وفى الحمامات " . وعلق المؤرخ الدمشقى ابن عساكر فى القرن الثانى عشر الميلادى قائلاً : " إن وفرة المياه هذه لهى إحدى المميزات الرائعة لهذه المدينة (.....) لأنه فى أغلب البلاد لا يتم الحصول على المياه إلا مقابل الدفع " .

وذكر عالم الطبيعيات الفرنسى بيلون دى مان عام ١٥٥٥م قائلاً : " توجد درجة عالية من الرفاهية والراحة فى وفرة المياه بدمشق (.....) حتى إن كل فرد فى المدينة يكاد يكون لديه نافورة سواء فى حديقته أو مسكنه " .

وابتداء من شهر أبريل وحتى نهاية شهر نوفمبر (فترة عدم سقوط الأمطار) توضع المياه تحت تصرف كل قرية . وتوضع مقسمات لحجز المياه بين صخور ضخمة ويتم عملية توزيع المياه على القرى وارى الأراضي بصورة عادلة . وفى مدينة مثل الغوطة ، يقوم أشخاص بصيانة ومراقبة نظام توزيع المياه حيث يقومون بفتح وغلق المقسمات الخاصة بسريران المياه ومراقبة أى تلاعب قد يحدث .

وهكذا فبفضل جهد الإنسان وصبره ، وبسبب وجود طبقة مائية ضخمة من المياه المليئة بالغرين الخصب والتي تمتد تحت سفح جبل قاسيون ، قامت حول مدينة تعتبر قوية منذ أقدم العصور ، ومناطق زراعية هي الأقدم والأغنى في الشرق الأوسط .

وفى الجزء الغربى حيث السيطرة على مياه الرى والصرف فائقة ، نجد الغوطة أو بعبارة أخرى مساحة من الخضرة تغطى أكثر من ثمانية آلاف هكتار وتمتد لمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً طولاً ، وحوالى عشرة كيلو مترات بالعرض . عليها أكثر من مائة ألف بستان وزراعات بقولية : أشجار مشمش ورمان وتفاح وكمثرى ، وخوخ وكرز وبرقوق وتين ورمان ، وخيار وقرع وطماطم وفاصوليا ، وحمص وقنب ويانسون، وزهور وورد دمشق المشهور ..

ثم تأتى بعد ذلك مساحة ضخمة من أشجار الفاكهة والحبوب . وفى منطقة الزور حيث بساتين الفاكهة تجاور أشجار الحور والصفصاف . وإذا اتجهنا ناحية الشرق نجد فرصة الرى أقل وبالتالي الدورة الزراعية أطول وتصلح فيها زراعة الكروم والحبوب وأشجار الزيتون . وأبعد قليلاً من تلك المناطق ، تحل الزراعات الكثيفة محل النباتات . وتتباعد القرى ويشح الماء . وهنا تتواجد منطقة " المرج " أو المراعى وهى أقل سكاناً لكن مساحتها ضعف مساحة الغوطة . وتتميز بأنها تصلح للرعى وزراعة الحبوب فيكون السهل مخضراً فى الربيع ، كثيباً ومثيراً للغبار باقى أيام السنة . وتعرف تلك المناطق بالبادية ثم فى الصحراء أو بعبارة أخرى تلك المنطقة الشاسعة المليئة بالأحجار والتي تمتد حتى شمالى شبه الجزيرة العربية .

أما عن المدينة ذاتها فيحدها من الغرب جبل قاسيون ، وهو آخر سلسلة جبال لبنان الشرقية . وفى بداية السهل الخصيب وعلى الشاطئ الأيمن لنهر بردى وعلى بعد مسافة قصيرة من الجبل ، يمتد من الشرق إلى الغرب على مساحة أقل من كيلو مترين ، ربما لأسباب إستراتيجية ، أربعة تلال صناعية ارتفاعها حوالى عشرين متراً

تحدد موقع عصر من العصور المختلفة ، وأعلى تل هو الأقدم حيث يحدد موقع عصر الحجر المصقول .

يوجد التل الأول جنوب شرق الجامع الكبير على مسافة أقل من خمسمائة متر من بردي ، والثاني فى الحى المسيحى ، والثالث فى الحى اليهودى ، أما الرابع ففى الجزء الشمالى من حى شاغور .

تعتبر دمشق منذ القدم مركز إنتاج زراعى وموقع تبادل بين البدو والحضر، ونقطة التقاء الطرق الصحراوية والممرات الجبلية وكذلك لخطوط سير القوافل للقادمين من الهند والصين عن طريق الخليج الفارسى ، وشبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق أفريقيا ، ومن الأناضول وآسيا الوسطى ، كما أنها على اتصال وثيق بالبحر المتوسط عبر موانئها الطبيعية فى صور وعكا . لذلك كانت دمشق منذ القدم مصدر إلهام سياسى وتجارى وثقافى . تعتبر دمشق منذ العصر الآرامى من أوائل المدن السورية لموقعها الإستراتيجى ولأنها تمثل نقطة التقاء بين ثلاث قارات وبين البحر المتوسط ونهر الفرات ، وجبال طوروس والصحارى العربية .

وقد أضفت مياهها الجارية ووفرة حدائقها بصمات واضحة على نفسية البشر هناك . وقد وصفها المؤلفون المسلمون بأنها صورة من الجنة . ووصفها الطبرى ضمن أركان الدنيا الأربعة ، فهي "ملينة بالنعيم والبهجة ومتع الحياة " . ووصفها المقدسى بأنها إحدى جنات الدنيا الأربع كما وصفها الدمشقى بأنها "من أكثر المدن على وجه الأرض قدسية وجمالاً وأناقة وأنها تشبه طائراً أبيض يرقد على مرعى شاسع ويرتوى بمياه متجددة " . وكتب ابن بطوطة - الرحالة العربى الشهير - عنها فى القرن الرابع عشر قائلاً : "لقد تجاوزت جميع المدن الأخرى فى جمالها وكمالها " ، بينما شبهها أحد الشعراء بأنها "شامة الحسن والجمال على جبين العالم " . وبالنسبة للأوروبيين فإنها تعتبر واحة الأمان التى يستريح فيها المرء بعد طول عناء من السفر عبر الصحراء .

وفيما يتعلق بأصل مدينة دمشق ، فمن الصعب الوصول إلى معرفة ذلك قبل علم الآثار القديمة الذي ظهر مؤخراً ، ذلك أن الغموض وعدم وضوح الرؤيا أصبحا كاملين ولجأ كل إنسان إلى الاجتهاد الشخصى كل حسب طريقته ، وأغلب الظن باللجوء إلى "سفر التكوين" وذلك بالعودة إلى العصور السحيقة . " بنيت دمشق على يد دمشق بن قانى بن مالك بن أرفاشاد بن سام قبل ميلاد إبراهيم عليه السلام بخمس سنوات " . وأكد ابن روشيه دون تردد - وهو مؤلف من القرن العاشر الميلادى وموطنه أصفهان - أن " مكان دمشق كان دارا لنوح عليه السلام ومنشأ خشب السفينة من جبل لبنان وأن ركوبه السفينة كان من عين الجر من ناحية البقاع ، وأن أول حائط وضع فى الأرض بعد الطوفان حائط دمشق وحران " .

ويعتبر جبل قاسيون من الأماكن المفضلة . ففي قمته توجد "مغارة آدم" وهى على مسافة ميل على الأقل من المكان "المبارك" الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام بقرية برزة فى جبل قاسيون ، وتطل على "مغارة الدم" حيث قتل قابيل أخاه هابيل بدافع الغيرة .

وكان إبراهيم وموسى والمسيح ولوط وأيوب يقيمون فيها شعائهم الدينية . كما وجد فيها إلياس مأوى حيث هرب من ملوك قبيلته . كما ذكر أن المسيح جاء وأقام بها هو وأمه . وفى بيت لاهيا شرق دمشق كان يتواجد أذر والد إبراهيم يمارس عبادة الأصنام التى رفضها ابنه واتجه إلى عبادة الله الواحد الأحد وقام بتحطيم تلك الأصنام .

وذكر ابن عساكر أن بين الجبل وباب الفرادس (وهو أحد أبواب السور الشمالى) توجد مقابر لسبعمائة نبي . كما أن العقائد المتعلقة بالعالم الآخر كالبعث والحساب ليست غائبة ؛ ففي الأثر : " ستكون دمشق الملاذ الأسمى للبشر عندما تتدلع الاضطرابات الدموية فى نهاية الزمان " . وذكرت تقاليد أخرى أن عيسى عليه السلام سينزل من السماء إلى دمشق عن المنارة البيضاء الكبرى للباب الشرقى للجامع الأموى وتحمل تلك المنارة الشرقية اسم عيسى عليه السلام .

عالمان وجهاً لوجه

طالب الآباء الأوائل للكنيسة بإيجاد نوع من التسامح والحرية الدينية وذلك عملاً بتعاليم المسيح . إلا أن كل شيء قد تغير وقامت اضطهادات رهيبة^(١) وغرقت الإمبراطورية فى دماء الضحايا والشهداء^(٢) ، وطالت أولاً كل من كان يطلق عليهم أصحاب البدع والمخالفين ، ثم اليهود والسامريين ، ثم اتجهوا إلى عبدة الأوثان .

وقد ذكر فولتير أن الكراهية المتعلقة بالخلافات اللاهوتية هى الأكثر والأشد قسوة من أى كراهية أخرى .

ولم تنج المعابد الدينية التى كانت عبارة عن تحف فنية وتدل على عبقرية الإنسان فى بنائها من محاولات هدمها وتخريبها ، رغم أنه لا يوجد مثيل لها على مر التاريخ . فقد قامت الجماهير الثائرة بهدمها وتخريبها وذلك بقيادة رهبان متعصبين . ومنذ بداية القرن الخامس الميلادى ارتكز أوجستين المفكر المسيحى الشهير بعد سان بول على فقرات تدعو إلى رجم أصحاب البدع .

وعندما ظهر الإسلام ، وجدت هذه الكراهية التى كانت تتجه نحو الملحدين والمخالفين طريقاً آخر للتعبير عن نفسها خصوصاً فى المنافسة الروحية لحقيقة أصول العقيدة إضافة إلى المنافسة السياسية - العسكرية الأكثر إيلاً وحزناً ، فالغزو الإسلامى السريع الذى انتزع كالبرق - من بيزنطة فى بضع عشرات من السنين - الشام ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا ، ترك فى الوعى التاريخى الغربى صورة عن الإسلام مليئة بالكراهية والعداء . ورغم ذلك فعلى الصعيد الدينى ، فإن الدين الجديد هو أيضاً دين الخلاص والنجاة والاتجاه نحو العالم الآخر ، وظهر ذلك فى مواقف عديدة مع بعض اختلافات طفيفة جداً بالنسبة لطوائف مسيحية معينة ، خاصة تلك التى كانت ترفض اعتبار المسيح ابن الله وأنه مساو فى الجوهر مع الأب .

ولكن بدلاً من التعبير عن الرضا والشعور بالعرفان لهذا الدين الذى نادى بالتوحيد ، وجهت التقاليد المسيحية اللوم إلى النبی محمد بإيقافه انتشار المسيحية بشكل واضح واتهموه بأنه نشر الإسلام بحد السيف . ولكن هناك من نقض أقوالهم ، فقد كتب فولنى Volney مندداً بالمجازر والمذابح التى قام بها الصليبيون ضد المسلمين . كما قام المستعمرون الغربيون فى القرن السادس عشر وفى جميع القارات وأثناء التوسع الأوروبى بأعمال بربرية وقال " أليس الأوروبيون هم الذين مالوا الأرض بظلمهم منذ ثلاثمائة عام ؟ أليسوا هم تحت ادعائهم التجارة اكتسحوا الهند وأخلوا قارة جديدة من سكانها حيث أبانوا الجزء الأكبر من السكان الأصليين لقارة أمريكا واستعمار هذا الجزء من العالم بأناس سرقوهم من أفريقيا ، والاضطهادات التى لا تتوقف ضد المخالفين لهم فى ملتهم ، ومحاكم التفتيش ، بالإضافة إلى جرائم أخرى عديدة لا تنتهى ؟ "

وابتداء من القرن الثامن عشر ، وبدافع التقدم الفنى ، ظهرت مبادئ وقيم جديدة أوجدتها الثورة الفرنسية دون أن يكون لها اعتبارات دينية تستخدم كتبرير لمحاولات التوسع والغزوات وجاءت بقيم علمانية ، التعليم وتحرير الشعوب التى توصف عامة بالرجعية والتخلف ونشر الحضارة والتقدم . وقد ذكر جون ستيوارت ميل عام ١٨٥٩ أن " روح التقدم لا تنم أبداً عن روح الحرية ، لأنه من الممكن أن تؤدى إلى فرض التقدم على شعب متحفظ يكتّم ما يجب أن يقال " . وهكذا ففي عام ١٩٢٠ كان إعلان حقوق الإنسان فى يد ، والبنديقية فى اليد الأخرى ، عندما فرضت فرنسا وصايتها على سوريا وجعلت أولوية بصورة تدعو للنفاق لمهمتها "التاريخية" وهى حماية الأقلية المسيحية ، ومن ناحية أخرى "إخلاصها" و "نواياها الطيبة" ورغبتها فى "نشر الخير وفرض نظام يؤدى إلى الاستقلال والنظام والتسامح وزيادة الثروة" . ولم تنطل اللعبة على السوريين الذين أعربوا عن غيظهم وخيبة أملهم واعتبروا أن ذلك خيانة وغدراً واستغلالاً للمبادئ العالمية ، وفقدت فرنسا ثقة الرأى العام العربى بصورة نهائية وبالأذات فى سوريا والجزائر.

الكارثة

كان النصف الأول من القرن العشرين بالنسبة لدمشق وسوريا من أحلك الفترات في تاريخهما . ففي عام ١٩١٥ وعد الإنجليز العرب بالاستقلال ووحدة أراضيهم بأكملها داخل الحدود الممتدة من جنوب جبال طوروس في مقابل اشتراكهم في الصراع ضد الإمبراطورية العثمانية . وفي العام التالي عقدت مفاوضات سرية بين إنجلترا وفرنسا تم على أثرها تقسيم الشرق الأوسط إلى "مناطق نفوذ" .

وأخيراً ، وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ ، صدر وعد وزير الخارجية البريطانية ومنحت - دون علم الشعوب المعنية - أرضاً لا تمتلكها وتعهدت " بتسهيل إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين بشرط احترام حقوق العرب" . وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وانتصار الحلفاء ، قيل إن بعض الأقطار التي كانت تابعة لدول مهزومة ومن بينها الدولة العثمانية ليست قادرة على حكم نفسها بنفسها ، ولذلك يستحسن أن يعهد بإدارتها مؤقتاً إلى دولة متقدمة تساعد على ممارسة الاستقلال فيما بعد . ولم توزع هذه الأقطار بين الدول الكبرى إلا في مؤتمر سان ريمو في أبريل ١٩٢٠ ، وانفسح المجال أمام بريطانيا وفرنسا لكي تنفذ سياستهما التوسعية في الشرق العربي . واختصت فرنسا بالانتداب على سوريا ولبنان . والجزء الجنوبي وفلسطين وشرق الأردن تحت الانتداب البريطاني . وبعد عامين قامت قوات الجنرال جورو بطرد الأمير فيصل من دمشق في يولية ١٩٢٠ .

وقامت فرنسا باتباع شعار " فرّق تسد" لتحطيم التحالف الوطني . وكان من السهل عليه أن يجد ضالته في النعرة الطائفية الموجودة عند بعض موارد لبنان . كما قامت بتمزيق سوريا ، فأنشأت على الساحل الدولة اللبنانية . وفي الداخل حاولت فرنسا ضم

السكان في حكم ذاتي محلي وأنشأت دولة حلب ودولة دمشق وجبل العلويين . ولكن الشعور بالوحدة لدى السوريين لم يضعف ، وعبر فيصل عن خيبة أمل العرب وشعورهم بالمرارة في مذكرة بعث بها إلى القسطنطينية يتحسر فيها على الوحدة التي كانت سائدة أيام الحكم العثماني .

وفي أكتوبر ١٩٢٥ وصلت أخطاء فرنسا السياسية إلى الذروة عندما قمعت بطريقتها الثورة الوطنية وقامت بغارات مكثفة على دمشق ، وقتل عدد ضخم من المدنيين ، ودمر الجزء الغربي من المدينة بالكامل .

كان الانتداب يخفي وراءه موقفاً استعماريًا حقيقياً . فرغم أنه كان ينص على فترة مؤقتة ، إلا أن نتائج التدخل الأوروبي تركت آثاراً ضارة على مجرى الأحداث في الشرق الأوسط تمثلت في دوام تقسيم الحدود مما أدى إلى انقسام وإضعاف العرب . وفي عام ١٩٤٨ ، قامت على جزء من أرض الشام الجنوبية دولة إسرائيل وهي دولة قائمة على الحرب والتوسع . ومنذ إنشائها قامت خمس حروب مسلحة كانت في كل مرة تعرض السلام العالمي للخطر . ومنذ البداية لم تخف الحركة الصهيونية أيًا من أهدافها ، فليس إنشاء وطن قومي في فلسطين ، كما نص عليه وعد بلفور ، وإنما تحويل فلسطين إلى دولة يهودية . ولم تتوان عن إظهار تحديها أولاً بالريبة وعدم الثقة ، ثم بالعداء تجاه السكان الشرعيين لفلسطين . وفي ٢٧ فبراير ١٩١٩ رد الدكتور وايزمان على وزير الخارجية الأمريكي عندما استفسر منه عن مفهوم " الوطن القومي " قائلاً : " ينبغي إنشاء أمة بالتدريج ستكون يهودية مثل فرنسا الفرنسية وبريطانيا البريطانية " .

ومن جانبه كان فلاديمير جابوتسكي زعيم الحزب التعديلي نو الميول الفاشية - والذي كان بن جورويون يطلق عليه " فلاديمير هتلر " مناحم بيجن " يطلق على الصهيونية تعريفاً مفاده أنها حركة تهدف إلى إنشاء أغلبية يهودية في أرض إسرائيل على جانبي نهر الأردن ويعلن أن " هذا المفهوم قد اخترناه حتى لا نسبب إزعاجاً أو قلقاً للسلطات التركية في ذلك الوقت " . وجاء تفسير آخر مطابق لهذا من جانب

بن جوريون : " وطن قومي معناه تحويل كل الأراضي التي يغطيها الانتداب على أرض إسرائيل على جانبي نهر الأردن إلى دولة يهودية ، أى كومنولث ذو أغلبية يهودية " وقد أعلن بن جوريون أثناء اجتماع لجنة العمل الصهيوني الذي عقد بلندن فى يولييه ١٩٣٢ هذا الشعور الذى يستحوذ على أفكار الغالبية العظمى ، والذى لابد من تنفيذه حسب الأفكار الصهيونية ، وهو تحويل الوطن إلى دولة يهودية .

وقد تجلى هذا المفهوم على الطبيعة بنداء إلى الهجرة الجماعية ، والعمل على طرد الفلاحين من "الأراضي المغتصبة " . وعندما لجأ الملاك اليهود إلى تشغيل الأيدي العاملة الفلسطينية لديهم لرخص أجورهم هاجمهم بن جوريون بشدة . كما كان يخشى من تكوين دولة ذات أغلبية عربية لأنها كانت ستعمل حتماً على إيقاف الهجرة اليهودية . وأعلن بن جوريون أمام مؤتمر بال فى يولييه ١٩٣١ "إننا نرفض سيطرة الأغلبية الموجودة حالياً (العرب) على الأقلية التى لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من الأمة العبرية فى الطريق نحو بلدهم .

وفى عام ١٩٣١ وبعد تسعة أعوام من إنشاء إمارة شرق الأردن تحت الانتداب البريطانى ، أعلن بن جوريون فى مؤتمر بال فى الضفة الشرقية لنهر الأردن توجد أراض عديدة وجاهزة . وسوف نستخدم الأردن كحد لهجرتنا واستقرارنا " . وفى عام ١٩٣٧ اقترحت لجنة بيل خطة للتقسيم لم تمنح اليهود سوى ٢٥٪ من الأراضي الفلسطينية . لكن بن جوريون رد على هذه اللجنة قائلاً : " إن الحدود التى يقترحونها علينا سوف نحطمها وليس بالضرورة عن طريق الحرب " .

تصريحات وتصرفات مخالفة تماماً لنص وروح وعد بلفور ، كما عبر بذلك السير هيربرت صامويل المفوض السامى البريطانى فى تقرير بعث به فى صيف ١٩٢١ ذكر فيه أن تطلعات الصهاينة تتم على حساب حقوق العرب . أما العرب أنفسهم فقد أعربوا عن قلقهم . وحدث عصيان وتمرد لدى الفلسطينيين الذين كانوا يجهلون ما يخبئه لهم المشروع الصهيوني . وقامت احتجاجات عديدة فى الدول المجاورة . وفى ربيع ١٩١٤ وجه أعيان القدس ويافا وغزة نداء فى إحدى صحف

إسطنبول : " إذا لم يهب الرجال المخلصون لنجدة الفلسطينيين فإن مصيرهم سيكون مصير الهنود الحمر نفسه بأمريكا . فالصهيونية كنولة داخل الدولة العثمانية إنما تهدد الوجود العربي نفسه في فلسطين " .

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٣٣ أعلن عمدة نابلس للمفوض السامى البريطانى قائلاً "يشعر العرب بأنهم مهددون وبأنهم سيجدون أنفسهم مستبعدين أو مطرودين من بلادهم . والقول بأن اليهود سيجعلون حياتهم مزدهرة لا يعنى شيئاً ، لأننا لو وجدنا أنفسنا مستبعدين أو مطرودين فلا يهم أن نصبح أكثر غنى وجمالاً " . والطرده بلا قيد ولا شرط وإن يتأخر المستقبل القريب فى إثبات ذلك لأن العناصر الأكثر تطرفاً كانت تتنادى بذلك علناً أو قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية لسته أشهر تبنى حزب العمال البريطانى قراراً يطالب فيه بترحيل جميع عرب أرض إسرائيل إلى الدول المجاورة .

ومنذ بداية الحرب العالمية الأولى تكونت الجماعات الإرهابية السرية من رجال مدربين تدريباً جيداً داخل الكوماندوز الخاص بالجيش البريطانى ثم اتجهوا إلى مهاجمة قوات الانتداب البريطانى ، وأكثر الجماعات تطرفاً جماعة « شتيرن » التى كانت تطالب بدولة يهودية من النيل إلى الفرات . وقد وصل الأمر بهذه الجماعة إلى أنها أيدت إقامة تحالف مع هتلر ضد بريطانيا .

وابتداء من أكتوبر ١٩٤٥ حدثت عمليات اغتيال وخطف ضباط بريطانيين وأعمال نأر وسرقة أسلحة وهجوم على مراكز وأقسام الشرطة والثكنات العسكرية وزادت عمليات تخريب مصافى البترول والجسور والسكك الحديدية إلخ ، وفى ٢٢ يولية ١٩٤٦ قامت جماعة أتيزل بزعامة مناحم بيغن بنسف فندق الملك داود حيث كان مقراً للقيادة العامة للقوات البريطانية ، وأسفر الانفجار عن مصرع أكثر من مائتى قتيل من بينهم خمسة عشر مدنيا من اليهود . وإزاء هذا الجو من العنف شعرت بريطانيا بعجزها التام عن مواجهة الأهداف والأساليب التى يتبعها الصهاينة ، فقررت فى ١٤ فبراير ١٩٤٧ طرح المسألة الفلسطينية أمام الأمم المتحدة . وتمت الموافقة على

قرار التقسيم بأغلبية ثلثي الأصوات . وفى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صدر قرار الأمم المتحدة من جانب واحد مخالفاً لأمانى وتطلعات سكان فلسطين الشرعيين ولم يقبلوه سواء من حيث المبدأ أو الصياغة المحددة ، وفى الوقت الذى كان فيه اليهود أقل من ثلث السكان فى فلسطين فإن الخطة منحتهم ٥٧٪ من الأراضى وبصفة خاصة الأراضى الخصبة وابتداء من ديسمبر ١٩٤٧ عمل الصهاينة رغم تظاههم بقبول القرارات الدولية ، على زيادة رقعة الأرض التى خصصتها لهم الأمم المتحدة ووضع الحلم القديم الخاص "بالتطهير العرقى" موضع التنفيذ وذلك بمضاعفة تصريحاتهم الخاصة بإعلان الحرب .

ومن المعروف أن بن جوريون الذى لم يعتقد أبداً فى إمكانية التعايش مع العرب ، فإنه طالب بشن هجوم على نطاق واسع حتى يقلل إلى أدنى حد النسبة المئوية لعدد السكان العرب داخل حدود «الدولة المستقبلية» لأنه كما ذكر " كلما قل عدد العرب ، سيكون ذلك أفضل " . ومن جانبها أعلنت جماعة أرجون أن تقسيم الوطن كان غير عادل وأن القدس لابد أن تكون العاصمة الأبدية ونادت بإجراءات قمعية " بالدم والنار " . وعملت ورش صناعة الأسلحة بأقصى طاقتها وتم شراء أسلحة بكميات ضخمة من الخارج ، ونفذت عمليات معدة مسبقاً وبدقة فى جميع أرجاء فلسطين سواء داخل أو خارج الحدود التى خصصتها الأمم المتحدة لإسرائيل .

وكان الهدف وراء كل ذلك هو الغزو بلا قيد أو شرط تبعه فى كل مرة هدم القرى وتخريبها وطرد سكانها . وفى ١٩ ديسمبر حدث هجوم مباغت على قرية القزاة المجاورة لمستعمرة زريجوفوت ، وتم نسف منزل العمدة بمن فيه من الناس . وذكر المتحدث باسم جماعة الهاجاناه أن المدنيين وكبار السن والنساء والأطفال كانوا يذبحون بدم بارد داخل منازلهم . وعندما اقترب ١٥ مايو ١٩٤٨ موعد رحيل آخر جندي من القوات البريطانية ، استمرت العمليات بشراسة . وفى ليلتى ٩ ، ١٠ أبريل ١٩٤٨ وحوالى الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، توغلت قوات مشتركة من الأرجون وليهى داخل قرية دير ياسين (وهى تتبع الدولة العربية فى خطة التقسيم) ، وقاموا

بقتل أكثر من ثلاثمائة شخص بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والسلاح الأبيض . وأعلنت الأرجون عن العملية فى مؤتمر صحفى سرى وقدمتها على أنها " البداية لغزو فلسطين ، وضفتى نهر الأردن " . وفى نهاية الشهر تم جلاء القوات البريطانية وتقدمت القوات اليهودية إلى حيفا " مثل السكين فى قالب الزيد " وتملك العرب الرعب والهلع وفروا للنجاة بأنفسهم وهم يصرخون " دير ياسين " .

ونقل البعض على زوارق صغيرة تابعة للجيش البريطانى وآخرون فى لوريات نحو نازاريت ونابلس ولبنان .

وفى الوقت نفسه واصل بيجن شن هجماته "التطهيرية" على يافا والقرى المحيطة بها . وبدأ العرب يغادرون المدينة رغم القنابل والقذائف التى كانت تصب عليهم من كل جانب .

وكتب بيجن يقول : " وصلت الفوضى إلى أقصى درجة . ازدحمت الشوارع وهدمت المنازل وبدأ البعض عمليات السلب والنهب والاغتيال " . نهاية أبريل تم إجلاء ٣٠ ألف شخص من الأحياء العربية فى القدس . وهنا بدأ شعور يقينى بأن الأغلبية الساحقة من السكان أصبحت يهودية . وفى ١٥ مايو وفى الوقت الذى كان المفوض السامى البريطانى يغادر فلسطين ، كانت مئات الآلاف من الفلسطينيين قد أصبحوا لاجئين وأن القوات اليهودية تحتل مناطق مهمة كانت بحوزة العرب خارج نطاق خط التقسيم الذى أقرته الأمم المتحدة . واستعد بن جوريون وحكومته المؤقتة لإعلان استقلال إسرائيل على الملأ . وامتنع الإعلان عن تحديد حدود معينة للدولة الجديدة لأنه لم يكن لدى بن جوريون النية إطلاقاً الاكتفاء بالحدود التى رسمتها له الأمم المتحدة ، بل كان يريد توسيع نطاقها ، وأنه كان على يقين بأن التقسيم لم يكن سوى مرحلة ، وأنه كان بانتظار فرص جديدة تسنح حتى تصل إسرائيل أخيراً إلى ما تريد تحقيقه حتى لو استدعى الأمر الانتظار عدة قرون فى سبيل تحقيق الهدف النهائى .

وكان مناحم بيجن قد أذاع كلمة قال فيها : "الجيش العبرى هو وحده الذى يقرر الحدود اليوم وغدا" . وعندما دخلت الجيوش العربية المشتركة لنجدة السكان المدنيين ، قام الجيش الإسرائيلى بتجميع آلاف المدنيين فى سيارات شحن ونقلهم إلى قطاع غزة . وفى بداية شهر نوفمبر " وأثناء ذلك الوقت واصل اللاجئين تدفقهم . وتعهد الإسرائيليون طرد العرب عن طريق المذابح العادية "المحسوبة" .

وعندما دخلوا مدينتى اللد والرملة لاحتلالهما ، " قام العدو بعمليات تفتيش من منزل إلى منزل وقبض على جميع الرجال الذين هم فى سن حمل السلاح وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال ، ثم قامت السلطات الإسرائيلية بالتنبيه على السكان الذين بقوا فى المدينتين بإخلائهما فى خلال نصف ساعة " .

فى اليوم التالى من الصراع كانت إسرائيل قد استولت على ستة آلاف كيلو متر مربع من الدولة العربية ودمرت ٢٨٥ قرية عربية وأكثر من سبعة آلاف فلسطينى خرجوا إلى المنفى . وتحملت الأردن التى كان عدد سكانها لا يتجاوز المليون نسمة العبء الأكبر من اللاجئين الذين وصل عددهم إلى ٥٠٠ ألف لاجئ ، ومصر ٢٥٠ ألف لاجئ فى قطاع غزة بصورة رئيسية . ومنع اللاجئون من العودة إلى ديارهم . وكان بن جوريون قد أمر بتدمير ونسف جميع القرى الفلسطينية حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى بعد انتهاء المعارك . وكثير من الذين غامروا بالعودة أجهزت عليهم الدوريات الإسرائيلية بمجرد رؤيتهم .

ازدادت خطورة المأساة العربية - الإسرائيلية نتيجة التخازل الدولى وعدم الاكتراث وأيضاً بسبب الدعاية الصهيونية المنظمة ووسائل الإعلام والمثقفين والسياسيين الغربيين المتعاطفين معها ، حيث نجحوا فى قلب الحقائق وجعل المعتدى هو المعتدى عليه واللاجئين المنهزمين الجبناء الذين فروا وهجروا أراضيهم بمحض إرادتهم وشجعهم على ذلك القادة العرب .

وبالرغم من شهادة الضحايا ، وشهادة جلوب باشا ، ورغم تقارير الأمم المتحدة وإظهار الحقائق فى الصحف البريطانية منذ بداية الستينيات ، فإن الكذب تكرر بصورة متواصلة ولم يتوقف نشر وبث تلك الأكاذيب حتى كأنها من البديهيات . وربما لم يكن من السهل اتهام الأحياء الذين نجوا من الإبادة الجماعية على يد هتلر بالقيام بعمليات الطرد المنظم والمتعمد وتنفيذ عدد من المذابح المقتنة بصورة مدروسة ضد شعب بأكمله وأرض أجداده والسماح بأن يقدم العرب ضحايا للتكفير عن جرائم وتخاذل أوروبا ضد اليهود . وفى ٦ ديسمبر ١٩٦٧ رد الجنرال ديجول بخطاب على " شعب الله المختار الواثق من نفسه والمهيمن " وحاول بن جوريون أن يبرر سياسته وأكد بلا حياة قائلاً : " عندما تشتد حدة الصراع فى المدن ، كان اليهود جيران العرب يرجونهم طالبين منهم البقاء ، ولكنهم كانوا ينفذون أوامر مفتى مصر وعلى ذلك رحل معظمهم " .

يستدل من ذلك أن الأهداف الأولى التى تحققت هى طرد الفلسطينيين وضم الأراضى بلا قيد أو شرط كان نتيجة منطقية للنصر على القوات العربية المشتركة ، كما أن الستة آلاف كيلو متر مربع التى خصصتها الأمم المتحدة للدولة العربية قد اقتطعت وضمت إلى إسرائيل . واصلت إسرائيل سياستها التوسعية وباستخدام القوة بكل وقاحة وصلف بدافع التعصب العنصرى ضد العرب بكل عناد وبن شعور بأى عيب أو نقیصة فى استغلال الفرص والظروف والسيطرة المطلقة للعلاقات الدولية . أما المائة وستون ألف فلسطينى الذين فروا من " التطهير العرقى " فكانوا من سكان الجليل الأعلى وكانوا يخضعون حتى عام ١٩٦٠ لنظام إدارى عسكرى تعسفى وعوملوا على أنهم أجانب على أراضيههم ونجحت القوات الإسرائيلية فى مصادرة حوالى ٥٠٪ من أراضيههم . وكما أعلن بن جوريون أن كل ذلك لم يكن سوى البداية . وفى عام ١٩٥٦ قامت حرب موجهة ضد مصر من جانب الاستعمار الفرنسى - البريطانى بمشاركة إسرائيل ، وفى عام ١٩٦٧ قامت القوات الإسرائيلية بغزو سيناء بالكامل والضفة الغربية وقطاع غزة . وفى عام ١٩٨٢ حدث غزو على لبنان واحتلال الجزء الجنوبى من البلاد ومذبحة اللاجئين فى مخيمى صبرا وشاتيلا وهؤلاء هم سلالة من بقى من دير ياسين .

كما أن سياسة الأمر الواقع المتمثلة فى ضم الجولان والقدس الشرقية والنظام القائم على العقوبات والحكم بالغرامة فى "الأراضى" المحتلة والمخالف كلية للاتفاقيات الدولية - والذى أدينه بشدة - بقرارات عدة صادرة عن الأمم المتحدة لإسرائيل . والقائمة طويلة بالمخالفات ضد الشرعية ، من استغلال وقح للموارد البشرية والطبيعية إلى السيطرة على تحويل المياه ، وفرض قيود على الصادرات الزراعية ، ونزع الملكية وبناء مستوطنات بشكل مكثف ، والقبض على عشرات الأشخاص ، وإيداعهم السجون بصورة تعسفية والضرب والنفى والإبعاد عن المنازل والإجراءات الكيدية والمهينة ، وضم أجزاء من الأراضى دون قيد أو شرط . وقد أدت تلك السياسة المخزية والمخالفة للحقوق الدولية والشرعية إلى رفع الأصوات حتى داخل إسرائيل نفسها بإدانتها : "إننا نتصرف فى الأراضى المحتلة من الضفة الغربية للأردن وفى قطاع غزة وفى لبنان مثلما تصرفت النازية فى الأراضى التى احتلتها فى تشيكوسلوفاكيا . وفى الغرب أعلن البروفيسور ريتشا ياهو ليبوفيتز عام ١٩٨٧ رغم أنه صهيونى أن إسرائيل كانت مسئولة عما حدث فى حرب ١٩٧٣ بسبب موقفها المتصلب لأنها لم تكن مهتمة بنشر السلام بل بالغزو فقط . واختتم قائلاً : "إن دولة إسرائيل اليوم هى فى حقيقتها جهاز تعسفى للسلطة اليهودية على شعب آخر " . باريس ١٩٩٦ .

الفصل الأول

من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر الأموي

رغم أن في الشام الأثر القديم للوجود البشري بل وأول وجود للإنسان على ظهر الأرض ، فإن بعض الأدوات النادرة المصنوعة من الحجر المصقول قد يرجع تاريخها إلى حوالي مليون سنة ، فقد وجدت دلائل لاستقرار دائم على ضفاف الأنهار الكبرى كنهر العاصي والنهر الكبير ونهر الأردن ونهر الفرات لا ترقى إلى أبعد من ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف سنة .

ففي العصر الحجري القديم منذ ٢٥٠ ألف عام من عهود ما قبل التاريخ أي العصر الذي ظهر فيه أول استخدام للنار في الشرق الأوسط كانت بلاد الشام مكتظة بالسكان كما دلت على ذلك الأدوات الحجرية المنتشرة في أماكن تغطي مساحة تلك البلاد ، فقد وجدت أدوات مصنوعة من الحجر بالقرب من قرية برزا الحالية وعلى ضفاف نهر بردى وفي الأشرفية على بعد حوالي ٢٠ كيلومتراً إلى الشمال من دمشق وكانت الأدوات الحجرية موزعة على مساحة حوالي ثلاثين هكتارا .

وابتداء من نهاية العصر الحجري ، أي منذ حوالي خمسة عشر ألف عام ، بدأت درجة حرارة المناخ ترتفع تدريجياً وتقل الرطوبة وبالتالي بدأت بعض الحبوب تنمو تلقائياً بدون رى مثل الشعير والقمح والدخن حيث تأقلمت في المناطق شبه الصحراوية وكونت جزءاً لا بأس به من غذاء الإنسان . ويظهر الأدوات الصغيرة المصنوعة من الصوان بدءاً عصر الانتقال من الترحل إلى الإقامة والاستقرار وممارسة الزراعة .

وفيما بين الألفية العاشرة والألفية الثامنة ظهرت ثقافة جديدة تدعى الناتوفية انتشرت في بلاد الساحل الشرقي للبحر المتوسط وفي صحراء يهودا وجبل كرمل والجليل الأعلى ، ووادي نهر الفرات، وفي واحات الصحراء السورية واشتقت اسمها من واد في فلسطين يدعى وادي الناتوف . وينسب إلى الناتوفيين الاقتصاد الذي كان قائماً على اقتصاد النهب والسلب ، حيث أخذ طابع العصر الحجري الذي يعتمد على القنص والصيد والزراعة في القرى الأولى التي استقر سكانها ومنها أريحا في الوادي الأدنى لنهر الأردن ومرابط في الوادي الأوسط لنهر الفرات ، وذلك منذ ثمانية آلاف وخمسمائة عام حيث كانت البيوت شبه دائرية وشبه مدفونة في باطن الأرض ومبنية بمواد خفيفة ومسقوفة بأقروع الأشجار أو البوص .

في هذه البيئة المستقرة بعد الترحل في بداية الألفية الثامنة بدأ السكان يتعودون على استخدام الحبوب في غذائهم وبدأت التجارب الأولى للزراعة . كما كانت منتجات الصيد تلعب دوراً كبيراً في توفير الغذاء . إلا أن الإنسان بدأ يطور غذاءه بالتدريج بدءاً من اعتماده على طريقة النهب والسلب إلى إنتاج غذائه . فالسكان الذين كانوا دائماً رحلاً ، أصبحوا الآن منقسمين داخل جدران صغيرة مستقيمة واستمروا في صناعة الفخار وأدوات من الأحجار المصقولة تتكون من رأس سهم ونصل منجل . كما بدأوا يتعايشون مع صناعة الأدوات المصنوعة من العظم . كان الصيد يحتل أهمية كبيرة لدى الناتوفيين ثم تركز على الحيوانات آكلة العشب مثل الجاموس البري والخنزير .

كان الفن في بعض الأحيان يمثل انعكاساً للوضع الاقتصادي والاجتماعي الجديدين، فبدأوا يرسمون ويحتون أشكالاً للحيوانات ذات طابع إنساني من الطين المحروق وبالذات لأشكال أنثوية لعبادة الخصوبة أخذوها من الحضارة المصرية القديمة والأناضول ، وبلاد ما بين النهرين ، وجزر الأربيل .

وبخلاف فلسطين ووادي نهر الفرات ، لم يتم العثور على أي تعود على استخدام الحبوب في التغذية إلا في تل الأسود ويقع على بعد حوالي عشرين كيلو متراً إلى

الجنوب الشرقى من دمشق حيث أظهرت الحفريات الإستراتيجية التى قام بها هنرى كونتسسون ابتداء من عام ١٩٧١ طبقات عميقة توضح بداية الاستقرار فى الموقع واقتصاداً قائماً على زراعة القمح على مياه الأمطار وليس على الرى وكذلك البازلاء والعدس والشعير البعلى (الذى يعتمد على مياه الأمطار دون الرى) ، وكذلك فواكه متنوعة كالفستق والتين واللوز والعنب وصيد الغزال والخنزير البرى وصيد السمك . وكانت الأدوات المصنوعة من الحجر مكونة من نصل طويل ذى أسنان دقيقة . أما الأدوات العظمية النادرة فكانت متنوعة : مثقب ، إبر ، سكاكين ، ملاعق ، مقبض للأبواب . كما كونوا أشكالاً من الصلصال العادى والمحروق لحيوانات كالغزال والوعل البرى والخنزير البرى ، وأشكالاً بشرية على هيئة أسطوانة ومخروطى ، ونساء جالسات والأيدى متشابكة على البطن أسفل الصدر . استخدم الحجر الزجاجى الأسود فى صناعة الأزميل الخاص بالحفر والمثقب حيث منشئة الأناضول كدليل على التبادل التجارى والاقتصادى .

المرحلة الأخيرة من الاستقرار فى تل الغريفى حيث أنشئت قرية جديدة على بعد خمسة عشر كيلو مترا جنوب غربى دمشق، وعلى موقع تل الرماد الذى يطل على هضبة من البازلت ، ويقع على طريق مواصلات مهم يربط بين الشمال الجنوب . كان السكان يقومون بزراعة الحبوب كالقمح والشعير والعدس والكتان وكذلك الخضروات المختلفة والفواكه مثل اللوز والفستق بالإضافة إلى صيد الغزال ورعى الأغنام . وتشبه الأبواب الحجرية المستخدمة فى تل الغريفى إلى حد كبير تلك التى كانت تستخدم فى مرابط وأريحا أو رأس شمرا . كان البازلت يستخدم فى صناعة الآلات الضخمة حيث وجدت بكثرة فى الأرض ، كما استخدم الحجر المصقول فى صناعة الأوانى المختلفة والبلطات .

وبعد ألف سنة تطورت العمارة تطوراً كبيراً خاصة دعامة الجدران التى أصبحت ذات زوايا مستقيمة واستبدل التصميم الدائرى بالتصميم المستطيل . وأصبحت المنازل تمتد على طول الطرقات وطلبت الأرضية بالجير وبنيت الأساسات بالحجر والمباني

بالطوب المحروق مقاس (٨ × ٣٠ × ٤٠) وهو يشبه قوالب الطوب المستخدمة في أيامنا هذه في القرى القريبة من دمشق . تطورت صناعة الأواني والأحواض والأقداح ، فبدلاً من صناعتها من الحجر المصقول ظهرت مادة جديدة يدخل فيها الجير المصبوب في قوالب مما ساعد على استخدام السيراميك في صناعة الأواني والأوعية .

وفي نهاية الألفية السابعة بدأ الناس يتعودون على السكن والاستقرار في قرى وزراعة النباتات واستئناس الحيوانات وصقل الأحجار واستخدام الطوب المحروق وزادت عمليات الاستقرار . فعلى الساحل ظهرت رأس شمرا ومدينة أوجاريت الكنعانية التي احتلها المزارعون عام ٦٥٠٠ قبل الميلاد ، وواحة الكوم على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات وقرية البقرس التي تأسست عام ٦٤٠٠ ق.م ، والتي سرعان ما أصبحت بلدة كبيرة من ثلاثة هيكارات ، وتضم منازل متلاصقة متعددة الخلايا وجدرانها مزينة برسومات تمثل طائر النعامة .

وفي النصف الأول من الألفية السادسة ساعدت التقنيات الخاصة بفنون النار إلى استخدامها في صناعة السيراميك حيث كان يصنع يدوياً . وفي تلك الفترة تم استئناس الماعز والأغنام والخنازير والجاموس والكلاب ، مما يدعو إلى الاستنتاج بأن حضارة تل رماد كانت قائمة أساساً على الرعي . وفي منتصف الألفية السادسة أكدت مظاهر اختفاء المنازل وندرة الأنوات المتقدمة على هجرة حياة الاستقرار ، وهو التطور نفسه الذي حدث في فلسطين . وقد يكون ذلك نتيجة تغير المناخ الذي سبب عدم انتظام الزراعة ، والهروب من تلك الأماكن لمدة تزيد عن الألف عام ، بحيث لم تستأنف حياة الاستقرار إلا في النصف الثاني من الألفية الخامسة في تل الخزامى الواقع على بعد ثلاثة كيلو مترات من تل أسود إلا أنه مع الأسف ، وفي موقع المطار الجديد قامت بعثة تنقيب لإنقاذ بعض الأواني التي جمعتها من تل الرماد ، وقد تأكلت طبقاتها الداخلية بفعل عوامل الزمن . ولذا لم يتم الاستدلال على أي شيء في دمشق من الألفية الخامسة والرابعة .

وفى نهاية الألفية الخامسة ظهرت ثقافة أوبيد Obeid وسميت كذلك نسبة إلى موقع صغير فى حوض بلاد ما بين النهرين الأدنى ، حيث نشأت قبل ألف عام ونشرت نورها على بلاد الشام بالكامل والخليج الفارسى حتى وصلت إلى البحر المتوسط . وتتميز هذه الثقافة بسيراميك أحادى اللون . فهى تمثل تقدما حاسما على طريق العمران ، ففي ضواحي إريدو Eridu ظهرت للمرة الأولى بجوار المساكن مبان ضخمة ذات طابع عام ومعابد ذات أشكال جديدة ونظام جماعى . وفى شخص الملك - الكاهن وبناء على المعرفة العميقة والقوة والسلطة بفعل تراكم الثروة ، أقيم فن معمارى يدعو للفخر ، وقد تجاوز المجموعات السكنية المحددة الموجودة . وتختلف القرية طوبوغرافيا واجتماعيا بحيث تتيح إمكانية العلاقات والمبادلات . أما "الثورة المختصة بالعصر الحجرى الأخير " ، وهذا النضج البطيء الذى تدرج عبر الألفية ، فقد فتحا الطريق نحو "ثورة عمرانية" اكتملت بعد بضعة أجيال .

وفيما بين عام ٣٣٠٠ وعام ٣١٠٠ قبل الميلاد حدث تطور فى بلاد سومر فى الجزء الأدنى من بلاد ما بين النهرين وبلاد بابل المجاورة ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه بقية العالم بما فيها الشرق الأوسط لا تزال تعيش نمط العصر الحجرى . إذ ظهرت فى تلك البلاد نهضة معمارية كبيرة تمثلت فى إنشاء أعداد ضخمة من الآثار على عدة هكتارات وشبكات تجارة ممتدة ، وحدث تبادل تجارى مكثف ونظام محاسبة وتسجيل وتجسيد الأرقام باستخدام أشكال صغيرة متنوعة مصنوعة من الصلصال فى بادئ الأمر ثم باستخدام حروز على ألواح صغيرة . لقد كانوا على عتبة استخدام الكتابة التى اخترعت فى نهاية الألفية الرابعة فى مدينة أروك Uruk ، ونشأت هذه الحضارة الساطعة نتيجة زيادة التبادل التجارى وتمركز السكان بكثافة فى الأماكن الحضرية مما ساعد على نشرها وامتدادها إلى خارج موطنها الأصلي .

ازدهرت الحضارة البرونزية القديمة فى بلاد المشرق منذ نهاية الألفية الرابعة وطوال الألفية الثالثة وتميزت بتكوين دول حقيقية لكنها ظلت على هامش التاريخ نتيجة عدم اختراع الكتابة فيها . ولكن بجانب التكتلات السكانية المزدهرة لبلاد سومر ، التى

وصلت مساهمتها إلى حوالى أربعين هكتارا ، فإن المدن السورية الأولى التى لم تنمُ إلا فى بداية الألفية الثالثة ، ظهرت متأخرة وبشكل متواضع .

وفى الألفية الثالثة سيطرت إبلا Ebla على بلاد الشام من جهة الشمال وعلى الساحل كانت توجد أوجاريت وهى ميناء مهم ، وعلى نهر الفرات قرشميش وتتحكم فى موقع إستراتيجى عند عبور النهر . ذكرت دمشق فى هذا العصر على ألواح إبلا . وفى عام ١٩٦٥ حدثت عمليات تنقيب داخل حرم المسجد الأموى واكتشف إناء يرجع تاريخه إلى منتصف الألفية الثالثة .

وفى نهاية الألفية الثالثة وقعت هجمات من جانب البدو العموريين وهى قبائل سامية من ناحية تدمر مما أدى إلى اختفاء الحياة الحضرية فى عدة مناطق من الشام وبلاد ما بين النهرين عند نهاية آخر أسرة سومرية تحت حكم الإمبراطور أور UR الذى امتد نفوذه من سوس إلى جبيل . استوعب القادمون الجدد حضارة السومريين وأنسسوا سلسلة من الممالك منها بابل حيث شكلوا وحدة لم تتم بزعامه حمورابى سادس ملك لهم . وفى الشام كان استقرار هؤلاء البدو بطيئاً ولم يتم إلا فى منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

واستقرت أسرات عمورية وكونت مدناً لدول تم التعرف عليها من خلال وثائق وسجلات ماري Mari ، وفى شمال الشام تكونت مملكة قرشميش ومملكة يامخاد وعاصمتها حلب حيث امتد نفوذها إلى زاجروش . وفى وسط الشام مملكة قطنة وتقع عاصمتها قرب مدينة حمص الحالية . امتدت الأراضى العمورية إلى جنوب قطنة وشملت إقليم دمشق ، وفى عام ١٩٩٤ اكتشف خاتم أسطوانى الشكل فى دير خبية على بعد عشرين كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من دمشق حيث يؤكد العلاقة بين إقليم دمشق وبلاد ما بين النهرين فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وفى الساحل كان عصر ازدهار الحضارة الكنعانية حيث كانت مدن الدول مثل أوجاريت وجبيل على علاقة ثقافية وتجارية وثيقة مع مصر ، ولكن خوفاً على استقلالهم لجأوا إلى الاحتماء خلف أسوار ومنايريس .

شهد القرن السادس عشر فترة من التغييرات السياسية والعرقية العميقة ، ففي عام ١٥٩٥ شن الحيثيون هجوماً ناجحاً على بابل ووضعوا بذلك نهاية للأسرة العومورية محطمين في طريقهم مملكة يامخاد وعاصمتها حلب . وفي الوقت نفسه قاموا بتوحيد الجزء الشمالي من الشام وبلاد ما بين النهرين تحت سلطتهم وأخضعوا معظم الدول الكنعانية والعومورية وأصبحت تابعة لهم وأسسوا إمبراطورية جديدة أسموها الميتانية Miltani ولكن لم يتم التعرف على عاصمتها . وكانوا يتميزون بأنهم مدربون مهرة للخيول وفرسان ممتازون وأدخلوا استخدام العربات التي تجرها الخيول إلى الشرق الأوسط وأصبحت السلاح الرئيسى فى المعارك . وعلى الصعيد الدينى أحضروا مقدساتهم البدائية مثل ميترا وفارونا وأندرا ولكنهم فشلوا فى نشر لغتهم على سكان البلاد الأصليين.

وقد كشفت أعمال التنقيب التى تمت على الضفة الشمالية لنهر بردى على بعد حوالى خمسة عشر كيلو مترا إلى الشرق من دمشق فى تل الصالحية عن وجود مدينة مهمة محاطة بسور سميك ارتفاعه ثلاثة أمتار . كما كانت دمشق مركزاً تجارياً مهماً .

وخلال العصر البرونزى الحديث كان يطلق على دمشق اسم أبو Apu ثم تحول إلى أوبى Upi ومع ذلك فإن الحدود الجغرافية لأراضى Apu (أبو) غير معروفة ، وليس من المؤكد أن عاصمتها كانت دمشق . ومثل باقى المدن المعاصرة كان يحكمها " ملوك " عرف منهم اثنان فقط هما أريوانا وزلايا .

وكل ما عرف عن أوبى Upi من العصر البرونزى الحديث كان مسجلاً فى الصراعات التى تمت بين القوى الكبرى فى ذلك الوقت : مصر وميتانى والحيثيين .

نشأت حركة التوسع المصرى نحو الشرق أثناء الربع الثانى من القرن السادس عشر على يد فرعون مصر أحمس (١٥٧٠ - ١٥٤٦) بعد نجاحه فى طرد الهكسوس خارج دلتا مصر حيث قاد جيوشه إلى جنوب فلسطين ، وباستيلائه على مدينة شاروهين Sharuhen عمل على تقوية حدوده الشرقية . وفى عهد أمنحتب الأول الذى

خلف أحمر فى عام ١٥٤٦ قبل الميلاد امتد النفوذ المصرى حتى وصل إلى بلاد ما بين النهرين وأصبح الاهتمام الأكبر للوك الأسرة الثامنة عشرة والأسرة التاسعة عشرة حيث وجدت هذه الحملات منقوشة على جدران المعابد واعتبرت مصدراً رئيسياً للمعلومات حول سياسة مصر وسوريا . قاد تحتمس الأول (١٥٢٥ - ١٥١٢ ق.م) جيوشه إلى منطقة قرشميش حيث انتصر على الميتانيين وأقام نصباً تذكاريًا على ضفاف نهر الفرات . وعندما تولى تحتمس الثالث الحكم فى عام ١٤٩٠ ق.م كانت قوة مصر قد بلغت أوجها . وجه أول حملة برية إلى سوريا وليس حملة بحرية كما فعل أمنحيب الأول وتحتمس الأول عندما نزلا على الساحل الفلسطينى . قهر تحتمس الثالث قوات التحالف بقيادة أمير قادش ورد أعداءه إلى مدينة مجدو التى استسلمت بعد حصار دام سبعة أشهر . وسجلت أسماء ١١٩ مدينة على أحد جدران معبد الكرنك وأخذ سكانها أسرى وظهر فرعون ممسكا بشعر رءوسهم وهم راكعون تحت قدميه ، ومن بين المدن التى ذكرت دمشق حيث ظهرت هنا لأول مرة فى التاريخ . وبعد هذه الحملة الأولى حافظت مصر على شمال سوريا تحت قيادتها ، واستمرت الحملات نحو الشمال ، وأثناء حملته الثامنة كان منتصرا للمرة السابعة عشرة .. فى السنة الرابعة والخمسين من حكمه هزم تحتمس الثالث قوات ميتانى إلى الغرب من حلب ووصل إلى نهر الفرات وأقام نصباً تذكاريًا تعبيراً عن انتصاره لدى جده تحتمس الأول ، ثم نزل بطول النهر ووصل عمار Emar وحالياً سكيئة وذلك قبل عودته لمصر . وعلى الرغم من حملاته العديدة التى حازت الانتصارات العسكرية ، فإن تحتمس الثالث فشل فى أن يستبدل سلطة ميتانى التى كانت قائمة فى شمال سوريا بسلطة مصرية دائمة . ومع ذلك فقد نجح فى إخضاع الممالك الصغيرة من السودان إلى الفرات ، ووصلت السلطة السياسية المصرية إلى قمة مجدها .

نجح أمنحيب الثالث (١٤٣٨ - ١٤١٢ ق.م) ابن تحتمس الثالث فى المحافظة على السيادة المصرية المطلقة على شمال سوريا حيث قاد ثلاث أو أربع حملات لقمع ثورات تدعيمها الميتانى . قام تحتمس الرابع (١٤١٢ - ١٤٠٢ ق.م) بحملة واحدة ثم اختار الدبلوماسية عن طريق الزواج حيث تزوج ابنة أرتاما الأول ملك ميتانى . واستمرت

العلاقات السلمية بين الإمبراطوريتين أثناء حكم ابنه أمنحتب الثالث . وقد أظهرت نقوش وجدت على قاعدة تمثال فى المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى فى الجزء الغربى من طيبة دمشق للمرة الثانية فى النصوص ضمن المدن السورية التابعة أو الصديقة لمصر . وفى عهد أمنحتب الرابع أخناتون (١٣٧٩ - ١٣٦٢ ق.م) انتقلت العاصمة إلى مصر الوسطى فى أخيتاتون (تل العمارنة) حاليا حيث اكتشفت عام ١٨٨٧ كمية كبيرة من الألواح المصنوعة من الخزف مكتوب عليها باللغة البابلية ذات الطابع المسمارى وتحتوى - بالإضافة إلى خطابات فى آخر عهد أمنحتب الثالث - على جزء كبير من المراسلات الدبلوماسية فى عهد أخناتون نجحت فى المحافظة على سلطتها فى شمال سوريا بما فى ذلك أرض أوبى Upi كما تعطى مؤشرات محددة على طريقة ممارسة تلك السلطة على الأقاليم . وكانت هناك حامية صغيرة بقيادة ضابط مصرى فى مدن معينة للسيطرة على الصراعات بين المدن المنافسة خاصة إذا وصلت إلى حد تهديد المصالح المصرية . وفى عام ١٩٦٩ وجد خطاب فى كوميدى (كميد اللوز حاليا) فى سهل البقاع كان قد أرسل من فرعون إلى " زلايا " ملك دمشق وفيه يشكو الحكام من عمليات سلب ونهب تقوم بها عصابات مسلحة لا دين لها ولا قانون يقال إنهم من العبرانيين .

ومنذ اعتلاء سوبيلوليوما الحيثى الحكم عام ١٣٨٠ ، بدأ يمارس سياسة عدوانية قلبت موازين القوى فى الشرق الأوسط لمدة ثلاثين عاما . فقد استولى على جميع ممتلكات ميتانى بشمال سوريا وضم إلى إمبراطوريته عددا من المدن التابعة لمصر مثل أوجاريت وقادش بالقرب من حماة الحالية، بل وربما أوبى Upi حيث هزم الملك أريوانا وأخذ أسيرا وتم نفيه فى الأناضول . وقد كشفت نقوش فى القاهرة عام ١٩٧٣ توضح أن فرعون مصر حورمحب (١٣٤٧ - ١٣٢٠ ق.م) قاد حملة إلى جبيل فى جنوب سوريا حتى قرشميش مما يوضح أنها وأرض أوبى Upi حتى هذا العصر كانتا تحت قيادة مصر بشكل حازم . واصل سبتى الأول (١٣١٨ - ١٣٠٤ ق.م) ثانى الملوك الفراعنة من الأسرة التاسعة عشرة القتال ضد الحيثيين واستولى على قادش، وأعاد السلطة لمصر فى عمورة وخذل مائثره فى معبد آمون بالكرنك . وفى السنة الرابعة لحكمه ، وصل

رمسيس الثانى (١٢٠٤-١٢٣٧ ق.م) إلى وادى نهر الكلب حيث حفر نقوشا لم تعد واضحة هذه الأيام . وفى العام التالى ، وفى معركة قادش الشهيرة ، اضطر المصريون للتراجع وتركوا مؤقتاً على الأقل عمورة إلى الحيثيين . وفى عام ١٢٨٣ ق.م وبعد سبعة عشر عاماً من الحروب المتواصلة ، وقعت معاهد سلام بين رمسيس الثانى وملك الحيثيين هاتوسيلي الثالث ورسمت الحدود بين المملكتين بطول خط يمر جنوب قادش .

ويبدو أن القرن الثالث عشر كان عصراً ذهبياً بالنسبة لسوريا ، حيث عم الرخاء بشكل واضح نتيجة التبادل على نطاق واسع بينها وبين وادى النيل ووادى دجلة والفرات والأناضول وقبرص . وفى نهاية العصر البرونزى تحول هذا العالم الغنى الذى ظل عدة قرون غارقاً فى الظلام نتيجة كارثة غير معروف مصدرها ، فقد حدث نوع من الاتحاد لشعوب غربية " شعوب البحر " بعد عدة محاولات لغزو مصر كانت القوات المصرية فى كل مرة تصدهم . لكنها نجحت فى اقتحام الإمبراطورية الحيثية ودمرتها وخربت سوريا حتى السهول الداخلية إلى أن وصلت إلى وادى نهر الفرات وأضرمت النار فى عمار وسالت الدماء فيها . ودمرت مدناً مثل أوجاريت والألاخ وقطنة قبل أن يتوقفوا عند حدود مصر حيث صدهم رمسيس الثالث حوالى ١١٩٠ ق.م . ووجدت نقوش على جدران معبد مدينة هابو فى طيبة لم تدع أى مجال للشك عن حجم الكارثة ، وقد ذكرت النقوش أن من بين الغزاة البليست أى الفلسطينيين الذين احتلوا مدناً مثل غزة وعسقلان وأسود قبل أن يصيروا حوالى عام ١١٠٠ ق.م الأعداء الرئيسيين لقبائل إسرائيل . وبعد رحيل " شعوب البحر " خيم السكون على سوريا لعدة أجيال .

وعندما ظهرت الوثائق اتضح أن الوضع السياسى تغير تماماً . ففى شمال سوريا وحول مدن مثل قرشميش وحماة أنشئت ممالك صغيرة على أنقاض الإمبراطورية الحيثية ، وعلى أطراف الصحراء ، هناك قادمون جدد ألا وهم الآراميون والساميون وهم شبه بدو رحل حيث لا زالوا بعيدين نسبياً عن مناطق الاستقرار ، وقد ذكرت فى التوراة بعض قصص خرافية حول أصل الآراميين وعلاقتهم بأجداد إسرائيل . فقد ورد فى سفر التكوين "آرام" لأول مرة أنه ضمن أبناء سام ومرة

أخرى أنه ضمن أبناء إبراهيم وأنجب إسحق ويعقوب الأجداد المباشرين للإسرائيليين وزوجات آراميات . كتبت هذه القصص في عصر كان ينظر فيه للآراميين على أنهم شعب قوى .

وفي عصر شاءول - الملك الذي اختارته القبائل العبرانية لتوحيد صفوفهم وقواهم ضد الفلسطينيين - ظهرت عدة دول آرامية على حدود مملكة إسرائيل . بيت ريحوب في جنوب وادي البقاع وأرام مأكه في مرتفعات الجولان وجيشور شمال وادي اليرموك وخاصة أرام صوبا الأقوى بينهم والمتمركزة في شمال البقاع . أما عن دمشق فقد ظهرت للمرة الأولى في قصص الحروب التي خاضها داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق.م) ضد أمون وهي إحدى الممالك خارج الأردن لكي يتمكن من ضم طرق التجارة مع شبه الجزيرة العربية . وبعد أن هزم داود حدد عازر Hadadezer ملك صوبا Zobah قرب حماة الذي كانت عمورة قد طلبت منه التحالف معها ، إلا أن داود انقض على جيش الإنقاذ الذي أرسله الآراميون بدمشق وحقق داود نصرا ساحقاً واستولى على دمشق ووضع فيها حامية . وقد ذكر أن حدد عازر كان من أقوى الملوك وأكثرهم شجاعة وأنه استولى على دمشق وسائر بلاد الشام باستثناء إقليم فينيقيا (لبنان حالياً) .

حافظ سليمان بن داود والذي خلفه في الحكم على قوة إسرائيل وأوصلها إلى قمة مجدها لكنه واجه في الأقاليم مؤامرات عدة كانت تساندها مصر . وفي وسط بلاد الشام ، سار ريزون Rezon - وهو ابن شخص يدعى إليادا وأحد خدام حدد عازر - نحو دمشق على رأس جيش صغير نجح في تجميعه ونادوا به ملكاً ووقف ضد إسرائيل طوال مدة حكم سليمان . وبعد موت سليمان ضعفت قوة إسرائيل وتمكن ريزون وخلفاؤه من تكوين الدولة الآرامية في دمشق والتي أصبحت أقوى دولة في المنطقة . وفي بداية القرن التاسع ، دخلت في صراع على أسا وياشا وهما ملوك مملكة إسرائيل . كان أسا قلقاً من المحاولات التي يقوم بها خصمه بتقوية جيشه في منطقة رامة Ramah على بعد عدة كيلو مترات من أورشليم فجمع ثروته وخزائنه من ذهب وفضة والنص التوراتي وأرسلهم إلى بار - حدد بدمشق وطلب منه أن ينقض تحالفه

مع باشا . قام بار - حدد بغزو أراضي إسرائيل الواقعة شمال بحيرة طبرية وبسط بذلك هيمنته على دمشق والطرق التجارية المؤدية إلى الموانئ الفينيقية التي كانت مستقلة مثل : صيدا وصور وعكا . وفى منتصف القرن التاسع وفى عهد حدد - إدر كانت دمشق قوية وعلى رأس تحالف يضم ملك حماة وأشاب ملك إسرائيل لمواجهة الأطماع الآشورية . ولكن حدد - إدر توفى فى ظروف غامضة ، ربما مخنوقاً بغطاء مبلل قام به أحد الأشخاص ويدعى حزائيل Hazael ولم يغير التحالف ضد الآشوريين من الأمر شيئاً ولم ينقذ الأسرة وتدهورت العلاقات بين آرام وإسرائيل اللتين كانتا تعارضان شن معركة ضد راموث جلعاد Ramoth Galaad وعبر سلمانا صار الثالث نهر الفرات مرة أخرى . وقعت حماة الصلح بينما دفعت الجزية كل من إسرائيل وصور وصيدا . ووجدت دمشق نفسها وحيدة ضد الآشوريين . وبعد هزيمتها فى المناطق الشمالية لجبال لبنان رجع حزائيل إلى دمشق قبل أن يحاصرها سلمانا صار الثالث . وتلك هى المرة الأولى التى يصل فيها جيش آشورى إلى دمشق . ومن المؤكد أنها كانت محصنة لأن الجيش الآشورى فشل فى الاستيلاء عليها فقام بقطع الأشجار وضرب الأجزاء الخلفية منها وأشعل فيها النيران . سار سلمانا صار الثالث بعد ذلك إلى حوران يدمر ويحرق ويخرب القرى التى فى طريقه ثم اتجه نحو الساحل وأقام نصباً ليخلد ذكرى مروره . وفى عام ٨٢٨ ق.م وفى السنة الواحدة والعشرين من حكمه ، بدأ حملته السادسة والأخيرة . وللمرة الثانية يجد حزائيل نفسه وحيداً فى الوقت الذى سقطت فيه معظم المدن السورية فى أيدي الغزاة أو دفعوا جزية . وبعد أن حقق سلمانا صار الثالث نصراً على قوات دمشق ، فشل مرة أخرى أمام المدينة . وكان لابد من الانتظار ثلاثين عاماً حتى يتمكن جيش آشورى من الظهور أمام دمشق .

وبعد أن تحرر حزائيل من التهديد الآشورى ، ركز قواته ضد إسرائيل ، التى لم تتمكن من الوقوف ضد حزائيل بعد أن أنهكت من التطهير الدموى وعمليات الذبح والاعتقال وقطع الرؤوس وإرسالها فى سلال وذلك بعد اعتلاء ييهو Jehu العرش كملك إسرائيل العاشر وفقدت إسرائيل معظم حدودها فيما وراء الأردن . وتابع حزائيل

سياسته التوسعية واجتاز نهر الأردن وتقدم نحو فلسطين واستولى على مدينة جات Gath ولم يعد هناك جيش لإسرائيل سوى خمسين فارسا وعشر عربات وعشرة آلاف رجل مشاة كانوا تابعين لدمشق . اتجه حزائيل نحو يهودا وسار نحو اورشليم حيث الملك يوأس Joas الذى جدد الحركة التى قام بها قبله الملك أسا الذى قام بشراء انسحاب الآراميين من كنوز المعبد ومن قصره . ومرة أخرى أصبحت يهودا تابعة لدمشق . استمر حكم حزائيل مدة أربعين عاماً وأصبحت مملكة آرام بدمشق القوة الأولى لسوريا حيث يمتد نفوذها من حمص إلى سينا ومن الساحل إلى أطراف الصحراء . أما المدن الكنعانية الموجودة على الساحل ، فقد حافظت على استقلالها . أما بار - حدد الثالث الذى تولى الحكم بعد أبيه حزائيل فقد فشل فى المحافظة على السيطرة على دمشق ، وقامت الدول التابعة لفلسطين بتمرد بينما عبر الآشوريون نهر الفرات . وفى المناطق الجنوبية من الشام تعرض بار - حدد لضربات عسكرية مؤلة حيث هزمه يوأس ثلاث مرات وفقد جميع المدن التى استولى عليها والده حزائيل من إسرائيل . واضطر بار - حدد أن يوافق ملك إسرائيل على منحه مزايا تجارية فى عاصمته دمشق وأتاح بذلك فرصة للإقامة الدائمة للجالية اليهودية فى دمشق وتبع ذلك التوقيع على معاهدة تحالف بين يوأس وبار - حدد .

لكن الدولة الآشورية هى التى كان يجب عليها أن توجه الطعنة القاضية إلى السيطرة على دمشق . وفى حوالى عام ٧٩٦ ، سار حدد نينارى الثالث (٨١٠-٧٨٣) نحو أرض شا - إمريشو Sha-imerishu وما إن عبر نهر الفرات حتى أخضع الحيثيين ثم استولى على باقى أراضى عمورة ووصل إلى "البحر العظيم الذى تغرب فيه الشمس" وأقام نصبا تذكاريًا له فى أرمادا وهى جزيرة أروادا الحالية وقطع حوالى مائة شجرة من أشجار الأرز من جبل لبنان لتشيد قصره ومعابهده ، ثم أخضع إسرائيل وصور وصيدا وبلاد فلسطين ، ووصل أمام دمشق حيث اضطر بار - حدد الثالث أن يعلن خضوعه له . وحسب النص المحفور على لوحة وجدت فى نمرود ذكر للمرة الأولى أنه فى داخل قصر ملك دمشق أن الملك الآشورى تلقى جزية " ما يعادل

خمسين ألف كيلو جرام فضة وما يعادل خمسمائة كيلو جرام ذهب وخمسة وسبعين ألف كيلو جرام برونز ومائة وخمسة وعشرين ألف كيلو جرام حديد ، وملابس مزركشة بخيوط حريرية ومعدنية متعددة الالوان ، وكتان وسرير وأريكة مطعمة بالعاج بالإضافة إلى أموال وممتلكات لا أول لها ولا آخر " .

إلا أن هذا الغزو الذى قام به حدد - نينارى الثالث والذى قدمته النصوص على أنه أعظم إنجاز قام به فى حملاته العسكرية على سوريا - لم يؤد مع الأسف إلى حدوث تكامل نهائى للعاصمة الآرامية فى الإمبراطورية الآشورية . وفى عام ٧٧٣ ق.م ، وحسب النص الذى وجد محفورا على مسلة مقامة فى عهد سلمانا صار الرابع (٧٨٢ - ٧٧٢ ق.م) - ووجدت مؤخراً فى بازاريك بتركيا - أن الآشوريين بقيادة أحد ملوكهم ويدعى خاديا نو اضطر إلى دفع جزية لدمشق . وأثناء الربع الثانى من القرن الثامن ، أصبحت دمشق تابعة لمملكة إسرائيل بقيادة ملكها جيرو بوم الثانى والذى يعتبر عصره من أزهى العصور فى تاريخ إسرائيل . ويموت جيرو بوم نشأ صراع على السلطة فى السامرة وانتهزت دمشق الفرصة لتستعيد استقلالها .

وفى عهد تجلات بلاسر الثالث Teglath-Pileser وحوالى عام ٧٣٥ ق.م بدأ الصراع الذى أنهك المملكة الآرامية بدمشق . وقد ورد ذكر هذا الصراع فى الكتاب الثانى من كتاب الملوك وفى سجل الأحداث والذكريات الآشورية التى ذكرها النبى إيلشع الذى عاصر هذه الأحداث . وفى الوقت الذى كان فيه الملك الآشورى يقود حملة فى شمال وشرق الدول التابعة له ، قام تحالف بقيادة راديان Radian ملك دمشق ويضم فاسيه Phacee ملك إسرائيل ومدينة صور الكنعانية وقاموا بحصار أورشليم إلا أن الملك أشعز Achaz طلب مساعدة تجلات بلاسر . وابتداء من عام ٧٣٤ استتبسل فى الدفاع عن سوريا لمدة عامين ونزل أولاً على شاطئ البحر المتوسط حيث استولى على كل مدنها ووضع على رأس كل مدينة حكاما تابعين له . وذكر النبى إيلشع أن صور " كانت ملكة البحار حيث التجار من الأمراء والمشترون من النبلاء " . وقد أقام

تجلت بلاسر الثالث نصباً تنكاريًا لانتصاره في غزة بعد أن فر ملكها ، وأجبر ملك إسرائيل على قبول السيادة المطلقة للأشوريين على ملكه حيث لم تمتد سلطته إلى خارج حدود السامرة ، ضم آشوريين - شمال البلاد - إلى الإمبراطورية الآشورية وقسمت إلى ثلاثة أقاليم : مجدو ويضم الجليل ودر على الساحل وجيلاد وهي المنطقة الواقعة بين الأردن والصحراء العربية . وفي الوقت نفسه أخضع زنوبيا Zabiba ملكة العرب، واكتسح في طريقه المدن الواحدة تلو الأخرى ، وحمل معه في كل مرة منات الأسرى بأموالهم وماشييتهم وأغنامهم . وذكرت النصوص الآشورية أن عدد المدن والقرى التي دمرها بلغت ٥٩١ مدينة وقرية وست عشرة مقاطعة . وفي عام ٧٣٢ ق.م حانت ساعة دمشق التي حدثنا عنها النبي إيليش بأنها كانت مشهورة بثروتها .

أما رادبان الذي كان على رأس قواته أمام الأشوريين ، فقد فر من ميدان المعركة ولكي ينقذ حياته ، تسلل متخفياً كالنمس حتى وصل إلى مدخل مدينته . وأمام السكان المذعورين ، قام تجلات - بلاسر بوضع الأعيان الذين وقعوا في قبضته أحياء على خوازيق ونهب وسلب كل ما يحيط بالمدينة ودمر البساتين العديدة . وبعد خمسة وأربعين يوماً من الحصار ، سقطت المدينة وهرب عدد كبير من سكانها وقتل رادبان . وانتهى بذلك آخر حصن أرامى في سوريا . وأصبحت دمشق عاصمة إقليم آشوري صغير وقسم الباقي إلى عدة أقاليم مجاورة . ولم تعد دمشق مدينة ، بل كومة من الأطلال والخرائب .

وكان لابد من الانتظار ما يقرب من أربعة عشر قرناً لتستعيد المدينة الآرامية الكبيرة مجدها وتصبح عاصمة لدولة مستقلة .

لم تنته الحملات الآشورية غرب الفرات . فقد أكمل سارجون الثاني (٧٢٢-٧٠٦ ق.م) ما بدأه سالمانا صار واحتل السامرة وهرب منها سكانها . وفي عام ٧٢٠ ق.م وبعد أن هزم كركر ملك حمّاه الذي كان يتزعم عصياناً اشتركت فيه دمشق وفي رفح أوقع هزيمة ساحقة بقوات تحالف من مصر وغزة ، وفي عام ٧١٧ ق.م سقطت آخر دولة حيثية في شمال سوريا .

وإذا كان سقوط دمشق قد وضع حدا نهائيا ، فإن سوريا بالنسبة للتاريخ السياسى للآراميين قد امتد نفوذها الثقافى لعدة قرون . وسوف تصير اللغة الآرامية وهى اللغة السامية القريبة من العبرية والعربية ، اللغة الدولية للإمبراطورية الفارسية . وفى مصر استخدم الموظفون الفرس والمصريون تلك اللغة فى مراسلاتهم ، وحرر اليهود التلمود باللغة الآرامية حيث بشر المسيح الذى ولد بالناصرة بعقيدته باللغة الآرامية . ولا زالت اللغة السريانية مستعملة حتى اليوم فى الطقوس الدينية لعدد كبير من مسيحيى الشرق الأوسط . ولم تتوقف إلا بعد الغزو الإسلامى حيث تلاشت بالتدريج أمام اللغة العربية . ولم يتبق لهم أى شىء من المبانى المعمارية إلا بعض آثار لقصر ملكى اكتشف فى تل حلف كان قد أنشئ فى القرن التاسع فى جوزانا عاصمة دولة آرامية صغيرة فى بيت باهيانى .

ورغم عدم وجود أعمال تنقيب فى موقع المدينة نفسه ، فمن الممكن وضع مخطط يحدد دمشق الآرامية . وقد أكدت النصوص الآشورية والنصوص التى وردت بالتوراة أنها كانت مدينة قوية وتتمتع بالرخاء وبها قصر محاط بأسوار منيعة على ربوة فى وسط المدينة فى حى "القلعة" . كما أن وجود الحدائق التى عمل الملوك الآشوريون على قطع أشجارها توحى بأن شبكة الري كانت موجودة . كما ذكر أنه كان يوجد نهران بدمشق "أبانا وبارفار" والذى عرف فيما بعد باسم بردى . أما أبانا فقد عرف باسم بانياس ، وذلك لتغذية معبد حدد بالماء . ومن المحتمل أن يكون هذا المعبد فى موقع الجامع الأموى الحالى الموجود فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة . وقد عرف من مصادر موثوقة أن الجامع الأموى حل محل كاتدرائية يوحنا المعمدان .

ويسبب عدم التنقيب فى الموقع الحالى للمسجد ، لم يظهر أى أثر للمعبد حتى عام ١٩٤٨ عندما اكتشف فى الجزء الشرقى من الجدار الشمالى لحرم المسجد حجرا ضخماً من البازلت يرجع تاريخه إلى العهد الآرامى وعليه زخرفة على شكل أبى الهول : أسد بذيل وله رأس إنسان . كما وجدت مجموعة من الألواح المزينة بالعاج

فى قصر الحاكم الأشورى لمدينة حداتو ومقرها الحالى أرسلان تاش بشمال سوريا .
ومنذ تلك العصور السحيقة ، احتفظت قرى الغوطة بأسمائها الآرامية : كفر بطنة
وعقره إلخ .

ظلت الدولة الآشورية قوية تحت حكم أوسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)
وأشوربانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق.م) حيث قادوا حملات ضد صور ومصر إلا أنها انهارت
بعد بضع سنوات أمام ضربات الميديز Medes والسيت Scythes والأسرة البابلية
الحديثة التى نشأت مؤخراً فى بابل . وسقطت آشور عام ٦١٤ ق.م وبنينيف العاصمة
بعد عامين وحران التى تبعد أربعين كيلو متراً إلى الجنوب الشرقى من عرفا الحالية
فى عام ٦٠٩ ق.م ثم جاء دور كارشميش عام ٦٠٥ ق.م حيث سحقت آخر كتائب
الجيش الأشورى وحلفائه المصريين . واقتسم المنتصرون الإمبراطورية فيما بينهم
وانضمت سوريا بالكامل إلى الإمبراطورية البابلية الحديثة الذى مر ملكها نابوشو
دونوصور الثانى (٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م) بدمشق عندما كان محارباً فى فلسطين .

أرسل قائد قواته هولوفيرن للإعداد لقدم نابوشود وصور لكنه أضرم النيران
وذبح الأهالى فى شمال البلاد ونزل إلى سهل دمشق وقت حصاد القمح وأشعل النيران
فى جميع الحقول وأباد الكثير وأخذ الماشية والأنعام وسلب المدن وخرب الريف وذبح
الشبان .

وبعد أقل من قرن على وجود الأسرة البابلية الحديثة ، انتهت بدورها هى
الأخرى . وفى ٢٩ أكتوبر عام ٥٣٩ ق.م، توغل الفارسى قورش إلى بابل دون قتال .
وفتح هذا التغيير فى السلطة مرحلة جديدة فى تاريخ الشرق الأوسط ، فقد انتهى تفوق
وسيادة بلاد ما بين النهرين ولدة ألف عام إلى أن وصل العرب المسلمون وفقد
الساميون حقوقهم السياسية . وظلت سوريا لمدة قرنين من الزمان تتمتع بفترة طويلة
من السلام فى السيطرة الفارسية وفى أحضان أكبر إمبراطورية وفرضت لغتها كلفة
دبلوماسية ولغة الثقافة . وقد امتزجت فى بادئ الأمر مع بلاد ما بين النهرين وكونت
إقليماً يحكمه حاكم واحد . وبعد الإصلاحات الإدارية العظيمة التى قام بها دارا الأول

(٥٢٢ - ٤٨٦) ، كونت فينيقيا وقبرص الإقليم الفارسي الخامس وصار إقليماً خارج النهر وسمى بالفارسية "أثورا" (أشور) . ظهرت في سوريا جماعات مختلفة وغير متجانسة منها الحضر والقبائل العرقية الأخرى كالآراميين واليهود والسامريين والعمونيين (وهم شعب سامي كان يقطن شرقى الأردن) وقبائل عربية ... إلخ.

حيث خضعت تلك الجماعات لحد ما تحت سيطرة الحكومة المركزية وبعضهم تحت سيطرة الأسرات المحلية أو حكام الأقاليم التي تمتعت بحكم ذاتي أو الفرس الذين فرضهم ملك الملوك .. كان الجميع يتمتعون بحكم ذاتي داخلي ظل فترة طويلة طالما كانوا يدفعون الجزية حيث لم تهتم الإدارة الفارسية بشئونهم الداخلية . أما في الجنوب فكانت توجد مدينة بترا العاصمة ، وهي مدينة كبيرة لقوافل العرب النبطيين وتشهد على الجهود الضخمة التي بذلها خلفاء الإسكندر المقدوني بعد وفاته لكي يستولوا على طريق القوافل . وعلى الساحل كانت المدينة عبارة عن وحدة سياسية مثل : أرواد وجبيل وصور وصيدا وعكا حيث كان يحكمها حكام بالوراثة ويساعدهم مجلس أعيان . بسط هؤلاء الحكام نفوذهم على مدن أخرى مجاورة تدفع لهم الجزية . كما كانوا يتمتعون بقدر كبير من الاستقلال إذ كانوا يقومون بصك النقود باسمهم .

وفي بداية ربيع عام ٣٣٤ ق.م. ، قام الإسكندر الأكبر على رأس جيش مكون من ٣٢ ألف إغريقي ومقدوني بعبور مضيق الدردنيل . وقد ساعد الانتصار الذي حققه بعد عبوره نهر جرانيك (وهو حالياً نهر كوكاباس قرب بحر مرمرة) وتحطيمه الخط الذي أقامه الفرس أن يفتح أمامه طريق الشرق ، ثم اتجه إلى سوسة عاصمة دارا الثالث ، واتجه بطول الساحل وضم المدن البحرية الواحدة تلو الأخرى متجنباً الاشتباك مع الفرس في معارك بحرية نظراً لتفوقهم البحري . وبعد أن عبر ممر أضنة بتركيا استولى على سهل إيوز (قرب الإسكندرونة حالياً بتركيا) وحقق نصراً حاسماً في أكتوبر ٣٣٣ ق.م. ، ثم واصل طريقه نحو الجنوب واحتل سوريا ووضع يده على خزانها وثرواتها واستولى على نساء دارا واستسلم له كبار رجال الدولة واستولى على صور بعد حصار دام سبعة أشهر ثم أخذ غزوة ومنها اتجه إلى مصر حيث رحب به المصريون

انتقاما من الحاكم الفارسي ، ومن هناك عبر الصحراء الشرقية ونهر الفرات ونهر دجلة وهزم دارا عند مدينة جوجاميل (قرب مدينة أربيل الحالية بالعراق) ، وفر دارا نحو الأقاليم الشرقية وعين الإسكندر نفسه ملكا شرعيا على فارس وعين حكاما إيرانيين على الأقاليم ليكسب ودهم .

وفى ١٢ يونية ٣٢٢ ق.م وبعد عودته من السنة الثامنة للحملات المظفرة فى أسيا ، توفى الإسكندر فى بابل بلدغة بعوضة حاملة للملاريا وتوزع خلفاؤه على الحكومات المحلية ، فعلى مصر كان هناك بطلميوس بن لاجوس . تكونت الأسرة السلوقية فى شمال سوريا وهى أسرة أغريقية والبطالمة فى الجنوب فى مصر . ونظرا لتواجد دمشق قرب خط التقسيم ، فقد تغير الحكام عليها عدة مرات . ومن المحتمل أن تكون قد انضمت إلى سلطة البطالمة منذ بداية تكوين مملكة البطالمة فى مصر . ثم قام (أنطيوخوس) الأول بن سيلوقس بطرد البطالمة فى عام ٢٥٩ ق.م ، وفيما بعد أمر بصك النقود باسمه عام ٢٤٢ ق.م قبل أن تسقط دمشق نهائيا فى يد السلوقيين الإغريق حيث بسطوا نفوذهم إلى حدود مصر . وقسمت سوريا بعد ذلك إلى أربعة أقاليم عُرف منها اثنان فقط هما : حماة وأنطاكية .

ظل سيلوقس الأول وخلفاؤه يتولون زمام الأمور بسوريا إلى أن وصل الرومان . وأثناء حكمهم وضعوا سياسة إغريقية قوية قائمة على تطوير العمران وغرس المستوطنات الإغريقية والمقدونية وبصفة خاصة تلك الحضارة اليونانية التى نشرها الإسكندر الأكبر على نطاق واسع إلا أنها لم تكن معروفة فى الشرق الأوسط وخاصة على سواحل سوريا . ومنذ القرن الخامس ، قامت غزة بصك النقود الإغريقية وهى الدراخمة تقليدا بما كان يتم فى أثينا .

وفى منتصف القرن الرابع نشأت علاقات تجارية بين اليونانيين وموانئ عكا وصور وصيدا وغزة حيث قدموا لشراء الدقيق والمنسوجات والزجاج والمعادن المشغولة والمنتجات العربية الثمينة كالذهب واللبان والمر . وعلى صعيد الفن اشتهرت صيدا بصناعة التوابيت الحجرية للملوك ويوجد منها الآن فى متحف إسطنبول .

وفى شمال سوريا ، أسس سيلوقس الأول مدينتين على نهر العاصى : أنطاكية حيث اتخذها عاصمة له وسماها باسم والده : (أنطيوخس) وأباميه تخليداً لذكرى زوجته .

ولم يكن انتشار الثقافة فى اليونان إلا ظاهرة سطحية ، فلم تؤثر إلا فى الطبقات اليسورة التى تعيش فى المدن والتى يتم منها اختيار كبار موظفى الإدارة ويتمتعون بمزايا حقيقية اقتصادية وثقافية . وعلى النقيض من ذلك ، لم يكن لها تأثير على الطبقات الفقيرة من سكان المدن أو الريف .

وقد استخدمت اللغة اليونانية فى القصور والإدارة والمحاكم والتجارة ولم تنتشر فى أوساط الشعب الذين ظلوا متمسكين بلغتهم القديمة وهى الآرامية . وفى المقابل أظهر بعض اليونانيين - لكنهم قلة - اهتمامهم بالثقافة المحلية . فالشاعر ملياجر دوجادا - كان يتقن الآرامية واليونانية .

ولد عام ٦٤ ق.م. من أب وأم من دمشق . كما تلقى تعليماً متكاملاً فى قواعد اللغة اليونانية وفن الشعر والبلاغة والموسيقى والرياضيات والفلسفة بالإسكندرية وروما ورودى .

وقد أدى نمو الحياة العمرانية بالمدن فى كل أنحاء الشام إلى وضع سياسة للاهتمام بالريف ، وذلك للتمتع بالمناخ والهواء المنعش من المزروعات مما ساعد على زيادة العائد من الأراضى الزراعية وتقليل الواردات ، وتحسنت الوسائل المستخدمة فى الزراعة وظهرت طواحين المياه ومعاصر الزيوت وعصارات النبيذ .

وتحسنت وسائل الري فزادت رقعة الأرض الزراعية وبرزت الصناعة فى المواد الكمالية : المنسوجات الراقية ، الصباغة ، صناعة الزجاج . وكانت البضائع القادمة من الشرق الأقصى وشبه الجزيرة العربية تنقل إلى سوريا قبل أن تصل إلى اليونان ومدن حوض البحر المتوسط . ولم تكن هناك أية مدينة تضارع أنطاكية حتى الإسكندرية ذاتها فى جمال شوارعها واتساعها وعدد ممراتها المكشوفة (Portiques)

وتنظيم خدماتها العامة وروعة ضواحيها مثل دفنة التي كانت موضع شهرة فى الشرق بأكملها .

أما عن دمشق ، ففي الأزمنة الأولى للسيطرة المقدونية ظلت تواصل مسيرتها كمركز اقتصادى محلى . ولكن بسبب إقامة حاكم سلوتى داخل المدينة مثلما كان فى حلب سلجوقى وحماة أو حمص ، أقيمت مستعمرة إغريقية - مقدونية خارج المدينة الأرامية .

وطبقاً للأسس التى وضعها المهندس المعماري هيبودا موسى نو ميليه والتى كانت تطبيقاتها تتفق وتوصيات أرسطو ، فإن الأحياء الجديدة بنيت حسب تخطيط منتظم عبارة عن شوارع متعامدة محددة بخطوط مستقيمة وعرضها يتراوح ما بين ثلاثة إلى خمسة أمتار وفى وسط كل شارع مجموعة منازل مستطيلة طولها ١٠٠ × ٤٥ متراً متلاصقة ولها فتحات على الطريق العمومى . كان يوجد فى ذلك الوقت مدينتان متجاورتان : فى الشرق مدينة إغريقية مقدونية حول الساحة العامة (agora) ، وفى الغرب المدينة الأرامية القديمة حول معبدها . ولم يكن من السهل إيجاد سور يوحد المدينتين ، ولكن أقيمت تحصينات حديثة قادرة على صد أكبر عدد من آلات الحرب المخصصة لمهاجمة المواقع . وقد شيد قصر جديد اتخذ مركزاً للسلطة الملكية وحل محل المقر القديم للملوك الآراميين .

وفيما يتعلق بالنواحي الدينية ، فقد احترمت الحضارة اليونانية الديانات المحلية . وقد تشابهت المقدسات الدينية اليونانية مع تلك التى كانت موجودة فى الشرق القديم ؛ هذا بخلاف اندماج زيوس مع حدد وهرقل مع ميلكار وأفروديت مع عشتارت وأثينا مع اللات وهيليوس مع شمس . وابتداء من القرن الثانى كانت مدينة صور تحتفل بألعاب لصالح هرقل - ميلكار . كما وجد رسم لزيوس - حدد لعبادته فى المعبد الكبير بدمشق .

وأثناء الربع الثانى من القرن الثانى ، قام إبيفان (١٧٥-١٦٢ ق.م) بنهب معبد أورشليم مما أحدث رد فعل عنيفاً من جانب الجالية اليهودية . واستمرت حركات

العصيان والتمرد تتزايد ولم تتوقف إلا بوصول الرومان وخاصة ضد الحاكم اليوناني ديميتريوس الثاني (١٤٤ - ١٢٥ ق.م) . وكان العصيان اليهودي دليلا على ضعف السلطة السلوقية اليونانية . وانتهز الجميع فرصة الانشقاق والفتن الداخلية والاضطرابات الخارجية للأسرة ، فبدأت السلطات المحلية تقوى من نفوذها ، وسيطر العرب على لبنان وجبال لبنان ووادي الأردن الأعلى واحتل العرب الأنباط جنوب البحر الميت . امتدت الحرب الأهلية بين أنطيوخس الثامن وأخيه أنطيوخس التاسع مما عجل بالتفكك . وحصلت أغلب المدن الساحلية على اعتراف بالحكم الذاتي . وبدأت صيدا عهدا جديدا عام ١١١ ق.م وطرابلس الشام عام ١٠٥ ق.م وعسقلان في ١٠٤ ق.م واللاذقية عام ٨٢ ق.م وببيروت عام ٨١ ق.م . أما المدينة الوحيدة التي ظلت تعترف بحكم السلوقيين فهي دمشق حيث جاء أنطيوخس التاسع حولى عام ١١١ ق.م واتخذها عاصمة له . وفى النصف الأول من القرن الأول الميلادى تأجج صراع الأخوة وازداد اشتعالا فخسر أنطيوخس التاسع المعركة أمام أخيه أنطيوخس العاشر الذى انهزم بدوره من قبل الدولة البارثية . وانتهز ديميتريوس الثالث الفرصة وبمساعدة مصر فى بسط نفوذه على الجزء الأكبر من سوريا لكنه وقع فى أيدي البارثيين عام ٨٨ . وأصبح فيليب الأول حاكما على أنطاكية لكن أخاه أنطيوخس الثانى عشر استقر بدمشق عام ٨٧ ق.م وصك النقود باسمه وظل بها لمدة عامين إلى أن أصيب إصابة قاتلة عام ٨٥ ق.م فى صحراء النقب أثناء اشتباك مع أبوداس الأول ملك العرب الأنباط . قدم بطليموس ابن مينا يوس العرش إلى أريتاس الثالث بن أبوداس الأول الذى دخل المدينة عام ٨٤ ق.م . إلا أن أريتاس الثالث أجبر على التقهقر أمام تيجران ملك أرمينيا حيث مل سكان أنطاكية من المنافسة المميتة للسلوقيين . سيطر تيجران على دمشق وساد حكمه السلام والرخاء حتى عام ٦٥ عندما دخلها الجنرال الرومانى لوقولس فانهارت السلطة السلوقية وعمت الفوضى فى كل مكان . وعلى أطراف الصحراء وجهة الشرق ، بدأت تدمر تزدهر . ولكن قطاع الطرق ضاعفوا هجماتهم على كل الأرجاء وازدادت أوكار القرصنة على الساحل وانهارت الزراعة وتوقفت تجارة القوافل .

وفى أعقاب التهديد الرومانى ، بدأ آخر فصل من المأساة التى لحقت بمملكة السلوقيين اليونانية ، وأصبح بإمكان تيجران Tigrane أن يرحل بعد الاتفاق الذى تم بينه وبين الجنرال الرومانى لوقولس Lucullus وتثبيت أنطيوخس (أنتيوخوس) الثالث عشر بن أنطيوكس العاشر ملكا على سوريا .

اشتدت الاضطرابات بصورة أكثر عنفا وأسر سامبسيجرام أنطيوكس الثالث عشر بينما نجح فيليب الثانى بن أنطيوكس الثالث عشر فى الاستقرار فى أنطاكية .

وفى خلال تلك الفترة جاء الوالى الرومانى بومبى Pompee للتشاور حول بسط نفوذه الممتد لتسوية قضية الشرق بطريقته الخاصة أى مشكلة أرمينيا وتهديد البارثيين وثورة اليهود . وفى عام ٦٤ نزل إلى سوريا ومنح سلطات لقادة الجيش ، فاحتل نيبوس Nepos دمشق واندفع نحو الداخل لطرد النبطيين بقيادة أريتاس الثالث Aretas III وهرب أنطيوكس الثالث عشر من أنطاكية وحكم عليه بالموت . وبذا انتهت أسرة السلوقيين اليونانية ، ولم يتبق من العالم الاغريقى القديم سوى مملكة البطالمة فى مصر التى اندحرت فى اليوم التالى لمعركة أكتيوم .

ويمجرد وصول بومبى إلى أنطاكية ، جعل من سوريا إقليما رومانيا واستقبل فى كل مكان استقبال الأبطال المحررين . فقد نظرت روما إلى سوريا على أنها ذات أهمية خاصة ، وبذا فقد وضعت تحت الحكم المباشر للوالى الرومانى .

أجبر أريتاس الثالث ملك النبطيين على أن يصير خاضعا للرومان وانتزع بومبى الحصون القوية من أيدي المكابيين اليهود واستولى على معظم مدنها وأجبرهم على دفع الجزية .

استشعر بطلميوس الثانى عشر حاكم مصر الخطر الذى سوف يحل بعرشه فأرسل وفدا رسميا إلى دمشق للسعى لشراء العطف والتسامح من قبل الوالى الرومانى القوى . وفى دمشق التقى بومبى بالشقيقين الأعداء : أرسطو بولس وهيركان

الذين كانوا يتنازعان السلطة على أرض دولة يهودا . وفى خريف ٦٣ ق.م ، ظهر بومبى بنفسه فى أورشليم . وقامت حرب أهلية بين بومبى ويوليوس قيصر أجبر على أثرها بومبى على ترك الشرق وعهد إلى قائده أميليوس سكورس بتولى السلطة فى سوريا . أما القبائل العربية المجاورة فكانت تعاود هجماتها بين الحين والآخر . وفى القرن الأول الميلادى سعت روما إلى ضم سوريا ضمن حدود الإمبراطورية . وانضمت مملكة كوماجين Comagene وهى البلاد الواقعة شمال شرق سوريا نهائيا إلى الإمبراطورية الرومانية عام ٧٢ ق.م وكذلك إميز Emese (حمص حاليا) عام ٧٨ ق.م. حافظت المدن على نوع من الحكم الذاتى حتى إن بعضها قام بضرب العملة . توقف إصدار العملة البرونزية فى دمشق بعد حكم تيبير Tibere (١٤ - ٢٧) أما فى عهد كاليجولا (٣٧-٤١) فقد أصبحت دمشق مستعمرة نبطية عندما كان على رأسها أريتاس الرابع . كما لوحظ وجود جالية ضخمة من اليهود فى دمشق عام ٦٦ .

ارتفع شأن دمشق وامتد نفوذها إلى حدود ضخمة وصارت عاصمة فى عهد هادريان (Hadrien) .

وفى عهد ألكسندر سيفير ، تبوأ دمشق مركزا ممتازا كمستعمرة رومانية حتى أنها كانت معفاة من الضرائب العقارية . وفى عهد الإمبراطور الرومانى ديوقلسيان Diocletion قام بإصلاحات إدارية وعسكرية وقضائية لكنه اضطهد المسيحيين . وكذلك فى عهد الإمبراطور جوليان (٣٦١-٣٦٣) أدت محاولة إصلاح عبادة الأصنام إلى زيادة اضطهاد المسيحيين فى دمشق وفى هذه المرة على يد اليهود وأضرمو النيران فى كاتدرائيتين .

وباستثناء معبد حدد الذى بقى من الآثار القديمة ، نجد أن دمشق فى العصر الرومانى ظلت محتفظة بآثارها التى تعتبر من أقدم الآثار وذلك بفضل بعض العناصر المعمارية والرسومات مع الاهتمام بالخطوط العمرانية العريضة والدقة الطبوغرافية . وتوجد داخل المدينة الرومانية وخارج الباب الشرقى ، ثلاث كوات تمت المحافظة عليها بسبب الوسائل الجيدة المستخدمة فى تقوية الآثار الرومانية والإبقاء عليها . وهى عبارة

عن مستطيل طوله حوالى ١٥٠٠ متر وعرضه ٧٥٠ متراً والجوانب ذات خطوط مستقيمة باستثناء الجانب الممتد إلى الشمال حيث مجرى أحد روافد نهر بردى ويمتد ليشمل وادياً صغيراً يضم المدينة الآرامية القديمة والأساس الإغريقى والحي النبطى ، وقد بنيت من الحجر الكبير ولها سبعة أبواب موجهة ناحية الكواكب ثلاثة على الجبهة الشمالية واثنان على الجبهة الجنوبية وواحد على الجبهة الشرقية وواحد على الجبهة الغربية . وباستثناء الباب الشرقى ، فقد أعيد بناؤها فى العصر الاسلامى . فى الجنوب باب الصغير يوجه إلى كوكب المريخ وباب قيسان إلى زحل وإلى الغرب باب الجابية موجه للمشتري وفى الشمال باب الجنيق موجه إلى القمر وباب القرادس إلى عطارد وباب توما إلى الزهرة . ومن الباب الغربى إلى الباب الشرقى ، يوجد شارع رئيسى بممرات مكشوفة بطول ١٥٠٠ متر وعلى جانبيه محلات . أما " الطريق المستقيم " الشهير والذي يبلغ عرضه ٢٦ متراً منها ١٤ متراً لنهر الطريق حيث يعبر المدينة من الغرب إلى الشرق لتسهيل المواصلات بين الأجزاء الثلاثة الآرامية والإغريقية والنبطية وفى الوقت نفسه يربطها بالأجزاء الخارجية .

ازدهرت دمشق كمركز تجارى عند ملتقى طرق القوافل الصحراوية ووجه الرومان عناية خاصة لتقوية المدينة وذلك بتطويقها بسور على شكل مستطيل ولايزال بعض بقاياها مصوناً . وكان فى الزاوية الشمالية الغربية منها قلعة أصبحت تعرف بقلعة دمشق . ولا زالت الآثار الرومانية باقية . وداخل سور المنطقة الرومانية توجد أفاريز من النمط المصرى ولا زالت موجودة فى الجامع الأموى كذلك باب البريد والباب الغربى للجامع الكبير المزين جبهته بأوراق وزخارف نباتية .

وفى الزاوية الشمالية من المدينة الإغريقية وعلى بعد قليل من باب توما توجد الساحة العامة وفى هذه المنطقة يوجد أحد الشوارع الذى لا يزال يحمل هذا الاسم " زقاق الساحة " . ويساعد فى الاحتفاظ بالوضع القديم للأماكن حيث الساحة الإغريقية كانت خالية من أية إنشاءات وذلك طبقاً لوصف دمشق فى العصور القديمة إذ ورد فى القرون الأولى من الوجود الإسلامى تواجد ساحة بجوار باب توما وساحة خالد .

وكانت هذه الساحة عبارة عن مركز تجارى للمدينة ، وهى فناء فسيح مستطيل الشكل محاط بمحلات ومظلة بممرات مسقوفة على جوانبها الأربعة وتتصل بالخارج بعدة أبواب منها باب توما لتسهيل دخول القوافل .

ويعتبر معبد جوبيتر كبير آلهة الرومان من أهم المعالم الأثرية وأكبرها فى سوريا حيث كان يتكون من مقصورة الرب (وهى موضع تمثال الإله فى عبادة الرومان والإغريق) ومحاطة بسورين مستطيلين بحيث يتجه المحور الكبير من الشرق إلى الغرب . والسور الخارجى عبارة عن شكل رباعى الأضلاع أطواله حوالى ٣٨٠ × ٣١٠ مترات ومحاط من الداخل برواقين مزدوجين لتحديد المنطقة المقدسة ، كما توجد بقايا أثار متناثرة ومخرية . وفى الجانب الشرقى يوجد جزء كبير من جدار مزين بأعمدة خاصة فى محور شارع الساحة الإغريقية وباب تذكارى ذو ثلاث فتحات وحاليا مدفون فى الأرض إلى منتصفه حيث كان يفتح علب البناء من الأمام على جدار السور .

ويوجد فى الجانب الشمالى بعض قواعد أعمدة وأجزاء من جدار . أما فى الجانب الجنوبى وقرب الزاوية الغربية ، فيوجد باب بفتحة واحدة . وفى الجانب الغربى بقايا من بنايات وخاصة فى محور شرق - غرب حيث توجد بقايا رواق أثرى يشتمل على زخارف للمدخل وعتبة محنية محمولة على أربعة أعمدة ودعامتين تكون إطارا يندمج فى سلسلة الأعمدة الداخلية للرواق المزدوج .

أما السور الثانى فهو عبارة عن ساحة تحيط بالمعبد من الداخل ويحظر دخول أى شخص إليها سوى الكهنة والمتدينون ، وهم فى حالة نقاء وطهر وقد تمت المحافظة عليه خاصة فى الجزء الغربى منه ، وهو أيضاً مستطيل الشكل أطواله ١٦٠٠ × ١٠٠ متر ومبنى بالحجر الكبير مع فواصل منتظمة من أعمدة بارزة قليلاً تعلوها حلوق مصرية .

ويوجد فى كل زاوية برج مربع الشكل يحتوى على درج يصل لأعلى الجدار . أما البرج الجنوبى الغربى فترتفع فوقه هذه الأيام مئذنة قايتباى ، ولا زالت سليمة

وبحالة جيدة . أما باقى الأبراج ، فقد تهدم منذ القرون الوسطى . كانت توجد أربعة أبواب فى السور الذى يحيط بالمعبد من الداخل . ولا يزال الباب الغربى المسمى بباب البريد بحالة جيدة ويستخدم هذه الأيام كمدخل رئيسى للجامع الأموى . أما الباب الجنوبي والذى سُدَّتْ فتحاته عند إنشاء المسجد ، فقد ظهر من جديد أثناء عمليات هدم المحلات عام ١٩٨٣ .

أما الباب الشمالى فقد اختفى تماما . وكان الباب الشرقى وهو باب جيرون ، المدخل الرئيسى لمحراب الكنيسة . والفتحات الثلاث التى تستخدم إحداها كمدخل للمسجد الأموى ، كانت تفتح تحت رواق يبلغ عمقه ستة عشر متراً وعرضه ثمانية وعشرين متراً وبه درج أثرى للنزول على الطريق المزدان بأعمدة ويؤدى إلى الساحة الإغريقية وقد هدم هذا الرواق بالكامل ، إلا أن بورتر يذكر أن " ستة أعمدة تسند دعائم على هيئة أقواس نصف دائرية " كانت موجودة حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفى القرن الثانى عشر ذكر الرحالة المسلم ابن جبير هذه الأعمدة الست . كما أن " مقصورة الرب " قد دمرت وسويت بالأرض عند إنشاء المسجد بعد أن تحول المعبد إلى كنيسة فى العصر البيزنطى وكان عبارة عن بناية مستطيلة الشكل متجهة ناحية المدخل الرئيسى أى جهة الشرق : وقد أمكن تحديد الشكل النهائى لمعبد دمشق وكذلك معبد بل فى تدمير ومعبد جوبيتر هيليو بوليتان فى بعلبك قبل نهاية القرن الأول الميلادى . وقد أعطى هذا المعبد لدمشق طابع المدينة العظيمة فى الإمبراطورية الرومانية . وجعل الإمبراطور جوليان من دمشق تلك المدينة المقدسة والفسيحة الشهيرة بجمال احتفالاتها وعظمة معابدها فهى مدينة جوبيتر الحقيقية وعن الشرق بأكمله " . كما كان يوجد بدمشق معابد أخرى لا يعرف مكانها حتى الآن . فكان هناك معبد قرب نبع الفيجة .

وقد ذكر فلافيوس جوزيف أن دمشق كان بها قبل نهاية القرن الأول قبل الميلاد مسرح وساحة للألعاب الرياضية هدية من هيروود (٤٠ - ٤) ملك اليهود . وقد ساعد قرب دمشق من فلسطين على ظهور المسيحية وانتشارها منذ السنوات الأولى للقرن

الأول الميلادى وربما لوجود دمشقيين بين اليهود حيث تحولوا إلى النصرانية فى عيد الخمسين أو عيد الحصاد عند اليهود بمساعدة بطرس الرسول أحد تلاميذ المسيح الاثنى عشر . وبعد ثلاث سنوات من موت المسيح ، كانت الجالية المسيحية فى دمشق مهمة بدرجة كبيرة حتى إن السنهدريم وهو المجلس الأعلى عند اليهود القداماء أرسل أحد المتظاهرين بالتقوى من الشباب ويدعى شاول الطرسوسى وهو يهودى ساذج يتكلم اليونانية المتأثرة بالعبرية لا يتنفس إلا التهديدات والقتل لتلاميذ السيد المسيح ، وإذا وجد فى طريقه أى مؤيد أو مشايخ يسير على دربه ، رجالاً كانوا أو نساءً ، فسوف يجرحهم فى سلاسل إلى القدس فى منتصف نهار اليوم الخامس من سفره على ظهر جواد ومعه مرافقه الخاص ، وعندما اقترب شاول من حدائق دمشق ، إذا بنور من السماء يغمره بضوئه الساطع فوق من على ظهر جواده وفقد بصره ، وأحدث هذا التحول دويًا هائلًا فى تاريخ الأديان ، فقد تغير هذا الإنسان الملىء بالرغبة فى الانتقام والاضطهاد إلى رسول وأصبح بولس الرسول . نهض شاول وأخذه مرافقه واصطحبه إلى دمشق حيث بقى فاقد البصر ثلاثة أيام دون طعام أو شراب فى منزل أحد اليهود المقيمين فى " الطريق المستقيم " ثم جاء حنّانياً وهو رجل ورع يحترمه جميع اليهود وتضرع إلى الرب بأن يرد لشاول بصره ، وقام بتعميده . وفجأة " أعلن شاول فى المعابد اليهودية أن المسيح هو ابن الله ! " .

تعرض للانتقام من جانب اليهود الذين استنكروا ارتداد بطل الأمس وكفره . فانسحب شاول المتحمس لهذا الدين الجديد واتجه إلى شبه الجزيرة العربية أى إلى حوران وبلاد ما وراء الأردن . ثم عاد إلى دمشق حيث تأمر عليه اليهود لقتله وقام الوالى الرومانى للملك النبطى أريتاس الرابع باحتجازه ليلاً ونهاراً ومراقبة أبواب المدينة حتى لا يهرب . أنزله لتلاميذه من خلال نافذة من سلة إلى خارج سور المدينة وهرب من دمشق عام ٢٨ . وكان بداية لنشاط محموم وإصرار ونشاط دون كلل وأخذ يدعو وينادى بأن خلاص البشر على يدى المسيح ابن الله !

ومن القدس إلى أنطاكية إلى حمص إلى روما . وكلمة من السماء بدأت تجوب أرجاء الإمبراطورية " وتعلن عن الإنجيل وتبشر بالمسيح الذى عذب بصلبه والذى كان

بمثابة وصمة عار على اليهود وهوس بالنسبة للوثنيين " ففتح الطريق " أمام جميع الوثنيين إلى الامتثال والخضوع للإيمان " . فصل شاول تعاليم المسيح عن اليهودية وأوجد ديناً جديداً . وفى نظره أن الإيمان هو اليقين بأمور لا ترى حيث أعطانا سيدنا إبراهيم " أبانا جميعاً " المثل الأعلى على ذلك وأن الدين الجديد لم يعد يستقر فى اجتثاث غلفة الذكر التى تقطع فى الختان وإنما فى استئصال الخطايا . كما أن الإيمان ليس فى طرف قضيب الرجل ولكن فى أعماق القلب . وبالنسبة لمذهب خلاص البشر على يد المسيح بالموت وبعثه مرة أخرى ، فإن البشر جميعاً يهود وغيرهم مدعون على رجاء المسيحية وبعث الجسد والحياة الأبدية ورؤية الله . والجانب السيئ من هذه التجربة هو الإحباط الجذرى للعالم الدنيوى متمثلاً فى سيطرة الشيطان .

وعن العلم ذكر شاول أن العلم الضار والمفسد الذى يغذى الكبرياء مرفوض ولا جدوى من ورائه . واستشهد المؤلف بحديث لمحمد (عليه الصلاة والسلام) حيث ذكر أن الإسلام يحض على البحث والمعرفة حيث قال " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " .

وعلى الصعيد السياسى ، فيوصى شاول "بالخضوع بلا ضعف لأنه لا توجد سلطة على الأرض إلا وتكون مستمدة من الله وأن الذى يقاوم السلطة أثم ومتآمر ضد النظام القائم " . ومع ذلك فإن الدين الجديد تعرض للاضطهاد من جانب الإمبراطورية وأصبح شاول شهيداً فى عهد نيرون عام ٦٧ وحنانيا فى عهد فيسبا سيان عام ٧٠ . ورغم الاضطهادات أو بفضلها انتشرت المسيحية ودخل عدد ضخم من الرومان فى المسيحية وربما عن اقتناع أو من المؤكد بسبب دوافع سياسية . واعتنقها قسطنطين Constantine (٣٠٦ - ٣٣٧) ومنح الحرية التامة وحرية العبادة بالنسبة للديانات الأخرى . وشهد القرن الرابع انتقال العاصمة من روما إلى القسطنطينية وتحول الإمبراطورية من دولة تؤمن بتعدد الآلهة إلى إمبراطورية مسيحية تؤمن بآله واحد حيث حرية المعتقدات مباحة . ودخلت الكنيسة المسيحية إلى عقر دار الإمبراطورية وأصبحت تشكل عاملاً من عوامل وحدتها .

لكنها رغم ذلك دخلت فى صراع دون رحمة سواء ضد الذين يرفضون عقائدهم أو الذين يعتقدونها بصورة سيئة .

وفى عهد تيودوز Theodose (٣٧٩ - ٣٩٥) ظهرت ثلاثة أحداث تاريخية كان لها وقع محزن فى العالم القديم : فى عام ٣٨٠ أعلنت المسيحية كدين نولة ، عام ٣٩١ إبطال عبادة الأصنام ، عام ٣٩٤ منع الألعاب الأولمبية . فى عام ٣٩٠ ، بعد أن أمر الإمبراطور بنفسه بذبح عدة آلاف من سكان مدينة سالونيك ، فصل وأجبر على الاعتراف بذنبه وبصورة علنية على يد أسقف ميلانو سانت أمبريوز .

تمت ممارسة نظرية بولس الخاصة بالذات الإلهية للسلطة بالكامل لصالح السلطة الكنسية . فى ٧ ديسمبر ٤١٦ طرد الوثنيون من الجيش والإدارة والقضاء . وفى عام ٤٣٥ حكم بالإعدام على كل من يمارس العبادات القديمة . قام الغوغاء المتعصبون فى أماكن عدة بهجوم على المعابد واعتبروها مأوى للشياطين وقاموا بهدمها ، أما الطعنة القاتلة فقد حدثت عام ٥٢٩ فى عهد جستنيان ، حيث أغلقت المدرسة الأفلاطونية بأثينا وصودرت جميع ممتلكاتها . وبقيت مدرسة أفلاطونية أخرى فى حران شمال بلاد ما بين النهرين حتى مجيء الأتراك السلاجقة فى القرن الحادى عشر . وبقيام تحالف بين رجال الدين المسيحي والدولة ، ضعفت الإمبراطورية وتحولت إلى دولة تيوقراطية ، وهيمنت الكنيسة ورجال الدين على السلطة وأصبح الإمبراطور يحمل اسم " سيد العالم " . قسمت البشرية فى نظرهم إلى قسمين :

القسم الأول : الذين يجاهرون بالعقيدة المسيحية ويعلمونها ويعترفون بالإمبراطور بأنه سيد العالم وحاكم الأرض التى عليها سكان .

القسم الآخر : الشعوب البربرية وهم بقية سكان العالم . وداخل الحدود التى تعيش فيها شعوب متنافرة محرومة من الوحدة العرقية واللغوية ، فإن الوحدة الدينية تعتبر بديلاً عن أى شئ آخر لأن تبني العقائد أسهل من تعلم اللغة واعتبر ذلك الضمان الوحيد لتلاحم الإمبراطورية .

فكرة العقيدة الخاصة بالوهية المسيح وتجسده والثالوث . فقد أعلن أريوس أن المسيح غير مساوٍ في الجوهر أو الطبيعة مع الأب وأنه مولود ولكن لم يخلق وهو " قرار غير مفهوم عبر عنه فولتير وأثار تهكمه ، لكنها إرادة سامية أعلى من تفكيرنا البشري " ، وبدلاً من تهدة الخواطر فإن المجمع الدينى أثار النفوس بالمشاحنات المتعلقة بدراسة المسيح من حيث شخصيته وتعاليمه وذلك فى القرن الخامس الميلادى وجزأ المسيحية الشرقية بصورة حاسمة الأمر الذى سهل الغزو الإسلامى فى القرن السابع الميلادى . والمسألة الأساسية التى كانت موضع خلاف وهى الطبيعة الحقيقية للمسيح ، وكنتيجة لمجيئه وهل العذراء أم إنسان أم أم الله ؟

أيد نستوريوس Nestorius بطريرك القسطنطينية عام ٤٢٨ إلى عام ٤٣١ بصورة علنية أن المسيح يجمع بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية بصورة مميزة وأن مريم تعتبر أم المسيح وليست أم الله . إلا أن سيريل Cyrille بطريرك الاسكندرية كان يؤيد المناداة بوحداية الإله وهى العقيدة المصرية فى ذلك الوقت . رفض مبدأ نستوريوس فى مجمع إيفيز Ephese الواقعة على بحر إيجة واتهم بأنه ينكر ألوهية المسيح وحكم عليه بالهرطقة وأنه ينشر البدع . ورغم أن نستوريوس كان يتمتع بتأييد سلطة الإمبراطورية ، فقد تم نفيه وهرب تلاميذه إلى حدود الغساسنة . وفى أكتوبر عام ٤٥١ ، أدان المجمع الدينى بشالسيديان - والمكون من ستمائة أسقف معظمهم شرقيون - المبدأ المنادى بوحداية الإله واقترح صيغة نهائية للعلاقات التى أوجدها سر التجسد بين الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية للمسيح . وفى ٢٥ أكتوبر ، وبعد مناقشات عنيفة بحضور الإمبراطور مارسيان والإمبراطورة صدر " مرسوم عقائدى " وألقى بيان عن النظرية الأرثوذكسية حول تجسد المسيح : " ليكن معلوماً للجميع أن الرب يسوع المسيح هو واحد وأيضاً ابن وأنه كامل من الناحية الألوهية ومن الناحية البشرية وأنه إله حقيقى وفى الوقت نفسه إنسان حقيقى مساوٍ ومشارك فى الجوهر معنا بشرياً ويشبهنا فى كل شىء ما عدا الآثام والخطايا وأنه ولد من أب قبل كل الدهور .

أما عن ألوهيته وعن كونه بشرا فقد ولد من أجلنا وتأس من مريم العذراء . إننا نعترف بيسوع المسيح الابن الوحيد ونقر بأنه من طبيعتين دون أى خلط أو تحول أو انقسام أو انفصال بينهما لأن اختلاف الطبيعتين لا يلغى وحدتهما بل إن شخصية المسيح تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية . وأخذ "المرسوم العقائدى " قوة القانون وأضاف النص الذى صدر عن المجمع الدينى :

" بالنسبة لهؤلاء الذين لا يلتزمون بالمرسوم ، فإذا كانوا أساقفة أو رجال دين ، فإنهم يطردون كنسيا . وإذا كانوا متدينين أو علمانيين فقد حلت بهم لعنة الحرمان . انقسمت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت إلى معسكرين لعدوين لدودين ، فمن ناحية الخلقيدونيون وهم الموالون للمذهب الأورثوذكسى والمقر الرومانى . ومن ناحية أخرى الذين تجمعوا حول مقرى أنطاكية والإسكندرية وهم ضد الخلقيدونيين ، فهم موحدون متشبثون برأيهم . وكتب ميشيل السورى بطريك أنطاكية فى نهاية القرن الثانى عشر "أن مدينة خلقيدونية خرقت سلام الكنيسة " . ازدادت الفجوة عمقا بين السلطة البيزنطية والولايات الشرقية للإمبراطورية وهى سوريا ومصر حيث استخدم مبدأ التوحيد لأغراض سياسية .

وبتحريض من شخص يدعى يعقوب زانزالاس أقيمت كنيسة التوحيد وتقام فيها الطقوس الدينية باللغة السريانية أى الشكل المعاصر للغة الآرامية وذلك فى مواجهة الكنيسة الرسمية . ولكن منذ مجئ الإمبراطور جويستان (٥١٨ - ٥٢٧) أصدر مرسوما بأن الإيمان حسب الطقوس الخلقيدونية أصبح إجباريا على جميع رعايا الإمبراطورية . واضطر الأساقفة إلى اللجوء إلى صحراء الشام للنجاة بأنفسهم من السجن أو القتل . وعندما جاء جستنيان للحكم (٥٢٧) أصبح التحالف بين السلطة والكنيسة وثيقا وتجسدت السلطة فى شخص الإمبراطور رئيس الدولة ورئيس الكنيسة فى الوقت نفسه وأصبح السيد الأعلى للمعتقدات وأنه يتلقى الإلهام من السماء والحق الإلهى . ونص القانون الأول لجستنيان الخاص " بالثالوث الأقدس " . على أن هؤلاء الذين يدخلون البدع والهرطقة لابد أن يخفقوا من الوجود وتمحى آثارهم من على وجه

الأرض " . زادت الاضطهادات الدينية إلى أقصى درجة وأقيمت المحارق فى كل مكان وكانت راحة شواء الأجساد المحترقة للشهداء تفوح فى كل مكان . وجاء إفرام بطريرك أنطاكية والذى كان يلقب بـ "جلاد المؤمنين" وحرص على اضطهاد الشرق بأكمله دون رحمة وطارد المخالفين دون هوادة وأجبرهم على الارتداد عن عقائدهم حتى الذين فروا إلى الصحراء تعقبهم وعذبهم بقسوة حتى الموت .

وفى مصر كانت كاتدرائية القديس مرقس بالإسكندرية مسرحا لمذابح الموحدين والذين نجوا من الموت انتقص من قدرهم وطردوا من الوظائف العامة أو الأعمال الخاصة وحرموا من حرية العبادة ومن حق الميراث . وصدر قانون عام ٥٤٤ بمنع الموحدين من الاحتفال بإقامة القداس أو التعميد أو إنشاء كنائس وأطلق عليها " مغارات الكفر والإلحاد" ولم يذكر التاريخ إلا قدرا يسيراً من التسامح . أغلقت الأديرة وخربت الكنائس وألقى القبض على الأساقفة وأضرمت النيران فى المحارق ولم يفلت إنسان من الاضطهاد .

وفى القسطنطينية وفى عهد جستينان ، جمع أتباع مانى الفارسى صاحب عقيدة الصراع بين النور والظلام فى قوارب وأحرقوا أحياء فى عرض البحر وصودرت أملاكهم حيث كان بينهم نساء شهيرات ونبلاء وكبار موظفين فى الدولة .

وفى عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) وفى الوقت الذى احتدمت فيه المعركة على الفساسة ظهرت الكراهية العميقة من جانب الموحدين السوريين والمصريين تجاه الإمبراطورية . ولذا فقد حاولوا إيجاد صيغة توفيقية لجمع المنشقين عن أرثوذكسية الإمبراطورية تضم جميع الأرثوذكسيين فى كيان واحد لتأكيد وجود إرادة واحدة وطاقاة واحدة لشخصية المسيح التى تجمع الطبيعتين الإلهية والبشرية . ولكن هذا الكيان لم يكتب له النجاح وفشل أمام تثبيت الراديكاليين وأدين من قبل المجمع الدينى السادس الذى عقد بالقسطنطينية عام ٦٨١ ولم يعد له مبرر للوجود لأن سوريا ومصر كانتا فى أيدي المسلمين منذ عقود طويلة واختفى هذا الكيان دون أن يترك أثراً إلا فى شمال سوريا حيث نشأ مذهب المارونيين . وكتب إدمون رباط قائلاً : " لم يكن أمام

العرب إلا الظهور لقطف سوريا ومصر كما تقطف الفاكهة الناضجة " . كما ذكر ميشيل السوري بطريرك أنطاكية من ١١٦٦ إلى ١١٩٩ من أجل ذلك وجب الانتقام لما عانوه من شرور الرومان الذين كانوا يسيطرون في كل مكان وينهبون كنائسنا وأديرتنا دون رحمة ويدينوننا بقسوة ، الأمر الذي جعل أبناء إسماعيل (العرب المسلمين) يأتون من الجنوب ليخلصوننا من أيدي الرومان من أاثامهم وغضبهم وشرورهم . وقد أعرب ميشيل السوري عن تقديره وامتنانه للتعايش السلمى الذى عاشه السوريون والمصريون بعد ستة قرون عاشوها مع المسلمين فى طمأنينة .

ورغم تلك المشاحنات ذات الطابع المسيحى ، فقد عاشت سوريا فترة من الرخاء العظيم أيام الدولة البيزنطية تمثلت فى صناعة النسيج وأثار أبنية الماضى فى كل مكان ، كما ساعدها موقعها على طريق التبادل التجارى مع الشرق الأقصى على أن يكون لها دور عظيم فى الحركة التجارية للإمبراطورية . وفى الشمال كانت نسيب وكالينيكوم (مدينة الرقة حاليا) مركزا من المراكز التجارية المهمة فى الحرير حيث تنقل من الجنوب البضاعة ذات القيمة والقادمة من الجزيرة العربية والهند كالمز والبخور عبر الخليج ووادى نهر الفرات . يعتبر السوريون تجارا مهرة . كذلك ازدهرت الصناعة وبصفة خاصة المنسوج الموشى المعروف بالدباج والمصنوع من الحرير ومطرز بصور الثمار والأزهار والحيوانات والحقول الزاهرة وبالذات فى مدينة صور وبيروت وكذلك صناعة الزجاج الذى اشتهرت به دمشق . وفى عهد جستنيان أرسلت بعثات إلى الشرق لجلب بيض دودة القز وزراعة أشجار التوت وازدهرت صناعة الحرير فى داخل الإمبراطورية وخاصة فى سوريا ومنطقة بيروت ، كما كانت مدن الساحل تتمتع برخاء كبير نتيجة التبادل التجارى وكذلك فى الداخل فى كل من حلب وحمص ودمشق .

وفى القرن الرابع شهدت أنطاكية رخاء ونشاطا وكان عدد سكانها خمسمائة ألف نسمة ولم تتوقف حركة التجارة فيها ليلا أو نهارا .

وفى القرن السادس كتب المؤرخ بروكوب عن أنطاكية وذكر أنها المدينة الرومانية الأولى فى الشرق بثروتها واتساعها وعدد سكانها وجمالها وأثارها .

وعلى الصعيد الإدارى تمت المحافظة على التقسيم الإقليمى الذى أوجده ديونقليس حتى أواخر عهد تيودوز . أما ابنه أركادىوس فقد أدخل تنظيما جديدا استمر فترة طويلة دون تعديل .

ظلت أنطاكية عاصمة لسوريا التى قسمت إلى خمس عشرة أبرشية وقسمت كل واحدة منها إلى عدة أحياء . كانت دمشق المركز الرئيسى والعاصمة الدينية لفينيقيا اللبنانية التى كانت تضم جبال لبنان الشمالية ووادى البقاع وتمتد إلى الشمال حتى تدمر .

وابتداء من القرن الرابع تم إدخال نظام إدارى جديد أكثر قهرا أدى إلى تراجع واضح فى الحكم الذاتى والإقليمى .

وبالنسبة لإدارة الإمبراطورية كان حكام الولايات ومندوبى السلطة المركزية يتجهون إلى أن يصيروا سادة المدن بصورة فعلية مما أثار حفيظة المواطنين ضدهم . ولم يظهر لبنان أى تعاطف معهم . فمنهم من كان يثير رعب وفزع المتقاضين ومنهم من يبدد ثروة لا بأس بها على شهواته . ووصل السوء إلى منتهاه وساد عصر من الغضب والعنف والرعب والخوف وسوء استخدام السلطة . باختصار حل الطغيان محل القوانين . استبدلت اللغة اليونانية باللغة الرومانية فى مجال الإدارة المدنية ، وأصبح التقدير والاعتبار والسلطة فى يد من يعرف اللغة الإيطالية .

وعلى صعيد الضرائب فقد أدى جشع المحصلين إلى أن يتجهوا بأنفسهم إلى القرى ويجرون مسحا دقيقا ويحاسبون الفلاحين حسابا عسيرا مما أرمقهم وأدى بهم إلى العنف المنظم حتى إنهم كانوا يهربون من دفع الضرائب .

وبالنسبة للغة اليونانية فقد انتشرت ببطء وحلت محل اللاتينية وأصبحت اللغة الرسمية للإمبراطورية فى عهد هرقل . ومع ذلك فقد عارض الشعب فى سوريا اللغة

اليونانية وأصر على استخدام اللغة الآرامية القديمة . وظهر الأدب الآرامى فى الأوديسا فى القرن الثانى .

اشترك أسقف دمشق فى المجمع الدينى الذى عقد فى نيسة عام ٢٢٥ . وفى عهد تيودور ، وجهت طعنة قاتلة لعبادة الأصنام وتحول معبد جوبيتر كبير الإلهة الرومان هدد إلى كاتدرائية سميت باسم يوحنا المعمدان . وذكر العمرى فى القرن الرابع أن الكاتدرائية كانت محاطة بأروقة من الجهات الأربع . وقد حفر باليونانية على عتبة الفتحة الرئيسية للباب الجنوبى للسور " ملكوتك أيها المسيح ملكوت أبدى وسلطانك يمتد مدى الأودار " . وقد انسد السكاف العلوى للكوكة الجانبية اليسرى فيما بعد بمحراب المسجد . وكان بدمشق أربع عشرة كنيسة اختفى بعضها والبعض الآخر تم ترميمه عدة مرات . وقد اكتشفت كنيسة المصلبة أثناء أعمال التنقيب عام ١٩٢١ فى مواجهة الجدار الغربى لقبو الكنيسة الحالية وكانت تقام فى وسط المدينة بين الباب الشرقى وباب توما فى مكان منزل حنانيا . وقد هدمت فى عهد صلاح الدين وأقيم مكانها مسجد ثم تحول مرة أخرى إلى كنيسة . واليوم توجد مكانها كنيسة صغيرة تسمى كنيسة القديس حنانيا . كما توجد كنيسة أخرى فى وسط المدينة تسمى كنيسة المقصلة بالقرب من كنيسة مريم العذراء ، حيث كان الناس يتبركون بها فى شفتائهم من احتباس البول ومكانها حاليا الكنيسة المريمية ، كما توجد كنيسة القديس بولس بالقرب من سوق الخياطين الحالى وكنيسة اليعقوبيين قرب باب توما وكنيسة القديس نيقولا غرب المدينة وكنيسة يوحنا المعمدان الجديدة .

انتشرت المحلات التجارية على جانبى الطرق الأثرية خاصة " الشارع المستقيم " .

وبسبب موقع دمشق على طريق الشرق فقد دخلت فى صراع استمر فترة زمنية طويلة بين الإمبراطورية الرومانية والغساسنة وذلك من أجل محاولة احتلال المضيق الإستراتيجى للتجارة العالمية وهو الخليج الفارسى والساحل السورى والبحر الأحمر . وظلت سوريا فى أمان وسلام لمدة قرنين من الزمان قبل مجيء جستنيان للحكم عام ٥٢٧ ووصول المسلمين عام ٦٣٤ .

وفى أقل من قرن من الزمان خربت سوريا بسبب الحروب التى استمرت أربعة وستين عاما . وتم احتلال جميع المدن وهجرها سكانها وهى نصف مدمرة . وقد غزا ملك الفرس مدينة أنطاكية وخربها وأحرقها ونهبها وهدمها ، بل وقام بخلع ألواح الرخام من جدران منازلها ثم عاد إلى بلاده .

ولم تنج دمشق من هذا الخراب عندما استولى عليها ملك الفرس عام ٦١٢ واحتلها حتى عام ٦٢٧ وأخذ عددا كبيرا من سكانها عبيدا إلى بلاده . وفى العام التالى استولى على القدس بعد حصار دام ثلاثة أسابيع وأضرم فيها النيران وقام بذبح سكانها لعدة أيام . وأحرقت كنيسة سان سيبونكر التى بناها الإمبراطور قسطنطين . ولم يتوقف هذا الصراع إلا فى عام ٦٢٧ بعد انتصار هرقل فى موقعة نينيف فى بلاد ما بين النهرين . استنزفت وأنهكت الإمبراطوريتان الرومانية والفارسية وأصبحتا عاجزتين عن إيقاف تقدم العرب المسلمين . وعشية الغزو الإسلامى كانت المسيحية واليهودية قد توغلتا إلى أعماق شبه الجزيرة العربية وحاولت الديانة اليهودية أن تحل محل المسيحية خاصة فى يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) وخيبر وتيماء ونجران واليمن وهم بنو إسرائيل كما سماهم القرآن الكريم . كما كانت تيماء وتبوك بها جالية صغيرة . وعلى طول الطريق من دمشق والمدينة كانت تنتشر الأديرة وكانت عقيدة الموحدين المسيحيين هى المنتشرة فى بادية الشام والحجاز ونجران وعقيدة نستوريوس فى وسط الجزيرة العربية وعلى الحدود الإيرانية والخليج الفارسى .

وفى قلب الحجاز وفى مدينة مكة الغنية التى تقع على طريق القوافل وحول الكعبة وبئر زمزم والى تحيط بها جبال متفرقة على شكل دائرة ، تتجمع قبيلة قريش مكونة عدة عشائر : هاشم وأمية ونوفل وتميم وغيرها لتشكل نوعا من التجار الأغنياء يعيشون على تجارة القوافل . تتمتع قبيلة قريش بالشجاعة والجرأة والإدراك وعملت من خلال رعايتها وحمايتها للكعبة على تجميع العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية للحجيج . ويوجد داخل الكعبة ٣٦٠ صنما يتجمعون حول ثلاثة أصنام كبرى هى : اللات ومناة والعزى حيث تحولوا تدريجيا إلى مزارات قومية يزورها العرب فى أثناء الحج رغم

اختلافاتهم القبلية المزمنة التي مزقت الجزيرة العربية . وكانت السمة السائدة أن تلك الأصنام يعبدونها كواسطة تقربهم من إله واحد هو الله رب إبراهيم وإسماعيل .

ورغم أن سكان شبه الجزيرة العربية مقيمين ومستقرين ، فإنهم يتبعون قبيلة أو تجمع قبلى . ولذا فإن كل عربى للمحافظة على وجوده وكيانه لابد أن ينتمى لقبيلة . والقبيلة عبارة عن مجموعات متجانسة تتخذ اسما لها وتتحد بروابط قوية من التضامن ويرأسها السيد أو الشيخ ويتميز بالحلم والقدرة على التعامل مع الرجال . فهو الذى يختار أماكن نصب الخيام ومناطق الرعى والبحث عن أماكن تواجد المياه وهو الذى يقرر الحرب ويشكل المصدر الرئيسى لحياة البدو . فالحياة القاسية التى يعيشونها فى الصحراء منذ أمد بعيد خلقت فيهم نظاما تتسم بالقيم والمبادئ الأخلاقية تغنى بها الشعراء العرب : معنى الشرف ، احترام الكلمة والوفاء بالعهد والاستقلالية وكرامية التبعية لأى سلطة مركزية ، الشجاعة فى الحرب ، المحافظة على حرمة البيت وهى الخيمة فى أغلب الأحيان وملجأ الأسرة والملاذ المقدس للضيف واللاجئ ومقت الزنا الذى يندس دماء المجموعة ويفسد نسب الأبناء إلى الأب . كما يتميزون بحماية المظلومين وحق الالتجاء والكرم وكرم الضيافة وفوق كل ذلك وقف القتال فى الأشهر الحرام وأثناء الحج .

فى هذه البيئة المكاوية التى تتميز بالتجارة الدولية الضخمة ومن بين أسرة متواضعة من قبيلة قريش العظيمة ولد شخص يدعى محمد عام ٥٦٩ وأمه أمة من عشيرة بنى زهرة وأبوه عبدالله من عشيرة عبد مناف وهى تنقسم إلى قسمين : هاشم وعبد شمس . وعندما توفى عبدالله أثناء رحلة فى يثرب ، كانت زوجته الحامل قد وضعت طفلها محمد ولم يكن لها من الميراث سوى عبد وخمسة جمال وبعض الخراف ، وبعد ست سنوات توفيت أمة فكفله جده عبدالمطلب . وبعد عامين توفى جده فتولى تربيته عمه أبو طالب شقيق عبدالله من الأم ورئيس عشيرة الهاشميين . عاش محمد طفولة غير مستقرة عبر عنها القرآن الكريم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٣) ... أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَانِلًا فَأَعْنَى ﴿٨﴾ . وعندما

كان عمره خمسة وعشرين عاما ، تزوج من خديجة التى كان عمرها أربعين عاما وصاحبة أعمال وأنجب منها أبناء كثيرين توفوا جميعا فى سن صغيرة وأربع بنات : زينب ورقية وفاطمة وأم كلثوم .

وتبنى عبدا شابا وأعتقه وهو زيد بن حارثة .

وفى عام ٦١٠ وعندما كان عمره أربعين عاما اختاره الله نبيا . عندما كان يتعبد فى غار حراء ونزل عليه الوحي وسمع صوتا يناديه إنك سوف تغير مسار العالم : " أنت رسول الله " ومن المبادئ التى نادى بها الإسلام : وحدانية الله والرحمة وقدرة الله وأنه الحكم العدل والخالق لكل شئ وأن المخلوقات جميعاً إلى زوال وقد خلق الله الإنسان من ماء مهين يخرج من الصلب والتراتب " وإنه على رجعه لقادر " وسوف يكون هناك حساب بعد الموت وثواب وعقاب . وكذلك الزهد فى الدنيا وعدم التكاليف عليها أو لما فيها والإحسان والكرم نحو الفقراء واليتامى والسائل والمحروم . أول من آمن به خديجة وعلى بن أبى طالب وأبو بكر ، ثم اتجهت دعوته إلى كل العشائر والقبائل الضعيفة والقوية وخاصة بين شباب الطبقة المتوسطة وأيضاً بين العائلات الأكثر نفوذاً فى مكة : خالد بن سعيد بن العاص وأخيه عمرو بن العاص من عشيرة عبد شمس وكذلك من ذوى النفوذ القوى طلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان الذى تزوج رقية بنت رسول الله وحمزة بن عبدالمطلب عم الرسول من بنى هاشم والزبير من بنى أسد وأبى سلمة والأرقم من بنى مخزوم وبلال وهو عبد حبشى وكان مؤذن الرسول . بلغ مجموع من آمنوا بالرسول حوالى أربعين شخصاً .

هاجم محمد الأصنام وآلهة السابقين واتخذ موقفا معارضا وعنيفا وشعر الرجال الأقوياء من ذوى النفوذ فى قبيلة قريش أن هيمنتهم السياسية والاقتصادية والدينية كانت موضع تهديد . أما بنو هاشم فقد قاطعوا النبى والمسلمين وحاصروهم فى شعب قاحل من شعاب مكة ومنعوا عنهم الأكل والشرب لمدة أكثر من عامين . توجهت مجموعة من المؤمنين إلى الحبشة وظل الباقي فى مكة وعددهم حوالى ستين شخصا

منهم عشرون امرأة . وبدخول عمر بن الخطاب الإسلام قويت شوكة المسلمين ، وكان عمره فى ذلك الوقت خمسة وعشرين عاماً وأصبح فيما بعد خليفة للمسلمين .

وفى عام ٦١٩ توفى عم الرسول أبو طالب الذى كان يحميه من أذى الكفار . كما توفيت زوجته خديجة . وبعد فترة تزوج إحدى من أمنُ برسالته سودا بنت زمعة . أما أبو لهب شقيق أبو طالب وزعيم الهاشميين ، فقد اتصل من حمايته للرسول بل وناصبه العداء ونزلت عدة آيات تنوعد أبا لهب وزوجته بنار جهنم . انسحب محمد بعد ذلك إلى الطائف . وأمام المعارضة الشديدة التى قوبل بها هناك وما لحقه من أذى قرر اللجوء إلى يثرب على بعد ٣٥٠ كيلو مترا من مكة وقد ذكرها القرآن باسم المدينة وهى عبارة عن واحة مياعها وفيرة وتنافس مكة وكانت تعيش فيها جالية يهودية جنباً إلى جنب مع قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج وهما من أصل يمنى . وكان والد النبى قد دفن بالمدينة كما كان له أتباع هناك يؤيدونه . خرج المؤمنون فى مجموعات صغيرة من مكة متجهين إلى المدينة وكان ذلك أول أيام الهجرة حيث حدد التاريخ يوم ١٦ يوليو ٦٢٢ واعتبر بداية التقويم الهجرى . وصل محمد ومعه أبو بكر إلى المدينة فى ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ . ولد دين جديد وبدأت " أركانه " تتضح ، وهى الصوم والزكاة والإيمان بالله وحده وإقامة الصلاة والحج ووضعت أسس الدين متمثلة فى الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان باليوم الآخر وبالجنة والنار وإرسال الرسل .

وظهرت كلمات تعبر عن التضامن بين المؤمنين باستخدام كلمة " أمة " بعد أن كانت تستخدم كلمة " قوم " .

وفى المدينة أعطى محمد قطعة أرض وبنى عليها منزلاً متواضعاً من الطوب اللبن وسقفه بجريد النخل . وكان عبارة عن فناء بسيط مستطيل الشكل محاط بجدار من الطوب اللبن . وفى الشمال مأوى مكون من صف من جذوع النخل ومغطى بالصلصال وسقف النخل .

وفى الشرق مسكن لكل من زوجتيه سودا وعائشة ، الزوجة الجديدة بنت أبى بكر ، وكان المسلمون يؤدون الصلاة خلفه فى منزله . وبعد وفاته أصبح مسجد المدينة .

كان المسلمون فى المدينة يتكونون من مجموعتين : الأنصار وهم أهل المدينة الذين دخلوا فى الإسلام والمهاجرين الذين قدموا من مكة . عندما دخل محمد المدينة عقد اتفاقا ضم جميع سكان المدينة مؤمنين وغيرهم وذلك كخطوة أولى لكى تصبح دولة بالتدريج . انتشر الإسلام فى المدينة وزاد عدد المسلمين وكونوا قوة مقاتلة وعلى طريقة الغزوات العربية قاموا بالهجوم على قوافل قريش . وفى مارس عام ٦٢٤ كانت قافلة ضخمة عائدة من الشام بقيادة أبى سفيان وتتنقل بضاعة بخمسين ألف دينار . كان عدد المسلمين ثلاثمائة مقاتل منهم تسعون من المهاجرين تطوعوا للقتال . إلا أن أبا سفيان أحيط علماً بذلك فغير طريقه وتسلل إلى طريق الساحل ووقعت معركة قرب أبار بدر وطلب الكفار نجدة وصلتهم من مكة .

ورغم الفارق الكبير فى قلة عدد المسلمين بالنسبة للكفار ، فقد انتصر المسلمون ووزعت الغنائم بالتساوى بين جميع المقاتلين المسلمين وأخذ حوالى سبعين أسيرا من أهل مكة وأطلق سراحهم مقابل دفع فدية . وكتب الطبرى يقول إن "هذا النصر الكبير للنبي (عليه الصلاة والسلام) على الكفار قوى من عزيمة أهل المدينة ورفع من شأنها فى أعين المسلمين بل وفى أعين البدو المحيطين بالمدينة .

لم يشترك فى غزوة بدر أى من اليهود واستمروا فى مقاطعة الرسول . وقد شعر الرسول بإهانة إزاء صمتهم وتجاهلهم له وأحيانا إبداء الضغينة والعداء ، كما نزلت آيتان فى الوقت المناسب تطلب من النبي (عليه الصلاة والسلام) أن يتوجه فى الصلاة جهة الكعبة فى مكة بدلا من بيت المقدس ويقول الطبرى إنها المركز الجديد للعالم وإنها "قبة" إبراهيم وإسماعيل . وبعد غزوة بدر نزلت آية تفرض صوم رمضان على المسلمين وهو الشهر الذى وقعت فيه غزوة بدر ، كما فرضت زكاة عيد الفطر . وطردت قبيلة قينقاع اليهودية من المدينة .

وخصص خمس الغنيمة للرسول لينفق منها على الفقراء والمحتاجين والأيتام ومن هم على سفر . وكان ذلك نواة لبيت المال فى المستقبل .

شعر المسلمون بالرخاء . وبعد فترة قصيرة تزوج سيدنا محمد بزوجة ثالثة هى حفصة بنت عمر وكان عمرها ثمانية عشر عاما ، وضعت ابنته فاطمة التى تزوجت بعلى ابنهما الأول الحسن .

وقد أدى اعتراض طريق القوافل وتوقفها إلى تدهور الموارد المالية وبدأت مكة تعد لحملة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل انتقاما لما لحق بها فى غزوة بدر منهم مائتا فارس بقيادة خالد بن الوليد قبل أن يدخل الإسلام حتى إنه بعد أن أسلم ذاعت شهرته وسمى "سيف الإسلام" . كما اشتركت معهم أعداد غفيرة من البدو ، واتجهوا جميعا صوب المدينة بقيادة أبى سفيان وزوجته هند التى قتل والدها فى غزوة بدر . وفى ٢٣ مارس عام ٦٢٥ وعلى بعد أربعة كيلو مترات شمال المدينة وقرب جبل أحد هُزم المسلمون وجُرح الرسول وفرت من المعركة أعداد غفيرة واستشهد حوالى سبعين مسلماً وعلى رأسهم حمزة عم الرسول وعاد القرشيون إلى مكة .

وفى المدينة نزلت آيات فى الموعد المحدد الذى حدث فيه هزيمة المسلمين لتعلمهم بأسباب الهزيمة وأخذ الرسول يدير الأمور بنفسه ويدعو قبائل البدو إلى الدخول فى الإسلام لزيادة حلفائه وتزوج من أم سلمة وزينب وهما أرملتان لشهيدتين قتل أحدهما فى بدر والثانى فى أحد . وضعت فاطمة مولودها الثانى الحسين . استمرت الحملات وازدادت ثروة المسلمين . وعرف المؤمنون فى ذلك الوقت باسم المسلمين . فالمسلم هو الذى يخضع لإرادة الله وأصبح الإسلام هو اسم الدين الجديد .

وفى مكة فكر أبو سفيان فى وضع نهاية لتهديدات أهل المدينة ، فجهز جيشا وتحالف مع اليهود وحصل على تأييد ومساندة قبائل البدو الرحل ومنها قبيلة غطفان . وفى نهاية مارس عام ٦٢٧ اتجه إلى المدينة على رأس جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل قام محمد بحفر خندق بطول الجهة الشمالية من المدينة ، وهى الجهة الوحيدة التى لم تكن محمية بصورة طبيعية . حاصر المهاجمون المدينة وحاولوا دون جدوى إقناع قبيلة بنى قريظة اليهودية - وهى آخر قبيلة يهودية ظلت بالمدينة - الهجوم على مدافعى

الخدق من الخلف . وخلال ستة وعشرين يوما من المناوشات قام الحلفاء برفع الحصار عن المدينة . وتوجهت حملة أخرى إلى جنوب شرق المدينة ضد بنى قريظة ، حيث اشترك فريق منهم فى حصار المسلمين . ذبح الرجال القادرون على حمل السلاح . أما النساء والأطفال فقد بيعوا عبيدا وأخذت ممتلكاتهم .

شكلت المقاومة الباسلة التى انتصر فيها المسلمون فى معركة الخندق تحولا حاسما فى تكوين دولة حقيقية .

تولدت لدى المسلمين عقيدة راسخة بأن من يحكمهم ليس فقط المتحدث من العالم الآخر أو وسيط أو شفيع أو مقرر الإرادة الإلهية وإنما رجل سياسى محنك وقائد حربى ونبى مشرع .

كان يستشير كلا من أبا بكر وعمر . وأصبحت المدينة دولة ثيوقراطية تنتمى فيها السلطة التنفيذية إلى الله سبحانه وتعالى بينما السلطة التشريعية على هيئة أصول وقواعد ومبادئ وأخلاق على لسان الرسول ، تعكس أحاديثه الوعظ والإرشاد بالإضافة إلى الظروف والأحداث التى تتم أنيا .

تطور الأسلوب وأصبحت الآيات القرآنية أطول وغطت القواعد الجديدة جميع جوانب الحياة والسلوك الفردى والعلاقات بين المسلمين وبعضهم ، وبينهم وبين العالم الخارجى وسلوكهم نحو الله . حرص الإسلام على تحسين أحوال النساء واليتامى والضعفاء بصفة عامة والحد من الإباحة الجنسية وتقوية الروابط الزوجية والاهتمام بالأسرة والزواج وتمت تسوية الأمور المتعلقة بالطلاق والميراث وحددت الزوجات بأربع كحد أقصى بشرط العدل من جانب الزوج بما فى ذلك ما يتعلق بالملاذات الجسدية حيث اهتم بها الإسلام اهتماما كبيرا خلافا للتقاليد المسيحية . ورغم أن المرأة ينظر إليها على أنها أقل من الرجل - وهو المبدأ الذى كان سائدا عبر العصور القديمة وأرسطو والقديس بولس . إلا أن الإسلام منحها حق الملكية . وبالنسبة للعبيد فقد أوصى الإسلام بمعاملتهم بالحلم واللين والعمل على إعتاقهم . كما حرم الإسلام الخمر والميسر

والربا . ولكى يكسر الإسلام الحلقة الجهنمية فى الأخذ بالثأر التى كانت موجودة بين القبائل ، فلا بد من دفع الدية فى حالة القتل غير المتعمد . كما حرم وأد البنات . وفى نداء مؤثر لتجاوز الحياة الدنيا واتباع فرائض وعبادات دينية ، وأن يستشعر ويستعد لليوم الآخر - يوم الحساب - ليفوز بالجنة . كما ينادى الإسلام بالمساواة بين البشر جميعاً " كلكم من آدم و آدم من تراب " . "إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وعن الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد العلى القدير الجبار وأيضاً الرحمن الرحيم المعبود ذى الفضل ، والإيمان المطلق هو الخضوع التام لله سبحانه وتعالى وهو يعطى معنى الإسلام .

ويموجب الإسلام انقسم العالم إلى قسمين : العصر الإسلامى ، والقسم الآخر عصور ما قبل الإسلام وسميت بالجاهلية . ولا يمكن الادعاء بأن ما جاءت به الدعوة المحمدية ديناً جديداً وإنما ببساطة تجديد الرسالة القديمة التى نزلت على إبراهيم عليه السلام والأنبياء السابقين موسى وعيسى وغيرهم . ولكن محمد يعتبر خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهذه الرسالة نزلت على العرب ولكنها للعالم أجمع . لقد اكتمل الإسلام وأخذ الشكل الحقيقى والسامى والنهائى لوحداية الله .

وتعتبر الأمور المتعلقة باليوم الآخر كالبعث والحساب أكثر دقة وتحديداً فى الإسلام . ففى يوم الحساب والبعث حيث لا يعرف الإنسان مصيره ، سيبعث عندما ينفخ فى الصور ومن زادت سيئاته فسيلقى فى نار جهنم ومن زادت حسناته وأعماله الصالحة فمثواه الجنة خالداً فيها .

ولا شك أن تلك النظرة تشجع على الاستشهاد والموت فى سبيل الله . وفى نهاية السنة السادسة للهجرة وفى مارس عام ٦٢٨ قرر الرسول عليه الصلاة والسلام التوجه إلى مكة لأداء الحج ومعه من ٧٠٠ إلى ١٦٠٠ رجل ووصلوا إلى الحديبية على بعد خمسة عشر كيلو مترا إلى الشمال الغربى من مكة .

وتم صلح الحديبية مع وفد من قريش . وعقدت هدنة لمدة عشر سنوات وتنازل المسلمون مؤقتاً عن التوجه إلى مكة ، ولكنهم تلقوا تأكيدا بأنه يمكنهم أداء الفريضة

فى العام التالى خاصة وأنه فى تلك الفترة دخل الإسلام اثنان من قرىش ممن لهم نفوذهم وهما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الذى غزا مصر . أما خالد بن الوليد فهو الذى انتصر على المسلمين فى غزوة أحد ، وأحد أبطال غزوات الشام .

وبعد شهر من صلح الحديبية سار محمد (عليه الصلاة والسلام) إلى خيبر على رأس قوة من ألف وستمائة رجل حيث كان بها سبع قلاع وسط الحدائق التى طورها اليهود وزرعوها بالنخيل . حاصر القلاع فسقطت الواحدة تلو الأخرى وحصل المسلمون على غنائم كثيرة واستولوا على الأراضى التى ظل اليهود يعملون بها بموجب عقد استئجار يتقاسمون غلتها مع المسلمين . أما باقى المستعمرات اليهودية مثل فاداك ووادى القرى وتيماء فقد أعريت عن ولائها وخضوعها مقابل دفع ضريبة مع المحافظة على ممتلكاتها . وفى سبتمبر ٦٢٩ ، بدأت مرحلة جديدة من الجراة الحربية . فقد دخل ثلاثة آلاف من البدو فى الإسلام على يد زيد بن حارثة وهو الذى كان يرعاه محمد وعبروا الحدود البيزنطية ووقعت معركة عند مؤتة فى الجنوب الشرقى للبحر الميت واستشهد فيها زيد وجعفر شقيق على وابن عم الرسول .

وبعد هزيمة الجيش أخذ طريقه نحو المدينة . وبعد فترة قصيرة أرسل النبى جيشاً بقيادة عمرو بن العاص نحو الشمال لدعوة القبائل العربية المتاخمة للشام للإسلام . وفى الأول من يناير عام ٦٣٠ حدث خرق لصلح الحديبية وتوجه الرسول إلى مكة على رأس جيش ضخم يضم عناصر من قبائل تميم وقيس وأسد بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل . وقد وصل الضعف منتهاه فى صفوف القرشيين وفى يوم الخميس ١١ يناير عام ٦٣٠ دخل جيش المسلمين إلى مكة دون قتال وذلك بعد واحد وعشرين عاما من نبوة الرسول تلك المدينة التى كانت تعتبر عاصمة الكفر والوثنية العربية حيث دخلت فى الإسلام . وتلقى محمد عليه الصلاة والسلام عهدا بالإخلاص والتبعية . وأمنهم الرسول على حياتهم وممتلكاتهم وحطمت الأصنام ولكن لم يجبر شخص على اعتناق الإسلام بالقوة . وعمل رباط الدم على القيام بدور كبير فى داخل الأمة . فأبو سفيان - شيخ بنى أمية وعدو الأمس - صار موضع ثقة الرسول عليه السلام ، وعين ابنه يزيد حاكماً

على تيماء ، ومعوية الابن الثانى لأبى سفيان الخليفة القادم ومؤسس الدولة الأموية وكان موضع سر الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا كانت العودة إلى رباط الدم قد لوث المثل العالمية للإسلام ، فإنها أكدت نجاح الأوضاع السياسية فى العالم . وعلى ذلك تخطت القوة الجديدة الصراعات الكامنة بين الفئات المؤمنة المختلفة من البدو الرحل والمسلمون الأوائل والصراعات الكامنة التى وجهت التاريخ الإسلامى فيما بعد .

وخلال العامين اللذين سبقا وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة التى كانت المركز والقوة الإسلامية عمل على بسط نفوذه على جميع أرجاء شبه الجزيرة العربية . وحسب التقاليد كانت الوفود من جميع القبائل تصل إلى العاصمة الجديدة لعمل ميثاق الإخلاص للدين الجديد . حتى نجران واليمن الشهيرتين بالجالية المسيحية الغنية ، أرسلتا وفداً بزعامة أحد أساقفتها ووضع نفسه تحت " حماية المسلمين مقابل دفع جزية سنوية مع تأمين الممتلكات وحماية الأشخاص والإبقاء على ديانتهم . وقامت عدة قبائل من المنطقة الوسطى العربية واليمامة ومنهم قبيلة حنيفة التى يدين جزء منها بالمسيحية ومتحالفين مع الفساسنة بعقد معاهدات مع محمد . أما قبائل الموحدنين من بكر بن وائل وتغلب القريبتين من الحدود الفارسية فقد عقدوا اتفاقا سياسيا . كانت القوات العسكرية يحسب حسابها . فحول المهاجرين والأنصار كانت العشائر والقبائل مترابطة : مزينة وجهينة وسليم وكيرانا وقريش وثقيف تشكل الكتائب الضخمة لجيش إسلامى دائم ومنظم . وبعد أقل من عام على دخول مكة توجه محمد نحو الشام بجيش ضخم للانتقام من هزيمة مؤتة . وعلم فى تبوك أن الجيش البيزنطى انسحب إلى دمشق فأرسل خالد بن الوليد واستولى على دوما ومدينة الجوف الحالية وهى من مراكز القوافل القديمة وأحد أبواب الشام .

وفى مارس عام ٦٣٢ توجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعه زوجاته والصحابه للحج إلى مكة بعد أن طهرها من جميع الأصنام . وبعد انتهاء مراسم الحج عاد إلى المدينة . وبعد شهرين مرض الرسول وكان هناك جيش للمسلمين يغادر المدينة متوجها للقاء البيزنطيين بقيادة أسامة للانتقام لاستشهاد والده . وفى ٨ يونية عام ٦٣٢

أسلم الروح دون أن يحدد من يخلفه . اشتدت المنافسة بين فئات المسلمين المختلفة من المهاجرين والأنصار والبدو واشتدت نعرة الجاهلية حتى كادت تسبب انهيار الدولة الإسلامية ، فالكل يريد أن يرث لصالح عشيرته أو قبيلته . وعمت الفوضى والاضطرابات فى الشارع وذلك قبل أن يوارى جثمان الرسول ، وفى المساء وبعد مناقشات حامية ومريرة بين على وعباس عم الرسول وأبى بكر تم اختيار أبى بكر خليفة لرسول الله .

استمرت خلافة أبى بكر عامين حدثت فيها الردة بين معظم القبائل العربية عن الإسلام ، كما امتنع البعض الآخر عن دفع الزكاة فقط كبنى تميم وهوازن . وظهر فى هذه القبائل كذابون يدعون النبوة ، ولم يبق على الإسلام إلا قريش فى مكة ، وثقيف فى الطائف ، وأهل المدينة . أراد العربى البدوى أن يتحرر من القيود السياسية التى تفرضها الدولة العربية الإسلامية . وكما أراد أن يتحرر من الطقوس الدينية التى يفرضها الإسلام أراد أن يتحرر من القيود الأخلاقية والاجتماعية ، فقد كبح الإسلام جماح شهواتهم فحرم عليهم الخمر ، والميسر ، والزنا ، والأخذ بالثأر ، وقيد حرية الزواج .

إلا أن أبى بكر جهز أحد عشر جيشاً بقيادة صناديد المسلمين ، فأرسل خالد بن الوليد لمحاربة طلحة بن خويلد الأسدى ومالك بن نويرة التميمي ، وأرسل عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة لمحاربة مسيلمة الكذاب فى اليمامة ، وأرسل عمرو بن العاص إلى قبائل قصاعة فى نجد .

كان أكثر القواد بلاء فى هذه الحرب خالد بن الوليد الذى هزم أتباع طلحة فى براخة بنجد فخضعت قبائل غطفان وسليم وأسد . توجه خالد بعد ذلك لمساعدة شرحبيل وعكرمة فى حرب مسيلمة ، فانتصر عليه فى معركة اليمامة ، وفيها قتل عدد كبير من حفظة القرآن الكريم .

كما أرسل جيوشاً لفتح الشام واستمرت عجلة الحرب دائرة عشر سنوات وكان ذلك بداية الجهاد الذى استمر ما يقرب من قرن من الزمان حيث كان الهدف منها

إقامة شعائر الله في الأرض وانتشار الدين الإسلامي من المحيط الأطلنطي حتى الهند والسند ولم تصل إليها أى إمبراطورية بهذا الاتساع حتى فى عهد الإسكندر الأكبر أو بونابرت ، فى ٣٠ يولية عام ٦٣٠ تم تجهيز جيش قوامه عشرين ألفا قسم إلى عدة فيالق بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد وأبى عبيدة ويزيد ومعاوية أبناء أبى سفيان حيث أغاروا على القوات البيزنطية بقيادة تيودور شقيق الإمبراطور هيراقليوس وحققوا أول نصر فى معركة أجنادين بفلسطين . وفتح أمامهم الطريق إلى الشام . وتخلّى محاربون من قبائل الغساسنة عن ولائهم للإمبراطورية البيزنطية وانضموا إلى الجيوش العربية . وبعد أقل من شهر أى فى ٢٣ أغسطس ، لفظ أبو بكر أنفاسه الأخيرة ، وفاضت روحه إلى بارئها . وجاء عمر بن الخطاب وهو من صحابة الرسول ووالد زوجته حفصة ، وصار خليفة للمسلمين وأمير المؤمنين .

تواصلت الفتوحات الإسلامية بنشاط متزايد وكانت موضع الاهتمام الأكبر لعمر بن الخطاب طوال فترة حكمه التى امتدت عشر سنوات أسس خلالها النظام السياسى والذى بموجبه استقر نظام الخلافة لمدة تزيد عن قرنين من الزمان . وتعتمد فكرته الأساسية على أن العرب يلبون النداء الإلهى للجهاد بينما الشعوب الخاضعة مصونة فى أرضها ، وعليها أن تؤمن احتياجاتها بدفع ضريبة على الأرض تسمى الخراج وضريبة الرأس (الجزية) ، وتتخذ عن الرجال القادرين على حمل السلاح من أهل الذمة وإعفائهم من الالتزامات العسكرية مع حمايتهم ضد أى عدوان خارجى . طبق هذا النظام على أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين ، أما الوثنيون فقد خيروا بين الدخول فى الإسلام أو أخذهم عبيدا أو الموت .

احتل جيش المسلمين غزة بعد انتصاره فى معركة أجنادين ، وتعقب الجيش الرومانى إلى خارج حدود الأردن حتى طبرية . وفى ٢٥ فبراير عام ٦٣٥ هزم البيزنطيون مرة أخرى عند ضواحي دمشق ، عند مرج الصفر . وبعد خمسة عشر يوما وبعد احتلالهم الغوطة بالكامل حاصر جيش المسلمين دمشق ، واستقر خالد بن الوليد بالقرب من الباب الشرقى ، وأبو عبيدة قرب باب الجابية ، ويزيد بين الباب الشرقى

وباب قيسان ، وعمرو بن العاص قرب باب توما ، وشرحبيل عند باب الفرادس . وبعد حصار دام ستة أشهر ، نجحت الحامية البيزنطية فى الفرار ، وجاء أحد أعيان دمشق ويدعى الأسقف منصور بن سرجون وعرض تسليم المدينة لخالد بن الوليد . ودخلت قواته من الباب الشرقى وتقابلت مع قوات أبى عبيدة التى كانت تدخل من باب الجابية فى "الشارع المستقيم" قرب كنيسة المقصلة مقابل دفع الخراج والجزية وحافظ سكان دمشق والغوطة على الكنائس الأربعة عشرة إضافة إلى أحد المعابد اليهودية . وبالإضافة إلى حرية العبادة التى وفرها لهم المسلمون ، فقد عينوا فى وظائف عامة كانت الإمبراطورية البيزنطية تحرمهم منها بحجة اتهامهم بالبدع والهرطقة . وبعد خمسة عشر عاما من الفتوحات الإسلامية أشاد أحد الأساقفة المسيحيين النسطوريين بروح التسامح من جانب المسلمين تجاه المسيحيين فهم لا يحاربون ديانتهم بل يدافعون عنها ويحترمون رجال الدين المسيحي ويقدمون هبات وتبرعات للكنائس والأديرة . وبعد تسليم المدينة غادر عدد كبير من رجال الإدارة البيزنطيين ليلحقوا بهيرقليوس فى أنطاكية . وشغلت الوظائف الشاغرة بكبار العسكريين المسلمين . وذكر ابن عساكر المؤرخ الدمشقى فى القرن الثانى عشر أن الذين قاوموا المسلمين كانوا قلة لم يتجاوز عددهم اثنا عشر أسقفا بيزنطيا ، ثم هربوا بعد ذلك تاركين مساكنهم وديارهم فسكنها المسلمون . وفى المكان الذى أقام فيه خالد بن الوليد الصلاة أثناء الحصار أقيم مسجد عند مقبرة باب توما قرب نهر مجدل ، وهو أول مسجد أقيم بدمشق . وقد هدم وتحول الآن إلى زاوية صغيرة عند قبر الشيخ أرسلان . كما أن مقابر باب توما هى أول مقابر لمسلمى المدينة حيث دفن فيها المقاتلون أثناء فترة الحصار .

استقر معظم جيش المسلمين فى دمشق ، بينما قامت حملات للمناطق المجاورة فى الجولان وحوران .

علم المسلمون أن جيشا بيزنطيا قوامه عشرون ألفا غادر أنطاكية متجها إلى دمشق فغادر المسلمون دمشق وانتشروا فى الجنوب الشرقى من بحيرة طبرية على ضفاف نهر اليرموك . وفى ٢ أغسطس عام ٦٣٦ ورغم قلة العدد الواضحة فى جيش

المسلمين ، فقد حققوا انتصارا ساحقاً . وعندما علم هيرقليوس بهزيمة جيشه ، توجه إلى القسطنطينية ، فتقدم جيش المسلمين بسرعة نحو دمشق وبعد مقاومة قصيرة مع الحامية البيزنطية قام باحتلال دمشق للمرة الثانية . وبمجرد دخول خالد بن الوليد اهتم بإيجاد مكان ملائم للصلاة ، فأقام مسجدا استمر حتى القرن الثامن سمي مسجد الصحابة . وكان المسلمون والمسيحيون يدخلون من باب واحد لأداء الصلوات ، يتجه المسلمون جهة اليمين للتوجه للمسجد والمسيحيون جهة اليسار للذهاب إلى كنيستهم حيث تم بناء المسجد في الجزء الجنوبي الشرقي من سور الكنيسة وهو المحراب الحالى لمسجد الوليد وسُمي أيضاً محراب الصحابة . كان المكانان قريبين جدا من بعضهما . وأضاف ابن شاعر أن المسيحيين احتراماً للصحابة ويدافع الخشية والتقدير كانوا لا يرفعون أصواتهم عند القراءة ولا يقرعون الأجراس .

بعد الاستيلاء على دمشق أكملت جيوش المسلمين الفتوحات . وعين أبو عبيدة حاكما على الشام وتوجه إلى حمص ووصل إلى مانبيج Manbij على نهر الفرات واتجه عمرو بن العاص إلى القدس لمحاवरتها التي لم تستسلم إلا في عام ٦٣٨ بعد مقاومة لمدة عامين ، بينما توجه يزيد وشقيقه معاوية للاستيلاء على المدن الساحلية : صيدا وبيروت وجبيل . وبمجرد استسلام القدس ، حول يزيد جيوشه إلى قيصرية وهي معقل حصين للمسيحيين ومدينة ساحلية . وفي عام ٦٣٩ توفي أبو عبيدة متأثرا بوباء الطاعون والذي أودى بحياة خمسة وعشرين ألفا من الشام . ودفن بدمشق وحل محله يزيد الذي أصيب بالمرض نفسه ولم يعيش طويلا . وجاء شقيقه معاوية وعين حاكما على الشام وواصل حصاره لقيصرية ولم يتمكن من دخولها إلا في عام ٦٤١ حيث كانت تحصل على إمدادات عن طريق البحر . وبعد فترة قصيرة تم الاستيلاء على عسقلان . وأصبح المسلمون يسيطرون بالكامل على الشام . جاء الخليفة عمر بن الخطاب لاستلام مفاتيح بيت المقدس وهو يرتدى جلبابا بسيطا من القماش الخشن الممزق من الخلف نتيجة الاحتكاك فترة طويلة على الدابة بعد أن قطع المسافة في أربعة أشهر .

بعد فترة قصيرة من تعيين معاوية حاكما على الشام ، أنشأ فى دمشق (فى وسط مسجد الصحابة) مقرا له تعلوه قبة خضراء ، وأطلق على المبنى اسم "الخضراء" . ويطلق على الحى الموجود فيه هذا المبنى الاسم نفسه حتى اليوم . وبعد أن خضعت بلاد الشام وأصبحت تحت سيطرة المسلمين ، اتجهت جيوش المسلمين إلى إمبراطورية الفساسنة واحتلت الحيرة عام ٦٣٣ . وفى يونية ٦٣٧ وبعد الانتصار فى موقعة القادسية ، فتح الطريق أمامهم لدخول العراق وأسس المسلمون أول مدينة لهم وهى البصرة ، ثم أسسوا مدينة ثانية هى الكوفة . وفى عام ٦٤٢ وبعد انتصارهم فى نهاوند كان الطريق سهلا أمامهم إلى أصفهان والهضبة الإيرانية . ولكى يحافظ الأعيان والنبلاء على ثرواتهم وممتلكاتهم خضعوا وفضلوا البقاء مقابل دفع الجزية . ولم يكن يعترض تقدم الجيوش الإسلامية أى عائق . وفى عام ٦٤٣ احتلت سناقر المقر الصيفى للغساسنة . وفى عام ٦٥١ سقطت خراسان فى أيدي المسلمين ، وقتل يزيدجرد آخر حكام الغساسنة .

بدأت العمليات العسكرية نحو الغرب فيما بعد . وفى ديسمبر ٦٣٩ توجه عمرو بن العاص إلى مصر على رأس قوات من الشام لبدء بها فتوحاته فى شمال أفريقيا . وفى أبريل عام ٦٤١ احتل مدينة بابل الحصينة والإسكندرية فى العام التالى . وفى عام ٦٤٥ حقق المسلمون أول انتصار بحرى لهم ضد الأسطول البيزنطى . وبالتدريج صار البحر المتوسط بحرا عربيا بحيث أصبحت الدول المسيحية تخشى تسيير أى مركب فيه . وفى عام ٦٤٧ هزم البيزنطيون فى إفريقية التى صارت فيما بعد تونس فى مدينة قرطاج .

وفى ٢ نوفمبر عام ٦٤٤ سقط الخليفة عمر بن الخطاب على إثر طعنة خنجر من عبد لى حاكم البصرة . تصدرت الشورى عملية اختيار خليفة جديد . وبعد مناقشات مريرة وحادة ضد رأى الهاشميين ، تم اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين .

كان عثمان من الأغنياء الموسرين ، ومن عائلة بنى أمية الشهيرة بمكة ، وأول من دخل الإسلام من العائلات الكبيرة ذات المكانة الاجتماعية المرموقة ، وتزوج بنتين من

بنات الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام) رقية أولاً وبعد وفاتها تزوج بأنم كلثوم . وفى عهده تزايد السخط وتأججت شدة المعارضة فى أرجاء الأمة الإسلامية حيث اتهم بتعيين رؤساء المدن وحكام الأقاليم من أفراد أسرته ، وعدم تخصيص غنائم الحرب للجنود ، ولكنه كان يحتجز جزءاً منها للمقربين وللحكام ، وعمل على تطوير وتشجيع نظام الإقطاع . وباختصار ساهم فى تحويل سلطة المسلمين إلى ملكية مطلقة ذات طابع شرقى " ووقف منه صحابة الرسول موقف العداء والكراهية " ، وتولدت حركات التمرد والتأمر فى العراق وبالأذات فى الكوفة ثم فى مصر . وفى عام ٦٥٥ جاء متآمرون من مصر وتسلبوا إلى المدينة واتسع نطاق الاضطرابات فى المدينة وحوصر منزل الخليفة الذى رفض أن يتخلى . وفى يونية ٦٥٦ تقدمت جماعة من المتآمرين بزعامة ابن أبى بكر واقتحمت المنزل وقتلت الخليفة بينما كان يقرأ القرآن . وتكونت مجموعة ادعت أن لها الحق فى الشورى وجعلت على بن أبى طالب على رأس الأمة . عاشت من جديد الوحدة السياسية والدينية للإسلام . إلا أن الفتنة الكبرى بدأت بعصر الانقسامات والحروب الأهلية وأدت إلى انتصار بنى أمية فى شخص معاوية واغتيال الخليفة ونقل مقره من المدينة إلى دمشق .

رفض على فى البداية أن يتولى السلطة لكنه غير رأيه بعد خمسة أيام وتولى الخلافة فى ٢٤ يونية ٦٥٦ فى مسجد الرسول بالمدينة . تميزت فترة ولايته القصيرة بالصراعات المتواصلة .

وبعد أن هزم فى ٩ ديسمبر عام ٦٥٦ فى البصرة فى "موقعة الجمل" على يد قوات طلحة والزبير وعائشة أرملة الرسول توجه لمقابلة معاوية الذى طالب بالانتقام لمقتل عثمان ابن عمه . والتقى الجيشان بالقرب من الرقة فى سهل صفيين حيث امتدت المناوشات لمدة مائتى يوم أثناء صيف ٦٥٧ . وفى الوقت الذى كان على على وشك الانتصار ، إلا أن خديعة عمرو بن العاص الماكرة غيرت مجرى الأحداث حيث علقت خمسمائة نسخة من القرآن الكريم على أسنة رماح الجنود السوريين ونادوا بوقف القتال وتحكيم كتاب الله . قبل على التحكيم ، وفى إطار مناورات التسوية والمكر من

جانب عمرو بن العاص أعلن صراحة أن معاوية مؤهل للانتقام لمقتل عثمان واتهم على بالاشتراك فى قتله وعُزل من منصبه وغدرت به مجموعة من قواته ، فانسحب إلى الكوفة بينما أعلن أن معاوية صار الخليفة بواسطة جيشه .

شهد سهل صفين تمزق المسلمين إلى ثلاث مجموعات لا زالت العداوة والبغضاء ماثلة بينهم حتى يومنا هذا . فالخوارج كانوا فى الأصل أنصار على إلا أنهم رفضوا حيلة عمرو بن العاص الماكرة وأعلنوا أن الحكم لله وحده وتركوا ميدان القتال وبعد مقتل على استمروا فى الصراع ضد الأمويين . أما الشيعة فكانوا ينادون بأن تَوَجَّه المسلمون لنسل سيدنا على فقط الذى يعتبر أهم شخصية مقدسة فى الإسلام . وأخيرا السنة . فى ٢١ يناير عام ٦٦١ أصيب على إصابة قاتلة فى مسجد الكوفة بطعنة سيف فى وجهه على يد أحد الخوارج فى الوقت الذى كان يستعد فيه للتوجه الى الشام . وبعد ثلاثة أيام من إصابته أسلم الروح إلى بارئها وحمل الشيعة ابنه الحسن خليفة للمسلمين . لكنه تنازل عن ادعائه بأحقية فى الخلافة بسهولة ويسر بعد تلقيه مبلغا ضخما من المال من معاوية ودخلأ مدى الحياة وإقطاعية كبيرة فى بلاد فارس . وبذا انتهى عصر الخلفاء الراشدين . استمر معاوية فى الحكم حتى عام ٧٥٠ ويعتبر مؤسس الدولة الأموية وهو أول خليفة من غير الصحابة .

وطوال فترة حكمه لمدة عشرين عاما جعل من دمشق عاصمة لإمبراطوريته وأحاط نفسه بجيش قوى وإدارة حاسمة وذلك تحسبا لعودة البيزنطيين لمهاجمته فنقل معسكر الجابية إلى دابق شمال حلب ووضع فيه معظم جيش الشام وأعاد الأقاليم التى اعترفت بعلى إلى صوابها وكرس كل جهده لتنظيم جيش قوى يدين له بالإخلاص حيث كانت أغلبية من اليمنيين . كما نظم جيشا بحريا بامتلاكه ترسانات الإسكندرية وعكا وصور وطرابلس واحتل قبرص ورودرس وقام ابنه يزيد بمحاصرة القسطنطينية مرتين . وفى كل عام كانت قواته تتوغل إلى داخل الحدود البيزنطية . وفى عام ٦٦٨ ظهرت جيوش المسلمين لأول مرة على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط . وعلى الصعيد الإدارى تجنب الأخطاء التى وقع فيها عثمان ، فعين حكاما للمدن على أعلى مستوى من الكفاءة

وبعيدين عن عشيرة بنى أمية ، والتزم جانب الحياد تجاه الأسرة النبوية والهاشميين . كما أولى الحجاز اهتماما كبيرا ونظم البريد بين المدينة ودمشق . وبالنسبة للمسيحيين اتبع سياسة متفتحة ومتسامحة خاصة اليعقوبيين . قام بمراقبة كبار الموظفين عن طريق شبكة حقيقية من الجواسيس .

ولعدم ثقته التامة فى أفراد عائلته ، اعتمد على الطبقة المتوسطة من بنى قريش وتقرب من قبائل البدو المقيمين فى صحراء الشام وتزوج ميسون من قبيلة كلب . اتسعت رقعة الأرض الزراعية وبالتالي زاد الدخل للدولة . وعرف الشام فى عهده مستوى كبيرا من الرخاء .

وبخلاف قصر الخضرا ، شيد مكتبة بدمشق سميت ببيت الحكمة وضعت فيها الكتب التى حصلوا عليها أثناء الفتوحات وكذلك المذكرات التى كتبها العلماء العرب وتخصص حفيده خالد بن يزيد فى دراسة الفلك والطب والفلسفة ومؤلفات الكيمياء . كان يوجد مضماران لسباق الخيل .

وفى نهاية عهده أراد معاوية أن يؤكد الخلافة ضمانا لاستقرار الإمبراطورية ولتجنب الفتنة . وخلافا لمبدأ الانتخاب فى الإسلام وعلى الرغم من الاحتجاجات العديدة فإنه نجح فى إقناع القادة العسكريين ورؤساء القبائل والأعيان والمحيطين به بالاعتراف بابنه الأكبر يزيد ليخلفه فى الحكم . ولكن كان هناك كثير من المسلمين يعترضون على تولية يزيد . فبالى جانب غضبهم من أن الخلافة أصبحت ملكية وراثية ، فقد كانت صفات يزيد وأخلاقه لا ترضى المسلمين ولا يمكن لهم مقارنتها بما كان عليه الخلفاء الراشدون بل معاوية نفسه .

يعتبر معاوية المؤسس الحقيقى للدولة العربية - الإسلامية وأحد كبار الحكام فى التاريخ الإسلامى . تميز بالفصاحة والمكر والذكاء والحلم والسيطرة على نفسه عند الغضب . ولكن يؤخذ عليه تحويله نظام الحكم من انتخاب أيام الخلفاء الراشدين إلى الملك ليكون وراثيا فى أسرته كما كان موضع لوم شديد لقسوته مع على بن أبى طالب وسبه من فوق المنبر وسجنه الحسن بن على لإتاحة الفرصة لابنه يزيد بتولى السلطة

كان معاوية قد بنى لنفسه مقصورة داخل مسجد الصحابة لدوافع الأمن وليصلى فيها ويستقبل الناس على اختلاف درجاتهم . وقد امتدح المسعودي دماثة خلقه وذكر كيف يقضى يومه فى قصره بدمشق . بعد صلاة الفجر كان يستمع إلى التقارير التى ترد إليه ثم يقرأ عدة سور من القرآن الكريم ويستقبل أقباءه ثم وزراءه . ثم يتوجه إلى سكنه ويتناول طعام الإفطار " وهو عبارة عن بقايا عشاء الليلة السابقة " وبعدها يتوجه إلى المسجد ، ويعد أن يتوضأ " يسند ظهره على المقصورة ويجلس فى المنبر محاطاً بحراسه يسمح لمن يريده الاقتراب منه : الفقراء وعرب الصحراء والنساء أو الأطفال والمحرومين من أى موارد " . ثم يعود ويجلس على كرسى العرش ويستقبل كبار الزوار مع مراعاة التدرج فى المناصب ويتناول طعام الغداء ويعود إلى المسجد لأداء صلاة الظهر وبعد ذلك يستقبل المقربين إليه وبعدهم الوزراء ثم يصلى العصر وبعدها يخصص موعداً آخر للمقابلات ويتناول طعام العشاء ، يتوجه بعده إلى المسجد لصلاة العشاء وأخيراً يتجه إلى سكنه ولا يستقبل أحداً حتى صلاة التهجد التى يؤديها بالمسجد وبعدها يستقبل المقربين إليه والوزراء والضباط . يعمل الوزراء معه حتى الساعات الأولى من الليل ويقضى جزءاً من الليل فى قراءة تاريخ العرب " أخبار العرب " ، وكل ما يتعلق بتاريخ الماضى . ثم يحضرون له الحلوى التى قامت بإعدادها نساؤه وأخيراً يتجه للنوم .

وعندما توفى معاوية كان ابنه يزيد فى حملة ضد الإمبراطورية البيزنطية فعاد فوراً إلى دمشق وتوجه إلى مسجد الصحابة وصعد على المنبر وأقسم يمين الولاء وأعلن توليه الحكم على الأمصار . ساعد حلم والده على السيطرة على مشاعر الناس . ولكن بمجئ يزيد انفجرت طاقات الحقد والضغينة من الأنصار والعلويين والخوارج والقبائل المختلفة . ولم تدم فترة حكمه سوى ثلاث سنوات كانت كلها سلسلة متلاحقة من الأحداث المؤسفة والدامية التى أثرت على مشاعر المسلمين إلى الأبد . لقد انفجر رد الفعل فى اليوم التالى لحفلات التتويج فى العراق أولاً حيث حرص العلويون أهل الكوفة وأغلبهم من الشيعة على المناداة بالحسين خليفة فهو الابن الثانى لعلى وأمه فاطمة بنت رسول الله .

فغادر مكة متوجها إلى الكوفة يرافقه عدد قليل من الحراس ومعه نساؤه وأطفاله . وفى ١٠ أكتوبر عام ٦٨٠ وفى كربلاء على بعد ٧٥ كيلو مترا إلى الشمال من الكوفة التقت القوة الصغيرة وجها لوجه مع جيش عبيد الله بن يزيد الذى عين مؤخرا واليا على العراق . ويذكر الطبرى أنها لم تكن معركة بل مجزرة حقيقية قتل فيها الحسين بعد أن تلقى أكثر من ستين طعنة وكانت هناك عشرات الجثث من العلويين الذين قتلوا دون مقاومة وتركت جثثهم فى العراء لمدة ثلاثة أيام وإمعانا فى الإذلال قطع يزيد رأس الحسين واحتفظ بها فى الكوفة ثم أرسلها إلى دمشق حيث أودعت فى ضريح ضخم وهو المشهد الحسينى حاليا للمسجد الأموى حيث يأتى الشيعة للحج إليه من كل مكان ، وقد أحدثت مذبحة كربلاء هوة عميقة بين الشيعة والسنة . وأصبح المكان الذى قتل فيه الحسين مزارا شهيراً يحتفل بذكراه كل عام .

أما الخصم الثانى ليزيد فهو عبد الله بن الزبير - ابن أحد صحابة رسول الله المشهورين وحفيد أبى بكر من جهة الأم ويمت بصلة قرابة للرسول (عليه الصلاة والسلام) ، كما أن له مؤيدين كثيرين من الأنصار والقرشيين والمهاجرين - رفض الولاء ليزيد . ونادى به أهل الحجاز أميرا للمؤمنين وطرد الأمويين من المدينة ، الذين كانوا يقيمون بها ومنهم مروان وابنه عبد الملك وكل منهما سيكون خليفة فى المستقبل ولكى يعيد يزيد المتمردين إلى رشدهم أرسل جيشا إلى الحجاز بقيادة مسلم بن عقبة . وفى نهاية أغسطس عام ٦٨٢ توغل جيش الأمويين إلى المدينة وعمل على نهبها وسلبها لمدة ثلاثة أيام ووقعت مذبحة رهيبة قتل فيها الآلاف وترك مسلم حامية صغيرة فى المدينة وتوجه بعد ذلك إلى مكة حيث كان عبدالله بن الزبير يحتمى بها ولكنه مات فى الطريق لمرضه ولكبر سنه فحل محله أحد اليمانيين الذى كان واليا فى السابق على حمص وهو الحصين بن نمير . استمر حصار المدينة المقدسة لمدة ٦٤ يوما . من ٢٥ سبتمبر إلى ٢٧ نوفمبر عام ٦٨٢ .

وقد دك السوريون مكة المكرمة ولم تنج الكعبة بل أطلقت عليها قذائف من اللهب . وجاء خبر موت يزيد فى ١١ نوفمبر عام ٦٨٢ فى مقره بحوران بين دمشق وتدمر

فتوقف الحصين بن نمير عن تدمير مكة ورجع بقواته إلى الشام بينما انحاز جزء كبير من الإمبراطورية إلى صف عبد الله بن الزبير واعترفوا به خليفة في العراق والجزء الجنوبي من الجزيرة العربية بل وفي بعض مناطق من الشام .

عُرف يزيد بالعبث والمجون . وقد وصفه ابن الزبير : "يزيد الخمر ، ويزيد الفجور ، ويزيد الفهود ، ويزيد القروء ، ويزيد الكلاب ، ويزيد التشوات " .

لكنه مع ذلك قام بإصلاحات كثيرة . ففي دمشق تحسنت أحوال الرى في الغوطة وحفر قناة جديدة وتسمى اليوم باسمه : نهر يزيد . كما لم يتوقف الجهاد في عهده وتواصلت الحملات إلى شمال أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع مؤسس القيروان حيث دفع بجيوش المسلمين إلى المحيط الأطلنطى .

وقد أدت وفاة يزيد إلى حالة من الفوضى والصراعات الدموية على السلطة . توفي يزيد وهو في الرابعة والثلاثين من عمره وخلفه ابنه معاوية الثانى ولم يتجاوز بعد الثامنة عشر وكان شاباً ضعيفاً غلب عليه الزهد والتقشف كما كان يحتقر السلطة ولزم بيته ولم يخرج منه حتى وافاه الأجل وبقي في الحكم أربعين يوماً . ولد من أم بدوية من قبيلة الكلب . عقد السوريون اجتماعاً في جابيا جنوب دمشق لاختيار أمير للمسلمين يجمع شملهم ولكنهم كلما عرضوا الخلافة على واحد منهم تهرب منها . وقال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام أفينقل ذلك إلى أهل الحجاز ؟ لا نرضى بذلك ! فعرضوا الخلافة على خالد بن يزيد بن معاوية فرفض وعمر بن سعيد فرفض هو الآخر ومروان بن الحكم الذى وافق وقبل .

في ٢٢ يونية عام ٦٨٤ تولى مروان بن الحكم الخلافة وصار أمير المؤمنين . وقد أدت معركة مرج راهط في تثبيت دعائم الدولة الأموية ولكنها أدت في الوقت نفسه إلى إثارة روح العصبية التي حاربها الإسلام فظهرت العصبية بين القيسيين واليمنيين واستمرت طوال العصر الأموى وكانت أبرز أسباب سقوط الدولة الأموية .

لم يستمر حكم مروان بن الحكم سوى عام واحد عمل خلاله على تثبيت سلطة الأمويين على الشام . كما وجه همه إلى استرداد الأمصار التي انتزعها ابن الزبير فبدأ بمصر فسار بنفسه على رأس جيش وهزم عامل ابن الزبير وأخذ بيعة المصريين وولى على مصر ابنه عبدالعزيز وحاول انتزاع الحجاز ولكن وافته منيته وعهد بالخلافة من بعده لولديه عبدالملك ثم عبدالعزيز .

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة والنولة العربية تموج بالاضطرابات . فقد كانت سلطته مقصورة على الشام ومصر فقط . ووجد نفسه أمام عدة مشاكل :-

أولاً (مشكلة القيسيين ، بعث جيشاً بقيادة عبيد الله بن زياد تمكن من القضاء عليهم . ثم استمالهم فتزوج منهم فتاة أنجبت الوليد .

ثانياً (مشكلة البيزنطيين : كان البيزنطيون يواصلون غاراتهم على أطراف الشام منتهزين فرصة النزاع الداخلي ولكن عبد الملك استطاع أن يرجعهم إلى ما وراء حدودهم .

ثالثاً (مشكلة إخضاع الحجاز : بعث عبدالملك جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي قضت على عبدالله بن الزبير .

رابعاً (ثورات الخوارج والموالي : بعد نجاح الحجاج في الحجاز ولاء عبدالملك على حكم العراق والولايات الشرقية ولدى وصوله وقف على منبر الجامع الكبير بالكوفة وقال جملته الشهيرة : " يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إنى أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها " .

وفي عهد عبد الملك تمت إصلاحات إدارية كثيرة . فقد صبغ النولة بصبغة عربية وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية ونقل الدواوين من اليونانية (في الشام) والفارسية (في العراق وفارس) إلى العربية وأصبح جميع موظفي النولة من العرب وصك عملة عربية في دمشق منها الدينار الذهب والدرهم الفضي . وفي عهده بدأت دراسة القرآن في مسجد الصحابة . حاول عبد الملك كما حاول قبله معاوية أن يستميل المسيحيين

للتفاوض معهم من أجل تحويل كنيسة يوحنا المعمدان إلى جامع كبير ولكن دون جدوى . وفى داخل فناء معبد بيت المقدس ، أنشأ قبة الصخرة وهو أقدم أثر إسلامى لا زال موجودا حتى اليوم ، حيث تم بناؤه عام ٦٩١ ثم أوحى إليه بالشرع فى هذا البرنامج المعمارى الطموح : منها منافسة المباني المسيحية الفخمة التى كانت تزدهر بها مدن الرها واللد والقدس ودمشق والبصرة ... إلخ . وجعل الإسلام الديانة التى تخلف بحرم الديانتين السابقتين الداعيتين إلى التوحيد وتبشيت ذكرى تضحية إبراهيم وليلة الإسراء بمحمد (عليه الصلاة والسلام) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعوده للسماوات .

وعندما توفى عبدالملك عام ٧٠٥ ، خلفه ابنه الوليد . يعد عصر الوليد بن عبد الملك من ألمع العصور التاريخية . فقد ترك له أبوه خزانة عامرة وإمبراطورية شاسعة يديرها ولاية قديرون ، فصرف همه إلى ناحيتين هما التوسع فى الإمبراطورية والقيام بأعمال عمرانية باهرة . وذكر ابن الفقيه أن الوليد عمل على إنشاء أبار بطول الطريق المؤدى إلى مكة لخدمة الحجاج كما أنشأ مستشفيات للمرضى وقام بتوسعة الحرم المكى ومسجد المدينة وأتم بناء المسجد الأقصى بالقدس وأنشأ قصرا بمنية شمال شرق بحيرة طبرية . وفى دمشق أمر ببناء دار الضيافة وأخيراً الجامع الكبير الذى نشأهده الآن . وعلى الصعيد الإدارى أتم صبغ الدولة بالصبغة العربية ، إذ عمل على إقصاء الأجانب عن الجهاز الإدارى ونقل الدواوين من القبطية إلى العربية فى مصر ، فتم بذلك تعريب الدولة .



شكل رقم (٢) الشارع المستقيم وأطلال القوس الروماني الأثرى



شكل رقم (٣) الباب الشرقي - المئذنة التي تعلو الباب



شكل رقم (٤) ساحة معبد جوبيتر - أطلال رومانية وبيزنطية



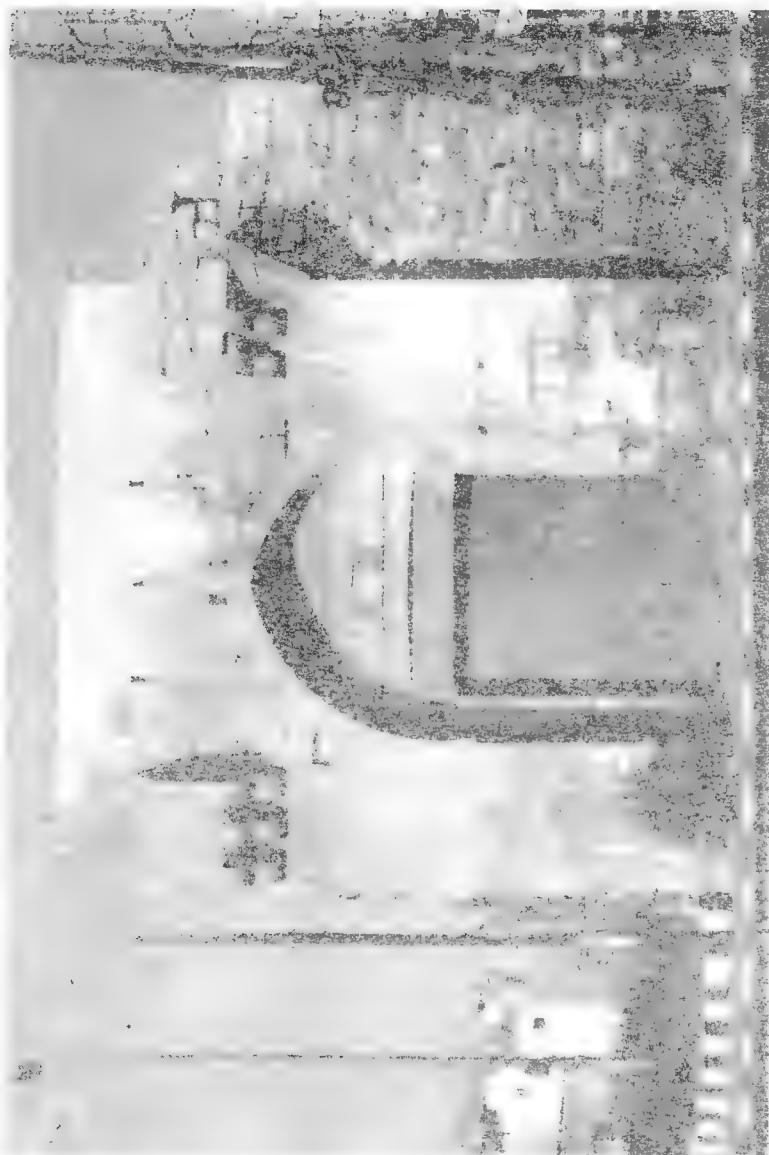
شكل رقم (٥) الجامع الأموي من الداخل . على اليسار قبر بولس الرسول (يوحنا المعمدان)



شكل رقم (٦) خزف فى الصحن الغربى للجامع الأموى



شكل رقم (٧) باب السلام



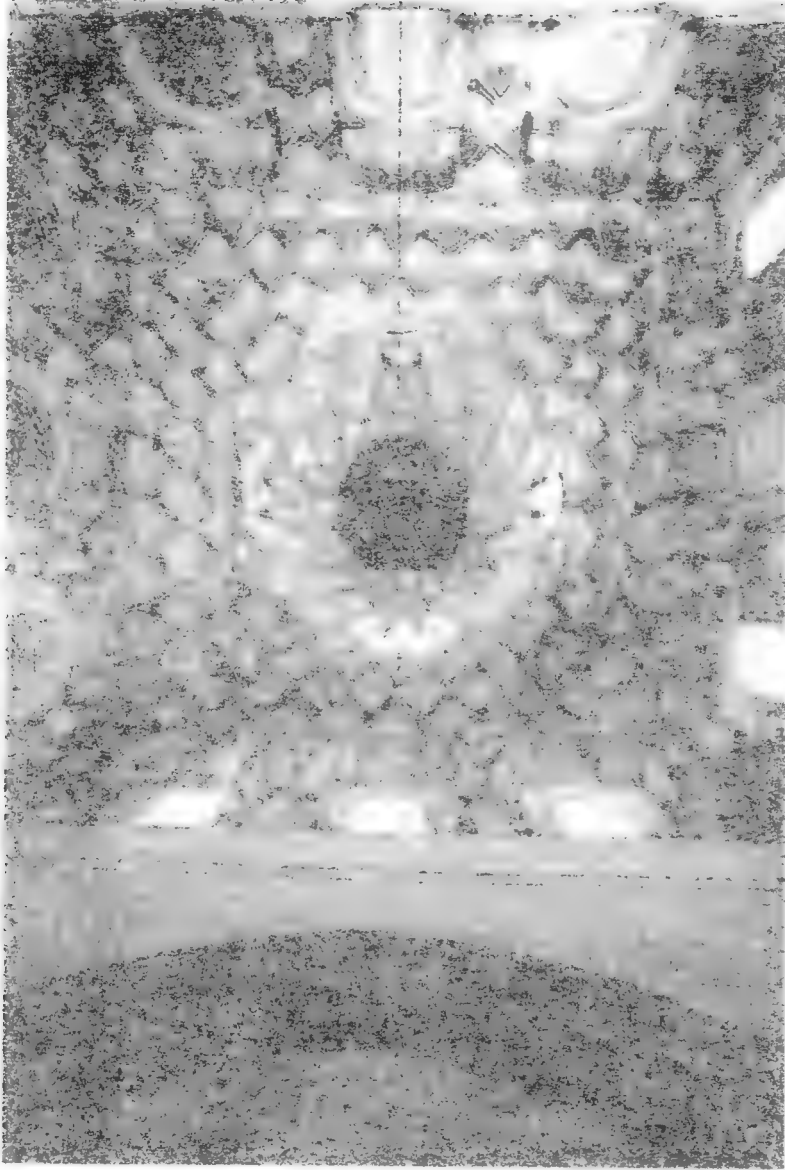
شکل رقم (۸) باب توما



شكل رقم (٩) بیمارستان نور الدین



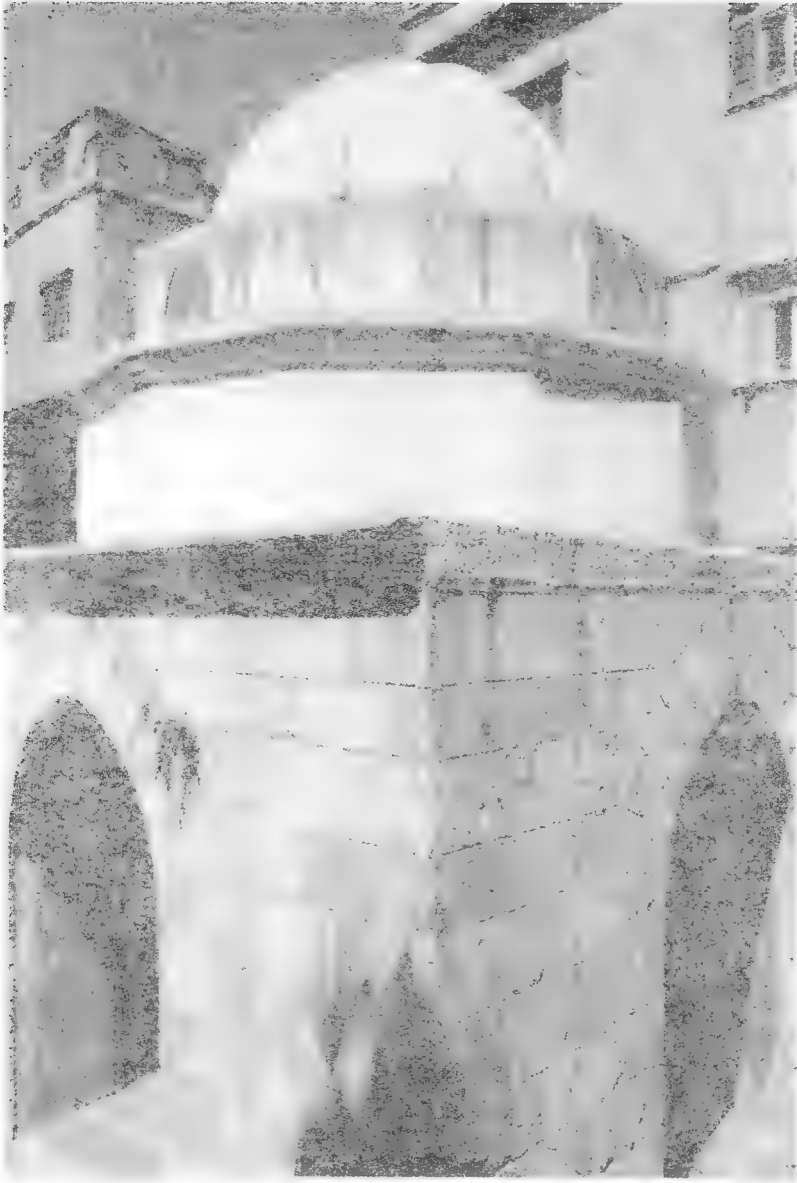
شكل رقم (١٠) مدرسة نور الدين الجنازنية وفي الخلف المقبرة يعلوها القبة الخاصة بها



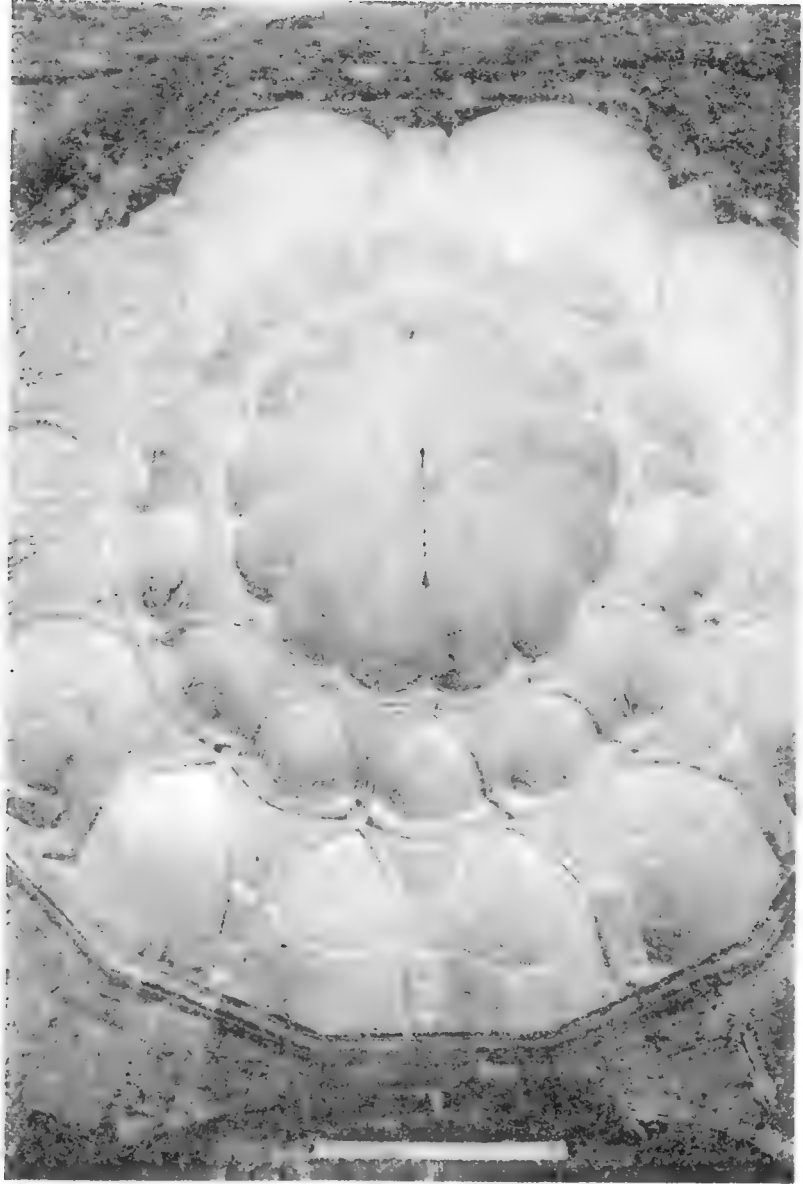
شكل رقم (١١) قبة مقبرة نور الدين من الداخل



شكل رقم (١٢) مقبرة الأمير التركمانى علاء الدين ومقبرة الملك المنصور أحد أبناء صلاح الدين



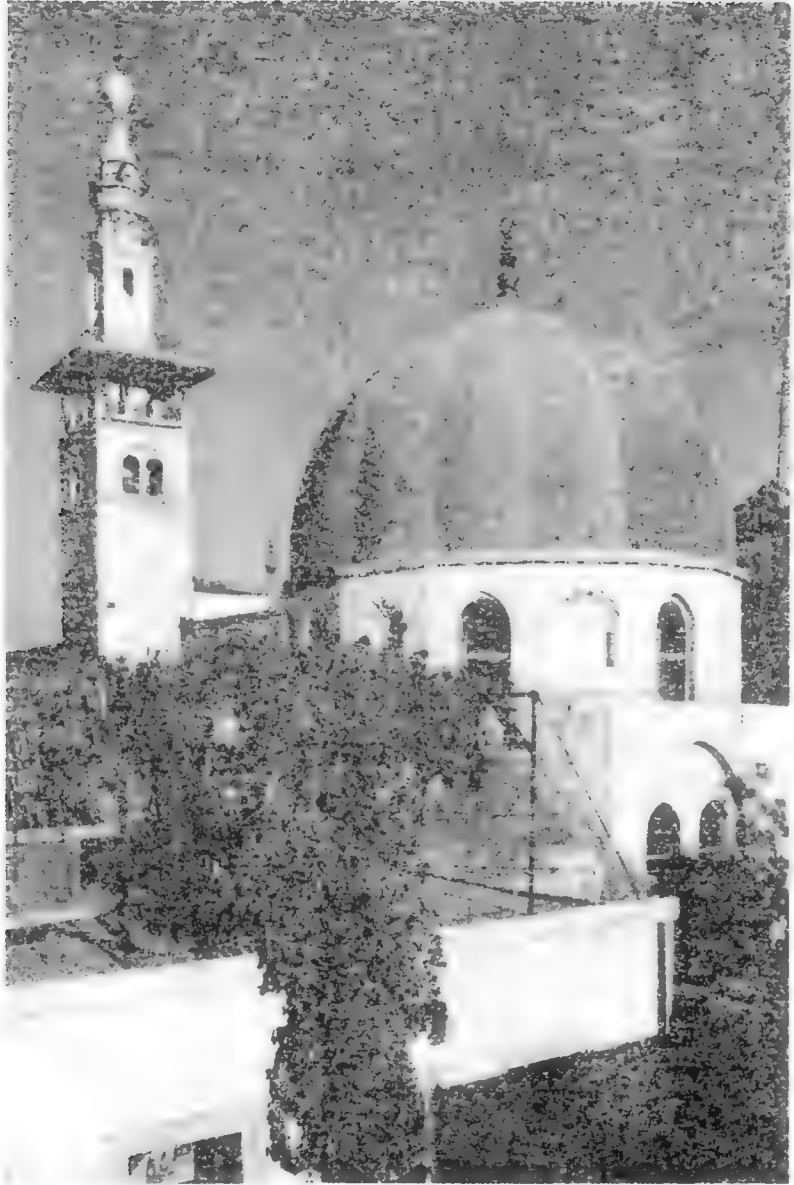
شكل رقم (١٣) مقبرة ابن المقدم (١٢٠٠ - ١٢٠١)



شكل رقم (١٤) قبيرة مقبرة ابن المقدم من الداخل



شكل رقم (١٥) مقبرة فاروق شاه ١١٨٤ وعلى اليسار مقبرة ابنه باهرم شاه ١٢٣٠



شكل رقم (١٦) قبر صلاح الدين ١١٩٥ . وفي الخلف منمنة العروس بالجامع الأموي

وعلى الصعيد العسكرى :

تواصلت الفتوحات ففى الشرق كان للحجاج الفضل الأكبر فى الفتوحات الشرقية . ضمت طخارستان والسند ثم فتحت بخارى وسمرقند وفرغانة . وفى الغرب عبرت الجيوش الإسلامية جبل طارق فى ٢٤ إبريل عام ٧١١ وتم إخضاع المغرب الأقصى إخضاعاً نهائياً وفتحت طنجة وضمت الأندلس ووصلوا إلى سراجوسا وبرشلونة بأسبانيا . اشتهر الوليد أيضاً بالتدين ، فكان ينهى قراءة القرآن مرة كل ثلاثة أيام وتوفى فى دير موران قرب دمشق فى ٢٣ فبراير عام ٧١٥ وخلفه شقيقه سليمان .

ولكى يضىف الوليد مزيداً من الهيبة والنفوذ على الإسلام ، فقد قرر منذ اليوم الأول لتوليهِ العرش العمل على تنفيذ المشروع الذى بدأه معاوية ثم عبد الملك وفشل فيه وهو منح دمشق جامعاً كبيراً . ونظراً لعدم تواجد مساحة كافية لإنشاء هذا المسجد ، فكانت العقبة الكبرى تواجد كنيسة يوحنا المعمدان . حث الوليد المسيحيين على التنازل له عن كنيسة يوحنا المعمدان . وفى مقابل ذلك يمنحهم أملاكاً شاسعة وأراضى وإنشاء أربع كنائس أخرى لم يكن منصوباً عليها فى معاهدة الاستسلام عام ٦٣٥ .

لكنهم رفضوا . عندئذ هدد الوليد بهدم كنيسة توما وتحويلها إلى مسجد خاصة وأنها أكبر وأوسع من كنيسة يوحنا المعمدان ، فقبل المسيحيون الصفقة على مضض . وذكر ابن شاکر أن الخليفة أعطى إشارة البدء وقام بنفسه باستخدام معول الهدم فى قمة البرج الشرقى والذى كان صومعة يسكنها راهب . وأفاد ابن عساكر أن العمال المسيحيين وقد ملأهم الرعب خوفاً من التطير والخرافات لم يجرؤوا على حمل المعاول وإعطاء الضربة الأولى للهدم وقالوا " إنا نجد فى كتبنا أنه لا يهدمها أحد إلا خنق أو جن فقال الخليفة فإنا أول من يجن فى الله تعالى وأعطى المثل بإمساكه المعول وقام بضربات متلاحقة على مذبح الكنيسة . وتم هدم كل ما كان داخل ساحة الكنيسة : المذابح والأروقة . وجه الخليفة نداءً إلى عدة مئات من الصناع البيزنطيين ، وكان طلبه حاسماً كما ذكر ابن عساكر وخالياً من الدبلوماسية فى خطاب أرسله إلى نظيره البيزنطى : " أرسلوا لى مائتى عامل من روما لأنى أريد إنشاء مسجد لم يشيد مثله فى

أى عاصمة من العواصم ولن يبنى مثيل له بعدى . وإذا لم ينفذ طلبى سأقوم بغزو بلادكم بجيوشى وسوف أهدم جميع الكنائس الموجودة ببلادى وأيضاً الآثار البيزنطية الأخرى " . وتحدث الرحالة الأندلسى ابن جبير (١١٤٥ - ١٢١٧) قائلاً إن " انتهى عشر ألفا من الحرفيين والفنيين أرسلوا من القسطنطينية . كما كان هناك فنيون واختصاصيون من فارس والهند والمغرب وبيزنطة " شاركوا فى الأعمال الخاصة ببناء هذا المسجد . وذكر المسعودى أن عمر بن عبدالعزيز باح بسر أن ابن عمه الخليفة " خصص دخل الضرائب العقارية للشام بالكامل لمدة سبع سنوات إضافة إلى حمولة سفينة ذهباً وقضه وثمانى عشر سفينة محملة بمواد قادمة من قبرص بخلاف المواد والخزف التى أرسلها ملك الروم . وحسب أحد الشهود الذين ذكرهم ابن شاکر أن الإنشاء تكلف مئة " مائتى صندوق ضخم يحتوى كل صندوق على عشرين ألف دينار أى أن المبلغ الإجمالى للتكاليف صار خمسة ملايين وستمئة ألف دينار " . وحكى أنه بلغ ثمن " البقل " الذى أكله الصناع فيه ستة آلاف دينار . وضع الناس استعظاما لما أنفق " ، وقالوا " أخذ أموال بيوت المسلمين وأنفقها على من لا فائدة لهم .

وذكر ابن شاکر أن الكتابة التى كانت على حجر الأساس قد محيت أثناء رحلة الخليفة العباسى المأمون (٨١٣-٨٣٣) إلى دمشق . إلا أن المسعودى أكد أنها كانت موجودة وبشكل واضح عام (٩٤٣ - ٩٤٤) فعلى الجدار الجنوبى لصحن المسجد كتب بالذهب على حجر لازوردى من الأحجار الكريمة: " مولانا هو الله ولا نعبد إلا الله ، تم بناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه بأمر من العبد لله الوليد أمير المؤمنين فى شهر ذى الحجة عام ٨٧ هـ " .

هدمت الكنيسة وسدت الفتحات الثلاث التى كانت فى الجدار الجنوبى للسور ، وفتح صف من الشبائيك فى الجزء العلوى من صحن المسجد المستطيل الشكل بطول ١٣٦ متراً × ٢٧ متراً ويشغل الجزء الجنوبى بالكامل وهو الخاص بالمنطقة المقدسة الأثرية فى المعبد .

وحسب الطريقة التى كانت سائدة فى مصر القديمة وبلاد فارس ، ولكن دون ذكر بيت الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة الذى كان مبنيا بدعامات من جذوع النخيل ، فقد أمكن تصويره على أنه كصحن أو فناء يرتكز سقفه على أعمدة ومكون من ثلاثة فراغات مسقوفة موازية لجدار القبلة ويفصلها صفان من "البواكى" المقنطرة .

ومغطاة بسقف مائل ومزدوج . تتكون كل باكية من عشرين عامودا أثريا بقاعدة مربعة وتاج عامود كورنثى وكلها مأخوذة من المعبد الرومانى ومتصلة بأقواس متجاورة على هيئة حزام .

ولزيادة ارتفاع الدعامات ، أضيفت أعمدة مستطيلة أقل ارتفاعا مكونة من دعامات صغيرة مستطيلة الشكل .

وبعد الحريق الكبير الذى حدث عام ١٨٩٢ ، استبدلت بأعمدة صغيرة لتعطى مزيداً من الارتفاع وكدعامات باستخدام أجزاء حجرية . ويتعامد الجزء الرئيسى من المسجد مع القبلة ويقطع صحن الصلاة فى وسطه ويؤدى إلى المحراب الرئيسى حيث توجد الفتحة الغربية لباب السور الداخلى للمعبد القديم . تعود إلى الوليد أول مبادرة لبناء واحدة من أعظم روائع الفن والهندسة المعمارية الإسلامية . وصحن المسجد مغطى بسقف ذى أقواس مائلة مزدوجة تبرز منه قبة ترتفع فوق الصحن الأوسط ، وقد انهارت تلك القبة التى بنيت أيام الوليد التى كانت ترتفع إلى عنان السماء وذلك بعد الانتهاء من بنائها مباشرة . دمرت القبة مرة أخرى عام ١٠٦٩ عقب حريق كبير شب بالمسجد .

كانت القبة فى البداية من الخشب مثل قبة الصخرة بالقدس . وقد وجدت نقوش كوفية محفورة على ألواح رخامية جمعها العالم الأثرى « ماكس فان برشيم » باسم السلطان السلجوقى ملك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) يسجل عليها إنشاء "القبة والمقصورة والسقف والبواكى والدعامات" (١٠٨٢ - ٨٣) . وقد ذكرت تلك الإصلاحات أيضاً فى النصوص التى كتبها ابن عساكر والماوى . وقد تمت تقوية الدعامات الأربع الرئيسية أثناء تلك الإصلاحات لزيادة مقاومتها ، وقد انتقلت القبة لتصير فوق

الصحن الرئيسى . كانت القبة فى البداية من الخشب ، فأمر الوليد أن تسقف بالرصاص . وكانت القبة تبدو وكأنها مزدوجة ، ولكن كانت إحدى القبتين داخل الأخرى ، والتي تبدو من الخارج هى القبة المغطاة بالرصاص ، وذات يوم عبر أحد الزائرين البيزنطيين عن دهشته وإعجابه ، ووصفها أحد الشعراء بأنها " كانت مرتفعة وعالية لدرجة يصعب على الطيور الوصول إليها إلا بشق الأنفس " .

وعبر ابن بطوطة عن إعجابه بالقبة التى سميت بقبة النسر وليس فى دمشق أعلى ولا أبهى منظراً منها . إنها إحدى عجائب الدنيا فى فن التشييد وفى ارتفاعها الشاهق . وكانت تسمى قبة النسر لأنهم شبهوا المسجد بالنسر والقبة برأس النسر .

وفى القرن الثانى عشر استبدلت القبة المزدوجة بقبة بسيطة من الحجر ، بعد الحريق الذى شب عام ١٤٠٠ . أما القبة الحالية فقد أنشأها المهندس المعماري الانجليزى أبيرى عقب حريق شب عام ١٨٩٣ .

دعمت واجهة الصحن الرئيسى بدعامتين تمت تقويتهما بقبة صغيرة مغطاة بالرصاص مع ملاحظة أن تناسقها لا زال متأثراً بالتقاليد البيزنطية .

يتكون المدخل الرئيسى لصحن الصلاة من باكية صغيرة بثلاث فتحات وعمودين ولا يستخدم إلا فى المناسبات الرسمية . وفى أعلى المدخل وضعت زخارف زجاجية مختلفة الألوان تسمح بإدخال ضوء النهار إلى صحن الصلاة . ولم يتم إنشاء الهياكل ذات الانحناء الشديد إلا بعد حريق عام ١٤٠٠ وقام ببنائها المهندس الانجليزى أبيرى عام ١٨٩٣ ، حيث أخذ من وصف ابن جبير ما يفيد أن السطح الخارجى كان مغلفاً بطبقة رقيقة من الرصاص . أما الأجزاء الداخلية للأسقف فكانت مزدانة بقشرة من الذهب والفصوص اللزوردية . كان المسجد مزوداً بستمائة مصباح مثبتة بسلاسل ذهبية حيث ينبعث منها ضوء يخطف الأبصار ، إذ كانت أضواؤها تصل إلى جبل لبنان وشاطئ البحر ، كما عبر بذلك أحد الشعراء . وقد حدد الدمشقى أنه فى عام ١٣٠٠

كانت أضواء الجامع الأموي تصل إلى مسجد الربوة الذي يبعد سبعة كيلو مترات إلى الغرب من دمشق . كما أن إضاءة الجامع الأموي كانت تحتاج سنوياً إلى ألف قنطار دمشقى من زيت الزيتون النابلسى ، وأنه فى منتصف شهر شعبان ، كانت تضاء اثنى عشر ألف مصباح تستهلك خمسين ألف قنطار دمشقى من زيت الزيتون .

وفى محور الصحن المتعامد يدل المحراب الرئيسى على القبلة ، والذى كان من أكثر الأماكن فى المبنى زينة وبهاء . وعبر ابن الفقيه عن ذلك قائلاً : " كان مغطى بالجواهر الرائعة والأحجار الكريمة " . وأضاف المقدسى عليه قائلًا : " مزدانا بقطع كبيرة من العقيق الأحمر والفيروز الأزرق التى لم نشاهد فى حياتنا قطعاً فى مثل حجمها .

وذكر ابن جبير أنه كان إحدى عجائب الإسلام بجماله وندرة زخرفته . ويعد محرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة فى صنعته ، فهو يتقد ذهباً كله وقامت فى وسطه محاريب صغار . يوجد فى الجزء الشرقى من القبلة المحراب الذى كان يطلق عليه محراب الصحابة تخليداً لذكرى مسجد الصحابة الذى شيد أثناء فتح دمشق . وكان هذا المحراب طوال فترة الدولة الأموية مخصصاً فقط لأعضاء الحكومة . وفيما بعد ، وفى القرن الرابع عشر ذكر ابن بطوطة أنه كان محجوزاً لأفراد مدرسة الشريعة المالكية . وعلى يسار المحراب الرئيسى يوجد محراب ثالث لأفراد المدرسة الحنفية التى شيدها الإمام أبو حنيفة فى القرن الثامن . أما المحراب الرابع ، فيوجد فى الطرف الغربى وقد بنى حديثاً . عدد شمسيات الجامع الزجاجية المذهبة الملونة أربعة وسبعون ، وهى عبارة عن النوافذ فى أعلى الجدران لإضاءة ساحة المسجد والقبلة تسمى " القمرية " أو " الشمسية " . وكانت تغلق لاستخدامها كستائر . وقد شاهدها الشاعر الفرنسى لامارتين عند زيارته لدمشق فى بداية القرن التاسع عشر . وكانت تلك الطريقة شائعة فى العصر البيزنطى وكذلك استخدام الفسيفساء الذى انتشر هذه الأيام فى مساجد الهند وباكستان وأغلب دور العبادة الإسلامية وكذلك فى المدينة والكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وسامراء .

وقد ترجم ذلك فكرة توحيد المكان الدينى : فناء واسع ، جزء منه مغطى وهو الصحن المخصص لأداء الصلاة وأحياناً يطلق عليه اسم "الظلة" أى الجزء "المحمى من الشمس" .

أما الصحن فهو مغطى بالكامل بالرخام الأبيض فى عصر المقدسى وهو عبارة عن مستطيل كبير طوله ٢٢٢ متراً × ٥٠ متراً ومحاط من جوانبه الثلاثة بأروقة تعلوها سلسلة عقود صغيرة ومغطاة بسقف مستو يميل بشكل مخفف نحو الداخل . وتوجد فى الجهة الشمالية دعائم مبنية . أما فى الشرق وفى الغرب ، فإن التنسيق الثلاثى للأروقة تم بشكل تبادلى بين دعامة وعمودين وهكذا . ويبدو أن هذا التنسيق فى المبنى قد حدث فى عصور سابقة . بنى الجزء الشرقى من الجدار عام ١٠٨٩ والجزء الغربى عام ١١٠٩ وقد وجدت نقوش على لوحة جبسية توضح الترميمات والإصلاحات فى بناء الرواق عام ١٤١٦ على يد المهندس المعماري القادم من الإسكندرية.

وقد أكد (الماوى) وهو أحد البنائين فى عصر الوليد قائلًا: سنضع دعامة بين كل عمودين . كما وصف كثير من المؤرخين أمثال ابن جبير وابن بطوطة وأبو الباقية المبنى بدقة كبيرة قائلين إنه كانت توجد أربع عشرة دعامة لرواق الصحن مما يشكل وحدة وتناسقاً ثلاثياً . كما أن هذا التناسق كان موجوداً فى الصحن المخصص لأداء الصلاة ، وقد ذكر ابن جبير بدقة كبيرة أن "المسجد يقام على ٦٨ دعامة منها ٥٤ عاموداً ، وثمانى دعائم مغطاة بالجبس واثنتان مغلفتان بالرخام وملتصقتان بجدار الصحن ، وأربع دعائم أخرى يغطيها الرخام بشكل رائع وتوجد فى وسط الصحن الرئيسى وتستخدم كسند للقبة الرصاص والتي تغطى المحراب . وفى منتصف القرن التاسع عشر، حدد أحد رجال البعثة التبشيرية الأمريكية ويدعى بورتر أن الحائط الشمالى للصحن المخصص لإقامة الصلاة كان محمولاً على أعمدة ولكن كان أغلبها يحتوى على دعائم " . ويمكن الوصول للصحن عن طريق ثلاثة أبواب : فى الغرب باب البريد ، وهو الباب الرومانى القديم للسور وتمت المحافظة عليه دون تعديل بكواته الثلاث . وفى الجهة المقابلة ، باب جيرون وهو أيضاً باب رومانى ظل سليماً ، وكان مقراً لعلماء الفلك

ومساعدتهم . أما الباب الثالث فيسمى باب الفراديس أو باب تجار النوجة والحلويات وله كوة واحدة ومخصص للدخول من الجهة الشمالية . كما يوجد بابان فى حائط القبلة يؤديان مباشرة إلى الدخول لصحن المسجد لأداء الصلاة . وفى الطرف الغربى يوجد "باب الزيادة" يسبقه باب يشبه الأبواب الثلاثة الأخرى للخروج منه للتوجه إلى قصر الخضراء ودار الخيل . وفى الطرف الشرقى يوجد باب الساعات . وقد ذكر المقدسى أن هذا الباب له مصراعين وبدون زخرفة ويوجد قبله رواق يستخدم "كمقر لكتاب العدل" . وفى القرن الثانى عشر ، نسبت تسمية هذا الباب باسم باب الساعات إلى باب جيرون ، لأن أحد علماء ميكانيكا الساعات تمكن من معرفة جميع ساعات النهار وخاصة مواقيت الصلاة وثبتها . " فكانت تشتمل على صور صغيرة لطيور كما ذكر ابن عساكر ، وثعبان وغراب ينق وحصوة تسقط فى حوض صغير " . وفى القرن العاشر كان فى كل باب مكان للوضوء " مبلط بالرخام وإنشاءات يتدفق منها الماء وينساب فى أحواض كبيرة من الرخام " .

يضم المسجد حالياً ثلاث مآذن ، وفى الشمال توجد منارة (مئذنة) العروس ، وفى الشرق منارة عيسى ذات الطابع العثمانى ، وفى الغرب المنارة الغربية - ذات الطابع المملوكى - والتي أنشئت عام ١٤٨٨ . وحالتها الحالية تختلف عن الحالة التى كانت عليها عند إنشائها . وفى عصر الوليد ذكر بعض المؤلفين الذين شاهدوا تلك المنارات أنها كانت تشبه الأبراج القديمة ذات الزوايا كما كانت فى المعبد الرومانى القديم . وعندما أنشأ الوليد المسجد ، ترك تلك الأبراج على حالتها القديمة ، وأكد ذلك المسعودى عندما ذكر فى عام ٩٤٢ أن "أبراج الكنيسة القديمة تمت المحافظة عليها سليمة واستخدمت كمآذن يؤذن من فوقها المؤذنون للدعاء على الصلاة " . وفى عام ٩٨٥ ، ذكر المقدسى أنه أنشئت حديثاً مئذنة (منارة) عند المدخل الشمالى ومغطاة بالفسيفساء . أما البرجان الشماليان فكانت حالتهم سيئة فى بداية القرن الثامن ثم انهارا بعد ذلك . بقى البرجان الجنوبيان فترة طويلة محرومين من التجديد والترميم واستخدما كملاذ للنسك المغاربة حتى عام ١١٨٤ . حيث ذكر ابن جبير أنه حتى ذلك

التاريخ كانت توجد ثلاث منارات : الغربية والتي كانت البرج الرومانى حيث استخدم أبو حامد الغزالي الغرفة العليا للاعتزال والتعبد ويسكنها حالياً أحد النساك الزاهدين والمئارة الشرقية تشبة تماماً المئارة الغربية ، كما توجد مئارة جهة الشمال فوق باب تجار النوجة .

وقد هدم البرج الشرقى على أثر زلزال أرضى عام ١٢٠٢ واحترق عام ١٢٧٤ وأعيد بناؤه واحترق مرة أخرى عام ١٣٣٩ - ١٣٤٠ وتم إصلاحه .

وقد ورد فى الأثر الإسلامى أنه قبل يوم القيامة سينزل عيسى إلى الأرض من فوق المئارة الشرقية ليحارب المسيح الدجال ويقتله .

أما البرج الغربى فهو الوحيد الذى ظل سليماً وتم إصلاحه وترميمه عام ١١٨٤ وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، حيث دمر عام ١٤٠١ عقب حريق شب بعد احتلال قوات تيمور لك لدمشق ثم أعيد بناؤه عام ١٤٨٨ بأمر من السلطان المملوكى قايتباى . تلك هى المئارة الغربية التى لازلتنا نشاهدها هذه الأيام.

بنيت عدة بنايات صغيرة بالتتابع داخل الصحن ، ويرجع تاريخ تلك البنايات إلى عصر الوليد وهو بيت المال ، الذى يطلق عليه أحياناً اسم قبة الخزنة ، وهو مخصص حسب التقاليد السورية إلى حماية مال الشعب . وقد ذكر المقدسى أن هذا النظام كان معمولاً به فى جميع المدن السورية الكبرى . بنى بيت المال وفق تقنيات فنية بيرزنطية جيدة وهو مكون من غرفة ثمانية الأضلاع قائمة على ثمانية أعمدة ضخمة ومغطاة بقبة ولا يوجد بها سوى فتحة صغيرة فى الجانب الشمالى الشرقى أما الغرفة التى جدرانها الخارجية مغطاة بالكامل بالفسيفساء فلا يمكن الدخول إليها إلا باستخدام سلم . يوجد فى الجزء الشرقى من الصحن مبنى آخر صغير يحمل اسم "قبة عائشة" .

أما الحوض المخصص للوضوء والموجود حالياً فى هذا المكان فهو حديث . وبخلاف اتساعه والأفكار المبتكرة فى إنشائه ، أخذ مسجد الوليد اسماً جديداً "جامع

الأمويين " حيث اشتهر بروعة وجمال الزخرفة وكما قال ابن عساكر أن ما لا يقل عن ١٢ ألف رجل كانوا يقطعون الرخام فى كل يوم . وذكر ابن جبير أنه "كان إحدى عجائب الإسلام بجماله وندرة زخرفته " . وقالوا : "عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ومنازة الإسكندرية وكنيسة الرها ومسجد دمشق " .

وقال ابن حوقل : "لقد تجاوز بجماله المعمارى وبناؤه جميع المساجد الأخرى فى العالم الإسلامى " . أما الشاعر الفرزدق فقد وصفه بأنه قصر من قصور الجنة . وقال الإدريسي : " يوجد فى دمشق المسجد الأكثر اتساعاً والأكثر جمالاً والأكثر متانة فى البناء وأروع تصميم ظهر على وجه الأرض وازداد جمالاً بتنفيذ الزخرفة فيه " . وعبر ابن عساكر عن رأيه حين قال إن زائراً من منتصف القرن الحادى عشر أخذ يتأمله فوجد فيه " منظراً تجاوز كل الأوصاف والتخييلات غير المألوفة " وأنه " جوهرة القرن وتحفة العصر والزمان " وقال ابن بطوطة أنه لم ير مثيلاً له فى كل البلاد التى زارها .

كانت جميع تيجان الأعمدة مغطاة بطبقة كثيفة من الذهب ، وأن القبة من الداخل "بأكملها منقوشة بحروف من الذهب رسمت بفن ووضوح رائعين " . وحسب التقاليد الرومانية - البيزنطية ، فإن الجزء الأسفل من جميع الجدران كان يتم زخرفته بأحجار ملونة ، حتى إن المقدسى اعتبر ذلك أجمل شئ فى المسجد إذ يأخذ كل حجر مكانه بجانب الحجر الآخر مما يعطى رونقاً وصورة جميلة ومتجددة على مدار العام . ومع ذلك فعندما ظهرت الفسيفساء واستخدمت على نطاق واسع وغطت اللوحات الجدارية جميع الحوائط الداخلية والخارجية للمبنى ، مما جعل مسجد الوليد يعطى انطباعاً عالمياً بالإعجاب ، مما جعل ابن عساكر يعتبر مسجد الوليد الخامس ضمن عجائب الدنيا . كما رسمت الكعبة فوق المحراب حيث المركز الرئيسى للمبنى لى تتطابق وسرة الكون ، كما كانت جميع الدول المعروفة ممثلة كأشجار مميزة بشمارها أو أزهارها .

وكان هدف الوليد من وراء ذلك إعطاء صورة لهذه الإمبراطورية الشاسعة التي يسيطر عليها والتي تمتد من المحيط الأطلنطي حتى بلاد الهند والسند ، وقد جمعها في دار الإسلام ومرتبطة حول مركزها الغامض : الكعبة الموجودة في مكة . وقد دمر الجزء الأعظم من هذه الزخرفة أثناء الحرائق التي شبت أعوام ١٠٦٩ ، ١٤٠١ ، ١٨٩٣ ، ولم يتبق في مطلع القرن العشرين سوى بعض قطع متناثرة على واجهة الصحن الرئيسى وعلى الواجهة الخارجية لأروقة الصحن وعلى السطح السفلى لبعض الأقواس . كما توجد بقايا متناثرة ومتييسة من الفسيفساء .

ومنذ عام ١٩٢٤ جرت عمليات سبر وجس تحت طبقات الجص الذى يغطى جدار الرواق الغربى للصحن ، فاكتشفت بقايا مهمة من لوحة كبيرة مستطيلة الشكل بطول ٢٤ متراً وعرض سبعة أمتار .

وبين إفريزين مزدانين بورود لهذه اللوحة الضخمة وجدت عمليات مختلفة لإفراط معمارى : بيوت صغيرة من عدة طوابق ، أجنحة دائرية الشكل ومزودة بأعمدة ، مبان صغيرة بواجهات مقوسة ومنتشرة فى وسط طبيعة خلابة وأشجار باسقة على ضفاف نهر ينساب : بناية نصف دائرية مدعمة ببرجين مربعين يعلوها سقف مستو محمول على ستة أعمدة مضلعة الشكل ومزدانة بحواجز من الرخام الأبيض وقد يكون إحياء لذكرى أحد مضامير السباق بدمشق . وخلف تلك البناية مباشرة يوجد منزل به شرفه ووراءه رواق به ثلاثة أعمدة وحوله خضرة كثيفة . وهناك جبل يعلو هذا المنزل . كما تبرز مجموعة من النباتات وبرجان مرتفعان أحدهما مغطى بقبة على هيئة بصيلة مدهونة بالقطران . وإلى اليمين مباشرة من هذه اللوحة وعلى ضفاف النهر نفسه ، توجد مجموعة من المنازل المتداخلة على حافة تل . كما يوجد على شاطئ النهر جناحان جميلان كل منهما سداسى الشكل ومزدان بأعمدة كورنثية وأسقف مائلة مزدانة بزخارف نباتية . تصل بين هذين الجناحين شرفة مزدانة بدرابزين ، كما يتصلان بمبنى فاخر مكون من طابقين لإعطاء صورة عن قبة كنيسة يوحنا المعمدان بمدينة سالونيك الإغريقية كما توجد مجموعة من المنازل أكثرها ارتفاعاً قد يعلوها صليب .

رسمت هذه اللوحة لتخليد ذكرى أحد أحياء دمشق القديمة حيث يجتاز أحد الجسور رافدا من روافد نهر بردى .

وبالإضافة إلى المهارة الفائقة التي تميزت بها تلك اللوحة حيث نفذت بصورة أكثر تلقائية وعفوية من تلك التي رسمت في قبة الصخرة ، فإن الشعور العميق بالطبيعة نابع من التقليد اليوناني وأحياء بدون شك منظر حدائق ويساتين الغوطة وقراها . وقد أضفت الفسيفساء بألوانها وصبغاتنا الحية طابعاً شعرياً وفناً رقيقاً في توزيع الألوان بدرجاته المتعددة .

وقد قام فنانون بيزنطيون بتنفيذ لصق وتوزيع الفسيفساء ، ورسم الصور الخاصة به وذلك بناء على أمر من الخليفة وأغلبها مأخوذ من التقاليد القديمة أو من الغساسنة . وكان الفنانون المختصون بالفسيفساء ينهلون من الرسم المسيحي في القسطنطينية ، إلا أن هذا الفن اختفى الآن وحل محله الفن المستخدم في مدن الإمبراطورية الإسلامية ، حيث ساد الفن القائم على الطبيعة وما بها من أشجار مورقة ومثمرة . وصارت كالزمرد المزروع في أرض مغطاة بالذهب الصافي . وتقع عينيك على أشجار مثمرة يخيل إليك أن ثمارها قد نضجت وحن قطفها .

كما كان هناك الرسم البارز . وفي القرن الثالث عشر تمت عدة إصلاحات وترميمات في عهد السلطان المملوكي بيبرس خاصة في الجزء الأيمن من اللوحة .

تطور فن الزخرفة الإسلامي وأصبح على هيئة تشبيك زهري . ومنذ بداية الإسلام سواء في المدن التي دخلها الإسلام أو المدن التي أنشئت حديثاً كالكوكة والبصرة والوسيط والفسطاط أصبح المسجد بمعناه الحرفي المكان الذي يسجد فيه المسلمون .

فالمسجد في الأصل عبارة عن مبنى يرتبط بالطراز الأساسي نفسه . صحن كبير يغطي جزء منه للحماية من أشعة الشمس ويسمى (الظلّة) ويستخدمه المسلمون لأداء الصلاة ويكون مفتوحاً للتهوية . يقام الصحن إما على دعائم أو أعمدة . ولم تستمر طويلاً المساجد البدائية ولا نعرف عنها شيئاً إلا من خلال النصوص التي كتبت .

وفى القرن الثانى عشر زار ابن جبير مسجد الكوفة وأعطى وصفاً مختصراً عنه :
"بحار المرء ولا يستطيع أن يركز بصره على ارتفاع الأعمدة . ولا أعرف أبداً فى الكرة
الأرضية مسجداً أعمدته بهذا الارتفاع الشاهق أو سقفاً بهذا العلو " .

وبالإضافة إلى أن المساجد مخصصة للعبادة والصلاة ، إلا أنها كانت أيضاً
من الأماكن التى تناقش فيها الشؤون السياسية والعسكرية حيث تمت فيها
احتفالات تنصيب الخليفة والحكام ويُقسم فيها يمين الولاء . كما كانت تعقد فيه
الندوات واللقاءات .

وذكر أبو البقا أن "الصحن كان مكاناً يجتمع فيه سكان المدينة كل مساء وأيضاً
للتنزه . وقد شوهد الناس يأتون ويخرجون من باب جيرون إلى باب البريد ، ولا يتركون
هذا المكان قبل منتصف الليل " .

وهذا النموذج المثالى للمسجد والذى يرجع أصله إلى منزل الرسول
(صلى الله عليه وسلم) فى المدينة ، إنما ينسب بصفة عامة إلى القاعات الكبرى الأثرية
للمعابد فى مصر القديمة أو بلاد فارس ، وسوف يتطور هذا النموذج نحو الإثراء
والاختلاف الواضح للأماكن .

فقد ذكر ابن الفقيه أنه ظهرت المقصورة داخل المسجد وأن معاوية نسب إليه أنه
حوّل السلطة الروحية إلى ملك أى نوع من الملكية المؤقتة حيث إنه أول من وافق على
هذا النظام داخل مسجد الصحابة وفى الوقت نفسه أدخل الشرطة والحرس والأغوات
لدواعى الأمن . وقد أكد ابن خلدون هذا التجديد الذى يميز الخلفاء عن عامة الشعب
من المصلين " ولم يكن ابن خلدون على وفاق مع معاوية فى هذا الصدد واعتبره أول من
أدخل كرسي العرش داخل المسجد وذلك لبدانته أو كنوع من التفاخر وقد مات ثلاثة من
الخلفاء الراشدين الأربعة مقتولين . وقد نجا معاوية فترة قصيرة من محاولة اغتياله .
وبخلاف المقصورة ذكر ابن جبير أنه كان يوجد باب حديدى بجوار محراب الصحابة " .
يتمكن من خلاله معاوية من المرور للوصول إلى المقصورة . وقد حدد أبو البقا ثلاثة

داخل صحن الصلاة : واحدا لمعاوية وهو الأول والثانى جهة الغرب وقد بناه الوليد
والثالث فى المكان الذى كان الحنفيون يجتمعون فيه للتدريب .

يعتبر مسجد الوليد أقدم مسجد تمت المحافظة عليه باستثناء المسجد الأقصى
بالقدس ذلك أنه أول مسجد بنى فى سوريا ، فبالإضافة إلى اتخاذه مكاناً للعبادة أدخل
تطويراً مهماً فى طبيعة السلطة الإسلامية ، فالمحور الطولى للصحن المخصص للصلاة
جعل المصلين يقفون فى صفوف متوازية أمام القبلة الموجهة نحو مكة . غير أن الملاحظ
أن المهندس المعماري الذى بنى المسجد جاء أصلاً من العاصمة البيزنطية . فالمبنى به
أكثر من سمة توضح التأثير بالعمارة المسيحية : الصحن الثلاثة المتوازية وصف
الأعمدة الخارجية والمكان المخصص للمصلين والذى ينتهى بباب خارجى بثلاث فتحات
كما فى الكنائس ، والواجهة والقبّة . ولكن كل هذه العوامل تم تحديدها حسب تركيب
جديد ومواصفات خاصة غيرت من المعنى الأصلي لما كان فى الكنائس ، فمن ناحية :
الفراغات الكبيرة الثلاثة المغطاة أصبحت على ارتفاع موحد واتساع متساو وفى هذه
الحالة لم تعد تشبه المدخل والقاعة الكبيرة الموجودة فى الكنائس وكذلك جوانبها
المنخفضة ، كما أن الصحن المركزى ليس جناحاً على هيئة صليب كما فى الكنائس لأن
المحراب الذى يمتد ليس صدر كنيسة هزيل وكذلك المذنة ليست برجاً يوضع فيه
جرس ، وبرغم وجود الصحن المركزى الذى يتجه نحو المجموع الرمزي والزخرفي
للمسجد ، فإن المحراب والمنبر والمقصورة والقبّة لا تحدث أى عائق وتتم الصلاة فى
صفوف متوازية متجهة نحو القبلة .

ومع ذلك فإن أغلب الزوار ورجال الآثار الأوروبيين قد خدعوا بالتشابه الشكلي
وبالتفسير الخاطئ لمقولة ابن عساكر الذى كان يدعى فيها حتى بداية القرن العشرين
أن مسجد الوليد لم يكن سوى كنيسة يوحنا المعمدان . وقد ذكر ابن عساكر أنه فى
القرن الثامن كان المتبع عند حدوث الغزو أن تقتسم الكنيسة بين المسلمين والمسيحيين .
واستنتج من ذكر أن الوليد ربما يكون قد استولى على النصف الثانى من المبنى
المنسوب إلى تيودوز . كان التقسيم سليماً تماماً بشرط أن يشمل السور الداخلى

للمعبد وليس الكنيسة نفسها . وكان ابن عساكر منطقياً تماماً عندما أضاف أن الوليد " أمر بهدم الكنيسة واستخدام موادها للمسجد " .

وفى القرن الثامن عشر زار الرحالة البريطاني ريتشارد بوكوك ولم يفعل سوى ملاحظة الأماكن وكان أول شخص يثير الشكوك .

وكان لابد من الانتظار حتى عام ١٨٧٢ لنفى تلك الشكوك نفيًا تاماً ، كتب أوجين ميلشيو يقول : إنها لم تكن سوى كنيسة صغيرة قديمة ولا تقارن بأى حال من الأحوال بطراز المساجد الموجودة فى القاهرة .

ثم جاءت اللحظة الحاسمة فى تطور الطراز المعماري عندما أكد المستشرق الفرنسى جان سوفاجيه أن "مسجد الوليد يعتبر تحفة معمارية فى جميع الأزمنة والعصور ، وليس له مثيل فى أى بلد من بلدان العالم " .

عندما أراد عبدالرحمن الأول (٧٣١ - ٧٨٨) بناء مسجد فى قرطبة عام ٧٨٦ سعى إلى أن يكون شبيهاً لمسجد دمشق . وفى سورياً أيضاً عندما أسس سليمان بن عبدالملك - شقيق الوليد وخليفته فى الحكم - مسجد حلب كان نسخة من مسجد دمشق فى زخارفه والرخام والفسيفساء وكذلك فإن مسجد قصر الحى الشرقى وهو أحد القصور الأموية فى ص حراء الشام والذى كان مخصصاً للحنابلة فى الصالحية إحدى ضواحي دمشق ، اقتبست خطوطه الرئيسية من مسجد دمشق .

ويسبب سعته وضخامته وقدم بعض أجزائه الأصلية التى ضاعت عبر التاريخ وانمحت من ذاكرة المعاصرين ، فإن مسجد الوليد احتل مكانة خاصة فى خيال المسلمين وفى قدرة الإسلام المبدعة . ويقال إن أول من وضع جداره القبلى هود عليه السلام من قوم عاد . وفى أثر أنه يعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

وأحياناً أخرى ينسب هذا الجدار إلى الصابئة حيث يقال إن قبة النسر تنسب أيضاً إليهم . كما أن باب جيرون الذى يعرفه المسلمون بالباب الشرقى غير معروف

مصدره . وذكر المسعودى أن شخصاً مجهولاً يدعى جيرون بن سعد بن عاد جاء إلى الشام وأسس عاصمتها دمشق بعد أن جمع عدداً من الأعمدة الرخامية وشيد قصره " إرم ذات العماد " المذكورة في القرآن الكريم . وقد وصف الشاعر كعب الأحبار المبنى قائلاً : " بناية رائعة مغطاة بالذهب والفضة ومملوءة بالمسك والطيب " .

وفي القرن التاسع كتب ابن خرداذبة أن " دمشق التي كانت تسمى ذات العماد ، كانت توجد قبل نوح عليه السلام " . وقد أضاف ابن الفقيه معلومة عقدت الأمور وزادت من الغموض وذلك عند ربط وفرة الأعمدة الموجودة في دمشق بأسطورة سيدنا سليمان قائلاً : " عند باب دمشق يرتفع الجيرون وهو أحد الإنشاءات التي شيدها سليمان بن داود وهو عبارة عن مغارة ممتدة تستقر على أعمدة تمتد حولها المدينة " . وهكذا يمكن القول أن جيرون هو الاسم الذي أعطى لمعبد أثرى بأعمدته وأبوابه وهو ما أكدته الدمشقي بأن دمشق كان يطلق عليها سابقاً " ذات العماد " . ويقال إن مسجد دمشق كان في الأصل معبد جوبيتر الذي بناه جيرون بن سعد بن عاد .

ذكر المسعودى أنه أثناء عملية بناء المسجد تم العثور على شاهد قبر وعليه كتابة باليونانية لم يتمكن اليهود أو النصارى من فك رموزها .

وفي النهاية أمكن معرفتها : كتابة من عصر سليمان أوضحت مدى ربط المعبد القديم بالملكة اليهودية التي أضفى عليها القرآن الكريم عظمة وإجلالا وإعادة الصلة المقطوعة بالماضي وإظهار أن الإسلام ينسب إليه فضل معرفة تاريخ البشرية .

روى الحافظ بن عساكر عن زيد بن واقد قال : " رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير كأنما قتل الساعة " . وذكر في بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعمود السكسكة . وفي القرن الثاني عشر ذكر ابن جبير أنه في شمال باب جيرون " ارتفع بناء كبير كان به رأس الحسين

قبل أن ينقل إلى القاهرة " واليوم عبارة عن مشهد يمكن الوصول إليه عبر باب موجود تحت الباب الشرقي لصحن المسجد وبه متعلقات شهيد كربلاء .

كان مسجد الوليد أيضاً بمثابة مركز للحياة السياسية ومكان للعبادة والتزهد وأيضاً لتلقى العلم وكتب ابن جبير : " كان يضم عددا من "الزوايا" يتردد عليها المثقفون لنسخ الكتب لإلقاء الدرس أو للابتعاد عن الجمهور .

وبصفة عامة ظل المسجد المكان الوحيد للتعليم حتى القرن الثاني عشر حيث نشأت المدرسة .

عندما توفي الوليد كان شقيقه سليمان في فلسطين حيث كان حاكماً في مدينة الرملة التي أسسها واتخذها عاصمة . وأنزل نقمته على كل من وافق الوليد على عزله فعزل محمد بن القاسم ثم قتله . أما قتيبة فقد أعلن العصيان لكنه قتل أيضاً . كما انتقم أيضاً من موسى بن نصير . لم يقيم سليمان بفتوحات واسعة عدا فتح جرجان وطبرستان على يد يزيد بن المهلب . وأهم أعماله غزو القسطنطينية حيث حاصرت جيوشه ممرية ثم القسطنطينية عاما كاملاً بقيادة مسلمة بن عبد الملك . ويرجع سبب فشل الحملة لأسباب عدة منها شدة الشتاء وعدم إمداد سليمان لها ومناعة أسوار القسطنطينية . في الوقت نفسه زادت حدة الانقسام في الدولة الأموية باختفاء الحجاج الرجل المخلص ذو القبضة الحديدية ، وزادت المؤامرات ولم تتوقف في شتى أنحاء إيران وناصبوا السوريين العداء والكراهية وبدأت حركة ضخمة تبرز في الشرق لصالح العباسيين وتضع حداً في أقل من نصف قرن للدولة الأموية . وفي عهد سليمان ، زاد نفوذ رجال الدين وتدخلوا في الشؤون السياسية مما سهل مجيء عمر بن عبدالعزيز ابن عمه . وذكر المسعودي أن سليمان كان " ميالاً لحب الشهوات بصورة تخطت كل الحدود " . وأكد الطبري " عشقه للنساء وحبه للملذات والولائم " . توفي سليمان في أكتوبر عام ٧١٧ في دابق بشمال سوريا .

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة على الرغم من معارضة يزيد وهشام أبناء عبد الملك . كان عمر قبل توليته الخلافة والياً على المدينة ، ويتصل نسبه من جهة أمه

بعمر بن الخطاب وشابيه فى زهده وعدله . ما كاد عمر يتولى الخلافة حتى أمر بعودة الجيوش الإسلامية المحاصرة للقسطنطينية .

كوّن عمر مجلسا استشاريا وعمل على إزالة المظالم ونال عطف الشيعة لأنه منع السب على المناابر وبالأذات اسم على . وفى عهده بدأت الدعوة العباسية ، واستمال النصرارى لأنه عوضهم عن كنيسة القديس يوحنا المعمدان التى أدخلها الوليد فى الجامع الأموى وخفف الجزية المفروضة على قبرص وأيلة وسامى بين الموالى والمسلمين فى الحقوق ، كما ألقى ضريبة الرؤوس التى فرضها الحجاج على من أسلم من أهل الذمة لمعارضتها للدين . مات عمر فى فبراير عام ٧٢٠ وعمره ٣٩ سنة ويقال إن الأمويين سموه لشدته عليهم .

تولى يزيد الثانى الحكم وكان أيضا ميالا إلى الصحراء والصيد وأقام فى البلقاء شرق الأردن . وذكر المسعودى أنه أدمن شرب الخمر واتجه إلى حياة المجون والفسق . قضى يزيد على جميع الإصلاحات التى أقامها عمر وضيق على النصرارى وترك شئون الدولة . وفى عهده ثار يزيد بن المهلب الذى فر إلى البصرة حيث حرض قبيلة الأزديين على مناصرته ضد الخليفة وانضمت إليه فارس وكرمان واستولى على البصرة والأهواز فأرسل الخليفة أخاه مسلما فهزمه ثم قتله وفر آل المهلب إلى كرمان فتعقبهم الأمويون وقتلوهم . ولكن هذه المعارك أدت إلى عداة اليمنيين للدولة الأموية مما أضعفها . مات يزيد الثانى فى ٢٦ يناير عام ٧٢٤ وعمره أربعون عاما .

هشام بن عبدالمك : كانت الدولة العربية قبيل توليه الخلافة فى حالة ضعف ، إذ كان الترك يهاجمون خراسان وهاجم الخزر أنزريجان وأرمينيا وهجم الروم على الثغور الإسلامية إلى جانب النزاع الشديد بين المضربين واليمنيين . واستطاع هشام أن ينقذ الدولة من هذه الأخطاء فسمى المؤسس الثالث للدولة . وذكر المسعودى أن طباعه كانت عنيفة وفظة وجافة ، وكان شرها لجمع المال . شجع صناعة الملابس والسجاد والأسلحة وعمل على تقوية الحدود وحفر عدة قنوات وأبار على طريق الحج . وفى دمشق وجه

عناية إلى أعمال الري وأقام في الرصافة على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات واتخذها عاصمة له .

ثارت الخوارج الصفرية في شمال أفريقية وانضم إليهم البربر وهاجموا القيروان فهاجمهم ابن حبيب بجيش صغير من أشراف العرب فأبادوه وتمردت قبائل إفريقية والأندلس فولى هشام كلثوم بن عياض ، لكنه فشل في إخضاع الثورة فولى هشام حنظلة بن صفوان فدخل القيروان وهزم الخوارج والبربر .

وفي الأندلس اختار الجند عبد الرحمن الغافقى أميرا فظل واليا حتى ولى هشام عنبسة بن شحيم الكلبى ، فاجتاز جبال البرانس واحتل كركسون لكنه قتل . وبمقتله بدأ الاضطراب في الأندلس وقوى الثوار الإسبان في الجبال ، وزاد الحال سوءاً العصبية القبلية بين العرب ووحشية البربر في معاملة السكان الأصليين والفوضى الناتجة عن عزل الولاة . وظلت الحالة على هذا المنوال حتى ولى الأندلس عبد الرحمن الغافقى فأعاد الأمن والهدوء وأراد الثأر لهزيمة تولوز ، فعبر البرانس واحتل إرن على نهر الرون ثم بورديو وهزم دون أكتين وفتح نصف جنوب فرنسا واستنجد الدوق بشارل مارتل الذى حشد جيشا ضخما هزم به عبدالرحمن بين تولوز وبواتييه . وكانت تلك المعركة فاصلة في التاريخ الإسلامى إذ نتج عنها وقف التوسع العربى فى أوروبا وبقاء المسيحية .

وفي الكوفة قامت الثورة الشيعية الأولى عام ٧٤٠ بقيادة زيد بن على بن الحسين . يطالب بالخلافة فأسرع العراقيون إلى بيعته إلا أنهم خذلوه في قتاله مع الأمويين فقتل وفر ابنه يحيى إلى خراسان حيث بذر بذور الثورة .

وفي دمشق وفي العام نفسه ثار العراقيون وأشعلوا حرائق في عدة أحياء من المدينة .

توفى هشام بن عبدالملك في الرصافة في فبراير عام ٧٤٣ ، وكان قد تنازل عن الحكم إلى الوليد بن يزيد بن عبدالملك . كان هشام يكره الوليد الثانى لفسقه وفجوره .

وقد فكر هشام في خلعه لكن المنية عاجلته وآلت الخلافة إليه لكنه انغمس في الملذات واللهو وطرد أسرة هشام من دمشق مما أوغر صدور الأمويين عليه .

أغضب الوليد بسوء تصرفاته جميع رعاياه وخاصة الأمويين اليمنيين فاتصل زعماء اليمنيين بيزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان تقيا وبإيعوه بالخلافة وانتهى القتال بين الخليفتين بمصرع الوليد في ٢٧ أبريل ٧٤٤ ، وكان مصرعه إيذانا بسقوط الدولة الأموية إذ انتشرت دعوة الخوارج كما فقد الأمويون هيبته لانقسامهم .

لم يبق يزيد بن الوليد بن عبد الملك أكثر من ستة أشهر في الحكم حيث مات مسموما على يد أخيه إبراهيم ، وبدأت حرب أهلية حقيقية في سوريا حيث لم يتجاوز سلطانه دمشق وضواحيها ، ولم يدم حكمه أكثر من شهرين إذ لم يعترف بخلافته مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينيا ، كما لم يعترف من قبل بخلافة أخيه يزيد الثالث فتقدم بجيش كبير مطالبا في الظاهر بحق أبناء الوليد في الخلافة فاحتل قنسرين وحمص وزحف نحو دمشق ، فقابله جيش إبراهيم بقيادة سليمان بن هشام شمالي دمشق فانتصر مروان وتراجع سليمان وقتل ولدى الوليد الثاني ونهب أموال الدولة وهرب فتقدم مروان ، ودخل دمشق وأخذ بيعة أهلها بل بايعه إبراهيم نفسه . كان مروان بن محمد بن مروان أو مروان الثاني واليا على الجزيرة وأرمينيا قبل توليه الخلافة اتخذ مروان حوران عاصمة له ليكون قريبا من أنصاره القيسيين فأغضب بذلك قبيلة كلب في سوريا .

وفي العراق عمل على سحق ثورة الخوارج . اتحدت بعد ذلك سوريا والعراق ومصر والجزيرة العربية . ولكن في يونيو عام ٧٤٧ انفجرت ثورة في خراسان بقيادة أبي العباس وشقيقه جعفر زعماء الدعوة العباسية . يرجع نسب أبي العباس إلى العباس عم النبي (عليه الصلاة والسلام) . وقد عرف العباسيون كيف يواجهون السخط لصالحهم .

في خراسان : شغلت الثورات المستمرة في الشام والعراق مروان عما يحدث في خراسان . وقد كتب إليه عامله فيها نصر بن سيار يطلب النجدة للقضاء على الدعوة

العباسية قبل أن تستفحل لكن مروان لم يستطع إنجاده وتمكن أبو مسلم من استمالة اليمنيين ومسلمي فارس وأن يحتل مرو عاصمة خراسان واستطاع قائده قحطبة بن شبيب الطائي أن يفتح فارس ويذم يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق وتمكن دعاة العباسيين من احتلال العراق والبيعة لعبد الله العباسي بالخلافة في الكوفة وجمع مروان جيشا تقدم به إلى العراق فقابلته العباسيون بقيادة عبدالله بن علي فهزموه في معركة الزاب الأعلى فهرب إلى فلسطين ثم مصر حيث لاحقه صالح بن علي وقتله في قرية «أبو صير» بصعيد مصر فتم القضاء على الدولة الأموية .

وحسب التقاليد التي كانت سائدة في ذلك العصر أرسلت رأس الخليفة إلى أبي العباس . قام أبو العباس بذبح جميع الأمراء الأمويين بدم بارد ولم ينج من تلك المذبحة سوى عبد الرحمن بن معاوية حفيد هشام الذي هرب إلى الأندلس حيث أسس إمارة قرطبة عام ٧٥٦ وتدفق عليها السوريون .

الفصل الثاني

العباسيون والسلاجقة

أحدثت الثورة العباسية منعطفًا حاسمًا في تطور العالم الإسلامي . فالدولة الأموية كانت من دول البحر المتوسط التي يغلب عليها الطابع العربي وتأثرت بالنفوذ اليوناني كما كانت قريبة من العالم البيزنطي حيث أبقت على نظامها الإداري . أما الدولة الجديدة فعلى التقيض من ذلك ، إذ اقتربت من تقاليد الغساسنة وحولت الأهمية الاقتصادية للبحر المتوسط إلى آسيا وعملت على مسح العنصر العربي بالتدريج لصالح الإيرانيين أولاً ثم لصالح شعب يعيش في آسيا الوسطى وهم الأتراك . نقل مركز الجاذبية للإمبراطورية نحو الشرق ، إلى الكوفة أولاً ثم بغداد التي تأسست عام ٧٦٢ على يد الخليفة المنصور شقيق العباس ووريثه في الخلافة . فقد الشام وضعه الرئيسي في قلب الإمبراطورية لكنه ظل كإقليم يتوسط بين العراق والولايات الغربية وميدان مواجهة مستمرة مع العدو وهو الدولة البيزنطية . وتحولت دمشق إلى مجرد عاصمة إقليمية .

وأثناء حكم الخلفاء العباسيين الأربعة الأول : أبو العباس (٧٥٠ - ٧٥٤) ، والمنصور (٧٥٤ - ٧٧٥) ، والمهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) ، والهادي (٧٨٥ - ٧٨٦) ظل الشام مقسماً إلى سبع دوائر إدارية ومالية : الجند ، وخمس دوائر من أيام العصر الأموي وهي قيناسرين وحمص ودمشق وفلسطين والأردن ثم أضيفت دائرة سابعة في الشمال الشرقي هي الجزيرة والنوصل . وفي عهد هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)

أضيفت دائرة ثامنة هي العواصم . ونظرا لأن دمشق كانت تحتل مكانة عظيمة في العصر الأموي فقد حرصت بغداد على إرسال موظفين لها على أعلى درجة من الكفاءة . وكان الحكام الأوائل والقادة العسكريون من أفراد الأسرة العباسية . وابتداء من عهد هارون الرشيد زادت العناصر غير العربية من الفرس . وفي عهد الخليفة الواثق (٨٤٢-٨٤٧) جاء الأتراك . وقد حضر المنصور مرتين إلى دمشق عندما تولى الحكم . كما قام الخليفة المهدي بجولة تفتيشية إلى الشام وواصل مسيرته إلى المناطق الشمالية وأسس قاعدة عسكرية في الرقة على نهر الفرات . وفي عهده قام شخص يدعى السفيناني مدعيا أنه أموي بعصيان وتمرد وسأنده القيسيون . ولكن الرشيد كان يعتبر الشام مقربا إلى قلبه . أما المأمون فكان أكثر الخلفاء العباسيين تعلقا بدمشق وقال في إحدى المرات : " إنه لأمر يدعو للدهشة الشديدة أن يتمكن المرء من العيش خارج دمشق ، فكيف يعيش الإنسان سعيدا وهو بعيد عن تلك المناظر الرائعة التي لا يوجد لها مثيل في أى مكان آخر " . وفي رأيه أن أشجار الغوطة كانت " الأكثر جمالا ووفرة على سطح الأرض " ، وعندما حضر الخليفة المتوكل إلى دمشق عام ٨٥٨ ، أقام بها فترة قصيرة " بسبب الجو الثقيل والرطوبة العالية غير الصحية " واستقر في المرتفعات في قصر المأمون .

في عام ٨٥٤ لقي حاكم دمشق حتفه على أثر انقلاب عنيف ولكن قوات الخليفة وصلت وأعادت الأمور إلى نصابها . وبعد أربع سنوات فكر الخليفة المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) في نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق وأعدت القصور لاستقباله هو وحاشيته والمتقنين والعلماء المرافقين له . لكن إقامته لم تدم أكثر من ثمانية وثلاثين يوما واضطر للعودة إلى العراق لوضع حد للفوضى التي نشأت من حرسه التركي .

أضفى طول عهد خلافة المأمون أهمية كبرى في تاريخ الإسلام . فكانت بغداد مركزا كبيرا للحياة الثقافية للإمبراطورية في مجالات الفلسفة والأدب والعلوم . وبلغت الحماسة الفكرية أوجها حتى إن الخليفة ذكر أن أرسطو جاءه في المنام ويأمره بأن

يترجم مؤلفاته إلى العربية . وقامت حركة قوية نحو الترجمة شجعها الحكام والمتقفون حيث اهتموا بإحياء مؤلفات أفلاطون وأرسطو وغيرهما وأنشئ " بيت الحكمة " فى بغداد لإكمال ترجمة المؤلفات اليونانية من الأصول .

نشأ فى البصرة فى أواخر العصر الأموي تيار فكرى لم يلبث أن صار المدرسة الأكثر أهمية فى الأمور العقائدية ، وهم المعتزلة الذين كانوا شيعة معتدلين فشاركوا الشيعة فى وقوفهم فى وجه الأمويين واعترفوا بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة وإن كانت المعتزلة قد عملت على إسقاط الدولة الأموية إلا أنهم لم يقدموا على ذلك لإحلال ذرية على محلهم لكن لإحلال العباسيين . أما المسائل التى كانت موضع شك وأحدثت صراعاً عميقاً فى التاريخ الإسلامى عندما أثار المعتزلة مواضيع للمناقشة منها :

رؤية الله يوم القيامة وموضوع خلق القرآن أو عدم خلقه وأنه أخذ من كتاب محفوظ فى سر مغلوق منذ الأزل . ولأسباب سياسية ودينية اعتنق بعض خلفاء العصر العباسى الأول مذهبهم كالمؤمن والمعتصم والواثق وحاولوا جعله مذهباً رسمياً للدولة . ولكن ظهرت حركة معارضة شديدة ضد المعتزلة تزعمها أحمد بن حنبل وهو آخر الأئمة الأربعة مؤسس المدارس السنية القائمة حتى يومنا هذا . فقد رفض بإصرار الخضوع لمذهب مناهض للقرآن والسنة النبوية . وقد وجد مذهب أحمد بن حنبل مؤيدين له فى الشام خاصة فى الأوساط الشعبية حيث عارض القبول المطلق لجميع العلوم النظرية المتضاربة بما فى ذلك علم الكلام ، بل يجب على المؤمن أن يمثل ويخضع فى خضوع ويساطة إلى المعنى الواضح لكلام الله الخالد وللتفسير الذى جاء على لسان نبيه الكريم .

كانت بغداد مركزاً سياسياً وثقافياً ودينياً فى ذلك العصر كما كانت أيضاً أكبر مدينة فى العالم . وكتب اليعقوبى قائلاً إنها " قلب العراق وسرة الأرض وهى المدينة التى لا يوجد لها مثل لا فى الشرق ولا فى الغرب " ، عاصمة إمبراطورية تمتد من المحيط الأطلنطى إلى الصين ، ومساحتها أربعة أضعاف مساحة القسطنطينية وعدد سكانها حوالى المليون نسمة وحماماتها ومساجدها وآثارها تعد بالآلاف .

كانت بابل الجديدة مركزا رئيسيا لشبكة تجارية ضخمة تمتد فروعها إلى أركان العالم الأربعة . وبسبب معرفتهم عدة لغات : اليونانية واللاتينية والعربية واللغات الإسبانية والسلافية فقد كانت الخدمات تتم على أكمل وجه وكان اليهود هم الذين يقومون بذلك . فكانوا يتحركون من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب أحيانا بالبر وأحيانا أخرى بالبحر . فمن الغرب كانوا يجلبون " أغوات وعبيد ! - من النساء والأولاد - والحرير والجلود والفراء والسيوف " ووصلوا إلى السند والهند والصين سواء عن طريق قلزم "السويس حاليا " وجدة والبحر الأحمر أو عن طريق بغداد وعمّان حيث يجلبون المسك والصبر والكافور والقرفة ومنتجات شرقية أخرى . " وكان التجار الروس يأتون إلى بغداد ومعهم جلود وفراء القندس والثعالب والسيوف " . أما التجار الفرنجة فكانوا يصلون عن طريق المغرب ومصر إلى الرملة والكوفة وبغداد والبصرة .

وفى عهد المأمون ازداد دور الإيرانيين فى الحياة السياسية وظهرت اتجاهات للحكم الذاتى فى محيط الإمبراطورية . وفى الشرق ظهرت أولا فى خراسان دولة التهريدىس التى أسسها قائد فارس استقلت عن الخليفة ثم تبعها سيجستان وسفاريذ وسمانيد . وفى الغرب كان الأمويون فى إسبانيا وأفريقيا الشمالية والفاطميون تصدعت كل أجزاء البناء وتضاعف عدد الإمارات المحلية حتى إنه فى القرن العاشر ، كان هناك ثلاثة من الخلفاء ينافسون بعضهم : فى بغداد والقاهرة وقرطبة . وقد حرم هذا التمزق فى السلطة الخلافة من إيرادات الأقاليم وازدادت الفوضى المالية بشكل خطير ، حتى إن الخلفاء عالجوا الأمر بصورة سيئة .

وبعد أن كان الخلفاء يعتمدون فى مساندتهم على الإيرانيين ابتداء من عهد المعتصم (٨٢٣-٨٤٢) ، فإنهم بدأوا يعينون الأتراك مرتزقة لحراستهم الشخصية لما لمسوه فيهم من مهارة وكفاءة حربية وإخلاص . وبالتدريج أخذ الأتراك السلطة السياسية والحربية للإسلام فى أيديهم واستمر هذا النفوذ حتى بداية العصر الحديث . ولا يعنى ذلك نهاية الهيمنة السياسية والحربية للعرب . وقد وصفهم ميشيل الشامى قائلا : " عندما تحرك الأتراك وخرجوا إذا بهم يملأون الأرض ويغطونها " . وقبلوا

الديانة التي جاء بها محمد واتحدوا مع العرب وكونوا شعبا واحدا وقبل المسلمون من سياى من الأتراك ليحكم ونادوا به " أمير المسلمين " وعلى هذا الشرط أصبح زعيمهم الدينى الذى أطلقوا عليه اسم خليفة بمثابة ملك .

صاحب هذا الانهيار فى الخلافة العباسية صحوة فى الغرب ، صحوة عسكرية أولا مع محاولات غزو ينسفور وفوكاس فى شمال الشام ثم صحوة تجارية مع ازدهار الموانئ الإيطالية مثل البندقية وأمالفى . وفى نهاية القرن العاشر لم تعد بغداد سوى ظل . وكتب ابن حوقل يقول " إن أغلب الأحياء قد أصابها الضعف وهجرها السكان وخربت معظم البنايات . وظهرت عاصمة أخرى جديدة فسطاط - القاهرة عاصمة الخليفة الفاطمى المنافس وهى " مدينة كبيرة وغاية فى الجمال " ومزدهمة بالسكان وأرضها خصبة وبها أسواق عديدة ومراكز تجارية مهمة وأراض شاسعة يملكها الناس ، حدائقها مزهرة ومنتزهاتها خضراء دائما فى جميع الفصول " وذكر المقدسى قائلا : فسطاط المصرية اليوم هى بغداد الأمس .

وفى عام ٨٦١ تم اغتيال الخليفة المتوكل الذى قاد حملة رهيبة ضد المعتزلة . وباغتياله بدأت فترة جديدة من الاضطرابات وبدأت الدولة تسير بخطى سريعة نحو الانهيار . وشهدت فى أقل من عشر سنوات مجىء أربعة خلفاء ، بينما فى مصر كان هناك ضابط تركى يدعى أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤) تولى أمر مصر بقوة واقتدار . ولم تلبث هذه الولاية أن أصبحت مستقلة بالفعل عن الخلافة ، واستمر حكم الطولونيين لمدة ربع قرن تناوب فيها خمسة حكام حتى عام ٩٠٥ . وفى عام ٨٧٨ تعرضت حدود الشام لهجمات البيزنطيين فهب أحمد بن طولون لنجدتهم . كانت الفترة الأولى من هذا العهد فترة ازدهرت فيها مصر ازدهارا كبيرا . ولا ينطبق هذا القول تماما على بلاد الشام لأنها كانت أكثر من مصر تعرضا لهجمات الأعداء . أما دمشق فكان يتبعها خمسة موانئ : صيدا وبيروت وطرابلس وعرقا وصور ، وارتفع الخراج فيها إلى أربعمئة ألف دينار وذلك لوفرة مياهها ورخائها الشديد .

وفى عام ٨٨٦ عقد خمارويه بن أحمد بن طولون معاهدة مع الخليفة المعتمد يدفع بموجبها إتاوة سنوية مقدارها ثلاثمائة ألف دينار مقابل الاعتراف بسلطته على مصر والشام والجزيرة ماعدا الموصل .

ولم يمنع حكم الطولونيين من حدوث فترة من الاضطرابات السياسية فى الشام استمرت لعدة قرون تعرض فيها لتقسيم الحدود ومعارضات عقائدية وثورات عدة ووصول غزاة مثل البيزنطيين والصليبيين والمغول . وابتداء من القرن العاشر أقل نجم الطولونيين واقتربت هذه الفترة الثانية من حكمهم بغارات مخربة شنها القرامطة الذين كانوا دائبين على الظهور عند أبواب دمشق منذ عام ٩٠٣ واحتلت حمص وحماة ومعة النعمان وبعليك والسلمية وذبح سكانها ، وقضى جنود الخليفة عليهم ، ثم قضى هؤلاء الجنود على الحكم الطولونى بعد ذلك .

جاء الإخشيد وحكم مصر عام ٩٢٥ ، وكان له فى مصر والشام ما كان للطولونيين من شأن . وقد كانت الشام دائماً ولاية تحف بها المخاطر . وانهار الإخشيديون آخر الأمر أمام دولة كانت هى أيضاً تناضل فى سبيل الحصول على اللقب الدينى الذى كان يحمله الخليفة المجرى من أى سلطة ، ذلك أن دولة الفاطميين الشيعة كانت منذ أمد بعيد متأهبة للانقضاض على مصر .

فى ٢٥ نوفمبر عام ٩٦٩ غادر القاهرة جيش فاطمى بقيادة جعفر بن فلاح وهو ملازم لدى الجنرال جوهر بهدف التوجه لبغداد للقضاء على الخليفة العباسى ، وكانت القاهرة قد أنشئت حديثاً مكان الفسطاط القديمة . إلا أن التحالف " ضد الطبيعة " قد ازدهر فى عصر الحروب الصليبية . فالحمدايون بحلب يهتمهم المحافظة على عرشهم ، لذلك فقد طلبوا مساعدة البيزنطيين . وفى ١٧ فبراير ٩٧٠ حقق جعفر النصر على جيش الإخشيديين قرب الرملة ، ثم احتل طبرية حيث عقد اجتماعاً مع أعيان قدموا من دمشق .

وفى يوم السبت ١٤ أكتوبر وصل إلى مشارف المدينة وأقام معسكراً له فى جنوب دمشق فى الشماسية على مسافة غير بعيدة من مسجد القدم . نشبت معركة حامية

الوطيس وشبت الحرائق فى العديد من منازل الضواحي . ونجح المهاجمون فى اقتحام باب الجابية لكن مدنيين مسلحين ردوهم على أعقابهم . وفى أثناء الليل قام من تبقى من جنود الإخشيد وبمساعدة الشعب بتقوية أبواب المدينة وحفر فنادق وإقامة متاريس . وعندما حضر وفد للتفاوض أعرب جعفر عن نيته بحرق المدينة وقتل جميع السكان بالسيف ، ثم عدل عن رأيه بشرط أن تخرج جميع النساء من المدينة بدون حجاب وقد تركن شعورهن تنسدل على وجوههن ويتذللن له وقد تلطخن بالطين ومرغن وجوههن بالتراب . وما إن تمت تلك المهزلة حتى هدا جعفر وأعلن بعدئذ أنه سوف يضمن لهم حياة أمنة ويحمى ممتلكاتهم ، وأنه فى يوم الجمعة التالى سيتوجه إلى الجامع الكبير ليؤم المصلين . وما إن انتهت الصلاة ، إذا بالجنود المغاربة التابعين للجيش الفاطمى والذين وصلوا حديثاً من جبال البربر بأفريقيا ، ينتشرون فى المدينة وينهبون الأسواق .

وقد قتل عدد كبير منهم على أيدي دمشقيين مسلحين . وكان رد الفعل الانتقامى سريعاً وعنيفاً . فقد هدد جعفر مرة أخرى بهدم المدينة ثم عدل عن رأيه وفرض غرامة مالية باهظة . وألقى القبض على القادة وأعدموا وتركوا رؤسهم معلقة على أبواب المدينة ، وجثثهم على المشانق . وقبض على الشريف العباسى ابن أبى العلا وهو الرأس المدبر للمقاومة وكان يعتبر رئيساً للمدينة وأعيد إلى دمشق من تدمر بعد أن هرب إليها ومثل به تمثيلاً فاضحاً ثم اقتيد إلى المعسكر الفاطمى حيث قام أحد الجنود بفعل الفاحشة معه . استولى الجنود الفاطميون على بنايات فى الأحياء الشمالية الغربية من دمشق فى الدكة على نهر يزيد وأقام جعفر لنفسه قصراً بين نهر يزيد ونهر التورة .

تشجع جعفر بالنجاحات التى حققها ، فأرسل جيشاً جهة الشمال ، وبعد أن استولى على حمص ، عبر حدود الدولة الحمدانية وحاصر أنطاكية . واستمر الحصار خمسة أشهر ، ولكن أمام تهديد تحالف مكون من وحدات عديدة من البدو بقيادة القرامطة الذين قاموا بهذا العمل باسم الخليفة ببغداد اضطر إلى العودة إلى دمشق فى يولييه ٩٧٨ .

وفى ٢١ أغسطس هزم الفاطميون وقتل جعفر فى ميدان القتال . وفى ديسمبر وصل القرامطة إلى أبواب القاهرة حيث فوجئوا بمقاومة شرسة من جوهر الذى نجح فى استعادة جزء من جنوب سوريا . استمر الصراع طويلاً بين الفريقين المتحاربين ولم تتمكن الجيوش الفاطمية بقيادة الجنرال أبى محمد إبراهيم بن جعفر من استعادة دمشق إلا فى ١٨ يونية عام ٩٧٤ . إلا أنه فى تلك الفترة ألقى القبض على الشيخ ابن النابلسى المعروف بأرائه المعارضة للفاطميين . وأرسل إلى القاهرة فى قفص خشبى وسلخ حيا فى ميدان عام وحشيت جثته المسلوخة بالقش وظلت فترة طويلة معلقة على إحدى المشائق. وبالنسبة للأسرة الحاكمة التى استقرت بالقاهرة . فقد كانت المدينة بمثابة حاجز إستراتيجى مهم بين طريقين مهمين للغزو : الأول القادم من العراق عن طريق الرهبة وتدمر ، والثانى من شمال سوريا عن طريق حمص . كما كانت أيضاً بمثابة ورقة رابحة من الناحية الدينية لأنها تتحكم فى طريق الحج القادم من شمال سوريا والجزيرة العربية.

ووجد المعز أن الفرصة جاءت عندما عاود القرامطة نهب الشام فاستولى على مصر عام ٩٩٩ وعلى دمشق فى العام نفسه ولكن دمشق خرجت عن طاعته بعد ذلك مباشرة فأخذها القرامطة أولاً ، فلما قضى عليهم عمت الفوضى المدينة وأحرق كثير من أحيائها . وحكم الفاطميون بعد ذلك قرناً لم تكن فيه أسعد حالاً . وقد حدثت فتن وانقلابات كثيرة ومن ضمن أسبابها ما فطر عليه أهل الشام من شغب . وقد أدت إحدى هذه الفتن إلى إحراق المسجد الأموى عام ١٠٦٨ ، كما حدث تبديل للولاية بصورة متكررة ، وفى الفترة من ١٠٠٢ إلى ١٠١١ تغير أكثر من اثنى عشر والياً .

يبدأ تعيين والى بقيام احتفال كبير ويقرأ مرسوم التعيين بصوت عال من فوق منبر الجامع الكبير ويحضر أعيان المدينة والعسكريين ومن بين هؤلاء القاضى الذى يشغل مكانة مرموقة ويعتبر الشخصية المدنية الأولى فى المدينة ولكنه لا يستطيع عزل والى وإنما كبير القضاة المصرى . لم يكن القضاة مؤهلين للقضاء أو لأحكامه

وإنما مجموعة من التجار زادت ثروتهم واحتكوا بقدر يسير بالقوانين واستغلوا ثروتهم فى شراء الوظيفة مما جعلهم متقادين للسلطة التى عينتهم ، كما كان مهمهم الأكبر زيادة ثروتهم دون أى اعتبارات أخرى . أما الوالى العسكرى قائد الحامية فكان مكلفا بمقاومة أى محاولات للغزو من جلبب البيزنطيين أو البوريين أو الحمدانيين وإعادة النظام والأمن فى حالة حدوث فتن أو مؤامرات . كما كان يؤازر جابى الضرائب ويقدم له المساعدة اللازمة ليتمكن من أداء مهمته .

ويعتبر الوالى العسكرى ممثلا للخليفة المقيم بالقاهرة وفى الوقت نفسه رمزا للسلطة الفاطمية فى سوريا . ويحضر صلاة الجمعة فى الجامع الكبير من الأعيان والشيوخ والعلماء ورؤساء العشائر .

أما المحتسب فكان يراقب تطبيق النظم والقوانين الخاصة بالتجارة والعمل . وصاحب الشرطة مكلف بإدارة الأمن والنظام .

وابتداء من عام ١٠٠٢ بدأ الخليفة الفاطمى الحاكم (٩٩٦-١٠٢٠) يبدى إشارات تنم عن جنون وميل لسفك الدماء ويتفاخر بأنه يقلد نيرون وكاليغولا السفاحين وقد أهلك أعداداً غفيرة بالتعذيب الرهيب . وقيل عنه إنه كان يشعر بلذة لا مثيل لها وهو واقف أعلى جبل المقطم يتأمل حريق الفسقاط الذى قامت به قواته بناء على أوامر منه . ولكى يخفف حالة الإحباط والمعاناة لدى السكان السنة بدأ يضايق القبائل العربية المسيحية ، فى الضفة الغربية لنهر الأردن ويضع حدا للوضع المتميز للقبائل اليهودية والمسيحية ؛ إذ أجبرهم على ارتداء حزام أسود ووضع علامة مميزة لكل منهم حول العنق ، كما منعهم من شرب النبيذ حتى أثناء القداس وحرم عليهم السير بموكب الزحف أو حمل الصليب وصادر ممتلكات الكنائس والأديرة وانتهك حرمت المقابر واستبدل الموظفين المسيحيين أو اليهود بمسلمين . وقد أدى هذا الإجراء الأخير إلى خلق صعوبات لأن عدد الموظفين المسيحيين كان ضخماً فى الإدارة الفاطمية ولديهم الكفاءة والمقدرة . فالأطباء والموظفون أغلبهم من المسيحيين ويثق بهم المسلمون لإتقانهم اللغات . أما عن اليهود فقد وصل بعضهم إلى الوظائف العليا فى

الإدارة ، أما الأغلبية فكانت تشغل وظائف متواضعة : صرافون ، دباغون . وفى سبتمبر عام ١٠٠٩ وبناء على أمر مباشر من الخليفة ، دمرت كنيسة القيامة بالقدس وهو الحدث الذى ذكره عدد من المؤرخين الغربيين أنه كان من بين الأسباب التى أدت إلى قيام حروب صليبية . وفى العام نفسه لقيت كنيسة السيدة العذراء بدمشق المصير نفسه .

وعلى المستوى الدينى فإن عهد الحاكم شهد مولد الديانة الدرزية الذى لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الشام . وخلال عام ١٠١٧ تنبأت مجموعة من المبشرين بإمامين : الإمام الأول فارسى : حمزة ، والثانى تركى : دارازى الذى نشر فى القاهرة مذهباً معقداً أخذ من أحد المؤلفات الشرقية القديمة وله صلة بالعقيدة اليهودية ومذهب إدراك الأسرار الربانية والمسيحية ، وكذلك القرآنية . وحسب تلك العقيدة أنه بعد عدة تجسيدات قتالية فى آدم وفى على وفى السلالة الفاطمية ، فإن الإله قد تجسد الآن فى شخص الخليفة الحاكم . ولم يلق هذا المذهب صدقاً كبيراً فى مصر لكنه انتشر بين السكان الجهلة والبسطاء الذين يعيشون فى جبال الشام .

وفى ٢٧ أكتوبر ١٠١٩ وصل إلى دمشق عبد الرحمن بن إلياس والى دمشق الجديد وولى عهد الخليفة الحاكم . وأقيم له استقبال على شرفه بالمزة ولكن الجنود لاحظوا بخله الشديد فانقلبوا عليه ونهبوا قصره الموجود خارج المدينة ، ونجح شخص يدعى محمد بن أبى طالب الشهير " بالجزار " بمساعدة عصابته المسلحة فى طرد القوات المغربية . وأنهكت عمليات النهب والقتل والحرائق المدينة التى لم يكن يرأسها سوى الجزار . وخوفاً من تطور الأحداث وقف الأعيان وجزء من السكان فى وجهه وسجنوه ثم قتل وعلقت جثته عند باب الجابية وتمت مطاردة رجاله وقتلهم دون شفقة . عاد ابن إلياس إلى دمشق ولكن لم تلق سياسته استحساناً لدى الشعب وفى الوقت نفسه توفى الحاكم وحل محله شقيقه الظاهر مما أضعف موقف ابن إلياس الذى وضع فى صندوق وأرسل إلى القاهرة على ظهر جمل حيث أجبر على الانتحار فى ظروف مؤلمة .

وفى عهد الظاهر (١٠٢٠ - ١٠٣٥) دخلت الدولة الفاطمية مرحلة الانهيار . فقد تدهورت الميزانية العامة للدولة وازداد نفوذ كبار الضباط الأتراك داخل الجيش الممزق نتيجة المنافسات بين فرقته المختلفة وأيضاً بسبب الخلافات العرقية . ولم تتمكن الدولة من تدبير الطعام أو الرواتب للقوات التى قامت بالهجوم على المخازن وفى عام ١٠٢٥ شوه جنود سود يدخلون إلى القصر ويتوجهون إلى قاعة اللوائم الرسمية ويلتهمون الأطعمة ويهربون ومعهم أوانى الطبخ .

وفى عام ١٠٥٥ دخل السلطان السلجوقى طوغرل بيج إلى بغداد ومعها جيش ضخم ليضع نهاية للحماية التى فرضها البوريون منذ عام ٩٤٥ على الخليفة العباسى وحصل على لقب "ملك الشرق والغرب" ويعتبر ظهور الأتراك السلاجقة الذين قدموا من آسيا الوسطى وعبروا إيران حدثاً رئيسياً فى تاريخ الشرق الأوسط . كما تميز بإنهاء التفوق العربى بصورة حاسمة وأعطى لدول شرق البحر المتوسط طابعها المميز . وظلت جميع الدول التى جاءت بعد ذلك تعتنق ولمدة أربعة قرون تنظيمهم نفسه وموقفهم السياسى ، وهو المحافظة على السلطة أكبر فترة ممكنة وذلك بالتمسح بشعار : المحافظة على الإسلام السنّى ضد الشيعة " الكفرة وأصحاب البدع " .

وبينما كان السلاجقة مستقرين فى بغداد ، حلت بالقاهرة أزمة خطيرة سياسية واقتصادية وعسكرية فى الفترة من عام ١٠٦٤ إلى عام ١٠٧٢ . وفى اليمن نودى بالخليفة العباسى عام ١٠٦٧ وفى الحجاز عام ١٠٧٠ . وفى الفترة من ١٠٦٩ إلى ١٠٧٠ نادى الأمير ميرداسيد حلب بخليفة بغداد وسلطانة السلجوقى حلب أرسلان . وفى جنوب الشام أغارت قبائل الكلب والطائى على حدود المدن التى يسكنها الحضر وبسطت نفوذها على حوران والأردن . وفى دمشق توالى الثورات والفتن . وفى عام ١٠٦٨ تم تدمير وحرق مقر الولاة الفاطميين وهو قصر السلطنة الموجود فى الربرة خارج مدينة دمشق . كما قام الجنود المغاربة بنهب جزء من المدينة وحرقة وانتهى الأمر بالاستيلاء عليها .

وفى عام ١٠٧١ استولى التركمان بقيادة الأمير قطز على القدس والرملة وفلسطين بالكامل ومنها هاجموا دمشق .

فقاوم الوالى الفاطمى المُلأ بن مانزو هجوم الأتراك الذين خربوا المدينة والغوطة وقطعوا أشجارها وأتلفوا المزروعات ودمروا القرى وعاشت دمشق مرة أخرى فى مجاعة وقحط ورحل سكانها .

وفى عام ١٠٧٣ قتل السلطان ألب أرسلان وتحالف قطز مع خليفته مالك شاه (١٠٧٣ - ١٠٩٢) الذى أرسل له دعما . وأصبحت أيام الفاطميين فى دمشق معدودة . وفى عام ١٠٧٥ زادت حدة مقاومة الدمشقيين ضد ابن مانزو وتوجهوا إلى مخيم أُنشُر وطلبوا منه مهاجمة المدينة .

وفى عام ١٠٨٦ استولى القائد السلجوقى قطز على دمشق وبذلك خسر الفاطميون المدينة إلى الأبد وخطب باسم الخليفة العباسى مرة أخرى على منابرها . ولم يدم حكم قطز إلا أعواما واضطر إلى إخلاء المدينة للأمير السلجوقى تَنْشُر ، وبمجرد وصوله إلى دمشق عمل تَنْشُر على بسط ودعم السلطة السلجوقية على الشام . وفى عام ١٠٨٥ احتل حلب وعهد إلى أبق سنقر وهو مملوك قديم لملك شاه ووالد الأمير عماد الدين زنكى أحد الأبطال الذين سيقفون ضد الصليبيين .

ويموت مالك شاه عام ١٠٩٢ دخل فى صراع مع السلطان باركياروك بن سنقر ووريثه فى الحكم (١٠٩٤ - ١١٠٥) لكنه مات فى ميدان القتال فى ٢٥ فبراير عام ١٠٩٥ حيث قام أحد مرافقيه بقطع رأسه وطاف بها فى صفوف الجنود الأعداء قبل أن ترسل إلى بغداد .

ترك تَنْشُر ولدان : رضوان ودقاق . خيم الأول على ضفاف الفرات استعدادا لعبوره لمساعدة والده لكنه رجع على عاقبيه عندما علم بوفاة والده وبادر بالاستيلاء على حلب بينما أسرع الثانى إلى دمشق للاحتماء بأتابك وهو الرجل الذى كان موضع ثقة السلطان وكان مربيا لابنه . حكم طغكين البلاد باسم دقاق . وفى عهده ازدهرت

الأحوال فى دمشق بسبب مهارته السىاسية وانخفضت الأسعار وزادت محاصيل الحبوب وانتشر العدل بين الناس .

وفى عام ١٠٩٦ اعتبر رضوان أن أخاه اغتصب منه الحكم وصور له الطمع أن يجمع الشام بأكمله تحت سلطته فحاصر دمشق ولكن طغناكين دافع عنها فى غياب دقاق . وعندما علم رضوان بعودة دقاق انسحب وتراجع إلى حلب . وهناك أعلن رضوان ولاءه للسلطان الفاطمى المستعلى (١٠٩٤ - ١١٠١) .

ظهر العالم الإسلامى فى حالة تفكك وتفتت سىاسى ؛ فهناك خليفتان ينافسان كل منهما الآخر : الأول شيعى فى القاهرة والثانى سنى فى بغداد ، والسلاجقة - الذراع القوى للخليفة العباسى - مزقتهم الصراعات الدموية من أجل توارث الحكم . فحلب ودمشق فى أيدي شقيقين كل منهما يعادى الآخر وفى الوقت نفسه ظهرت على الحدود الشمالية للشام حشود صليبية . وكتب ابن القلنيسى " فى هذه السنة ١٠٩٧ ظهرت فى دمشق معلومات تفيد بظهور جيوش الفرنجة قادمين من بحر مرمرة وبأعداد لا حصر لها . وفى الأول من يولية عام ١٠٩٧ تقدموا نحو الأناضول ونشروا الموت فى كل مكان وأحرقت المدن بمن فيها من السكان كما أبعد اليهود ونهبت جميع الممتلكات . وفى نهاية أكتوبر ١٠٩٧ حاصروا أنطاكية ، واستغاث الوالى التركى ياغى سىان بأمر الموصل ، بينما تفاوض وزير الخليفة الفاطمى الأفضل شاهنشاه مع الغزاة الذين عارضوا اقتسام الشام . أما دقاق ورضوان فلم يبادرا بالتدخل وقاما بمحاولات منفصلة انتهت بهزيمتهم . وبعد سبعة أشهر من الحصار تمكن الفرنجة من التوغل فى المدينة بفضل خيانة أحد الأشخاص ويدعى فيروز وهو من أصل أرمنى . وأرشد الأرمن عن ياغى سىان حيث قطعت رأسه وقامت مذبحه رهيبه وأصبحت جميع الميادين فى المدينة مكتظة بالجثث . وفى ٢٨ يونيه سقطت المدينة نهائيا فى أيدي الفرنجة وأصبح الطريق للشام مفتوحاً وانتهز الفاطميون الفرصة لاستئناف الهجوم خصوصاً وأن الفرنجة رفضوا اقتسام الشام فاحتلوا بيت المقدس فى ٢٦ أغسطس ١٠٩٨ .

وفى دمشق شعر دقاق بأنه مهدد بسبب تقدم الفاطميين ، فلم يبد أى مقاومة توقف تقدم الفرنجة . وفى الوقت الذى كان الصراع على أشده للخلافة فى منزل السلاجقة ، توغل الفرنجة إلى داخل الشام حقق أسطول جنوا تقدما كبيراً وقدم مساعدة حاسمة وحاصر السواحل . وفى ١١ ديسمبر سقطت معرة النعمان . وقامت أعمال النهب والقتل من جانب الفرسان الذين يحملون الصليب وفاق الفزع والرعب كل الحدود وتوغلوا داخل المدينة ونهبوا كل ما وجدوه فى المنازل أو المخابئ وامتلات المدن بالجثث رجالاً ونساءً وكان من الصعب السير فى الشوارع لكثرة ما بها من جثث القتلى . ثم قاموا بنشر الجثث لأنهم علموا أن دنائير بيزنطية موجودة داخل أحشائهم وآخرون مزقوا الجثث وقطعوها إرباً لشيها وأكلها . اكتسحوا طرطوس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا والقيسارية والرملة ثم وصلوا إلى أسوار القدس فى ٧ يونية ١٠٩٩ . وبعد خمسة أسابيع من الحصار وفى ١٥ يولية توغلوا داخل المدينة وقاموا بذبح المسلمين إلى أن وصلوا إلى معبد سليمان (قبة الصخرة) ، وبدأت معركة ضارية طوال اليوم حتى إن قبة الصخرة بالكامل كانت تجرى فيها الدماء للركبتين وفى النهاية وبعد أن حطموا الوثنيين (المسلمين) ، قام الفرنجة باعتقال أكبر عدد من الرجال والنساء داخل المعبد (قبة الصخرة) ثم قتلوا أكبر عدد وتركوا من يعجبهم أحياء . بعد ذلك قام الصليبيون بنهب المدينة وجمعوا كل ما فيها من ذهب وفضة وخيول وبغال وتركوا البيوت خاوية من كل شئ . وصباح اليوم التالى صعد الصليبيون إلى سطح قبة الصخرة (المعبد) وهاجموا المسلمين رجالاً ونساءً وقطعوا رؤوسهم جميعاً بالسيف وبعضهم ألقى به من فوق السطح .

ويروى أحد الشهود منهم قائلاً : " لم نر أو نسمع فى حياتنا بمثل تلك المذبحة من جانب الوثنيين (المسلمين) . ويضيف ابن القليس قائلاً : " قام الصليبيون بعمل الشئ نفسه مع اليهود حيث جمعوهم داخل معبدهم وحرقوهم أحياء .

انتخب جودفرواى بويون أميراً على بيت المقدس وسار الفرنجة نحو عسقلان حيث انتصروا على الفاطميين الذين كانوا يستعدون لشن هجوم مضاد . استقر

الفرنجة على الساحل وأنشأوا عدة إمارات عرفت باسم الدول اللاتينية للأرض المقدسة : مملكة القدس ، وإمارة أنطاكية ؛ وكونتييسة الرها ؛ وكونتييسة طرابلس .

ولم يتم احتلال دمشق على الرغم من محاولتين من جانب الفرنجة إلا أنهما فشلتا . بدأت البقاع وحواران فى اتباع لعبة دبلوماسية حيث أعربوا عن رأيهم بأن الاعتبار الدينية ليس لها أى اعتبار وإنما ضغطوا على الوتر الواقعى حيث لاحظوا أنطماع الأمراء فى الاستحواذ على السلطة . وأكد المؤرخ كمال الدين هذه المعانى بقوله : " أراد أمراء ذلك العصر إطالة فترة احتلال الفرنجة من أجل دعم سلطتهم " .

ولم يكن هناك بد من إنقاذ البلاد من حملة الفرنجة سوى إعلان الجهاد العام ضد الغزاة . وفى عام ١١٠٤ أسر شوكورميش والى الموصل بوهموند أمير أنطاكية وبودوان الثانى أمير الرها وأصبحت تلك الدولتان تحت رحمته . أما دمشق فقد نأت بنفسها بعيداً عن الصراع .

وفى ١٨ يونية عام ١١٠٤ أصيب دقاق بحمى ويقال إن أمه وضعت له السم وتوفى وخلفه ضغتكين واستقل بأمر دمشق حتى وفاته عام ١١٢٨ .

دفن دقاق فى حكر الفهدين على الشاطئ الأيسر لنهر بردى غرب المدينة وضرب قبره عام ١٢٢٩ عندما التهمته النيران .

وذكر ابن عساكر أنه غطى بقبة سميت "قبة الطاوس" بالقرب من مسجد شيدته أمه صفوى الملك . وينسب إلى الدقاق بناء بيمارستان (أى مستشفى) وخانقاه الطواويس حيث يوجد داخلها قبره وأول مدرسة أنشئت بدمشق . توفيت صفوى الملك أول سبتمبر ١١١٩ . وذكر ابن قلنيسى "أنها دفنت بالقرب من ابنها فى القبر (القبة) التى بنيت على ارتفاع بحيث تطل على مضممار الخيل ذى الخضرة . وقد نقل إلينا جان سوفاجيه وصفا تفصيليا فى كتابه " الآثار الأيوبية" قائلاً إنه يتكون من قاعة مربعة الشكل مغطاة بقبة تمتد داخل محور شرق غرب بواسطة دعامتين يغطى كل منهما نصف قبة ترتكز على منطقة متعددة الزوايا " . وقد أخذ التصميم من الأقاليم الشرقية

للإمبراطورية والعراق وفارس . توجد فى بيمارستان نور الدين التى بنيت منذ أقل من نصف قرن بعد هذا التاريخ، وفوق الباب المفتوح فى وسطه بالجانب الشمالى ، أربعة أسطر بالخط الكوفى مزدانة بالزهور لتخليد ذكرى الإنشاء بواسطة "السيد" نساء المملكة ، مجد نساء العالم ، أم الملك دقاق عام ٥٠٤هـ (١١١٠-١١١١).

صنع عقد الساكف الموجود أعلى الباب من البازلت الأسود ، وهو أحد النماذج القديمة والمعروفة بتعدد الألوان ، وهى تقنية سادت وانتشرت فى العصر المملوكى (١٢٥٠-١٥١٦) .

استخدم الجبس فى الداخل والخارج لعمليات لياسة وتغطية البناء بالدبش غير المصقول . تميزت الزخرفة بالبساطة ، إذ استخدمت شرائط التشبيك الزهرى والحليات الحلزونية للأغصان وأوراق الشجر وسلسلة عقود صغيرة ونقوش بذيول طويلة ومجدولة ومرسومة بلون أزرق الكويلت .

اكتشف القبر التذكارى الذى شيد تكريماً لسكينة ابنة الحسين وحفيدة على وكذلك قبر فاطمة فى مدافن باب الصغير فى الوقت نفسه الذى أنشئ فيه قبر صفوى الملك . وقد توفيت سكينة ودفنت بالمدينة عام ٧٣٥ .

وقد حفرت أية قرآنية بحروف صغيرة على الجزء الأعلى من الصندوق الخشبى المصنوع من خشب الجوز " الله لا إله إلا هو الحى القيوم " ويرجع الأسلوب الزخرفى للقبر التذكارى لسكينة ، إلى العصر العباسى . كما ظهر فى الجص بسامراء حيث وجد فى محراب الجامع الكبير الذى بناه نور الدين فى الموصل .

أما فى دمشق فالعنصر الوحيد للمقارنة هو لوحة المقصورة لمسجد باب المصلى ، وهو اليوم متحف دمشق ، ويرجع تاريخه إلى ١١٠٣ .

أما القبر التذكارى الذى بنى تخليداً لذكرى بلال ، والذى صنع من الخشب ، فيقع داخل ضريح ضخم فى مدافن باب الصغير وهو شبيه بالنموذج السابق . يعتبر بلال من الصحابة وهو حبشى ، وكان رقيقاً لأبى عبيدة أثناء الحملة على دمشق حيث توفي

ودفن عام ٦٤١ . وقد أقيمت مقابر تذكارية كذلك للشاعر كعب الأحبار وأبى الدرداء وهو من الصحابة وقاضى دمشق أثناء خلافة عثمان .

وفى العصر السلجوقى أيضاً شرع أحد الأمراء فى إصلاح وترميم مسجد خالد بن الوليد إحياء لذكراه وذلك بحفر كتابة بالخط الكوفى فوق الباب . إلا أنها برزت هذه الأيام بالخط الأسود : "هذا مسجد خالد بن الوليد الصحابى الجليل وسيف الله المسلول" .

وبعد اختفاء الدقاق أسس ضفكتين الدولة البورية التى حكمت دمشق نصف قرن من الزمان حتى مجىء نورالدين عام ١١٥٤ الذى تميز عهده بتعاقب المناوشات والهدنة مع الفرنجة . ففى ديسمبر عام ١١٠٥ هزمهم بالقرب من طبرية واستولى على حصن وقام بتدميره ووصل إلى دمشق ومعه "رءوس متطوعة للأسرى وغنائم بكميات ضخمة" . وفى عام ١١٠٨ عقد هدنة مع بودوان ، ولكن فى السنة التالية استولى الفرنجة على طرابلس وبيروت وصيدا وسيطروا على ساحل سورية بالكامل باستثناء صور وعسقلان ، وبمجرد سقوط طرابلس اضطر ضفكتين فى سبتمبر عام ١١٠٩ إلى التنازل لبودوان عن ربع إيراد بعلبك وعين ابنه تاج الملوك واليا عليها .

وفى ١٧ فبراير عام ١١١١ توجه شريف هاشمى ومعه مجموعة من الصوفييين والتجار ورجال الدين إلى مسجد السلطان فى بغداد . وناشدوا المسلمين للدفاع عن الإسلام وأوقفوا الخطبة وأنزلوا الإمام من فوق المنبر وأخذوا يصرخون ويبكون بسبب المصائب التى حلت بالإسلام وما فعله الفرنجة من قتل الرجال وسبى النساء والأطفال . عندئذ أمر السلطان الأمراء والقادة العسكريين بالعودة إلى أقاليمهم للاستعداد لبدء "الجهاد ضد الكفرة أعداء الله" وكلف الأتابك (مربى ابن الملك) شرف الدين موبد والى الموصل بتنظيم القتال . ولم يعطه ضفكتين فى البداية سوى مساعدة محدودة .

وفى ٢٨ يونية توحدت جيوش المسلمين وهزموا قوات بودوان قرب بحيرة طبرية . وأرسلت أعداد ضخمة من الأسرى ورءوس مقطوعة وخيول ودروع وخيام من كل

الأنواع إلى أصفهان للسلطان السلجوقي غياث الدين . وفى يوم الجمعة ١٨ أكتوبر وبينما الجمهور محتشدا لرؤية طغتكين والمودود ومظاهر الأبهة والعظمة تشع منهما وإذا بشخص يخرج من بين الصفوف دون أن يلتفت إليه أحد ويقترب من الأمير المودود ويطعنه طعنيتين مات على أثرهما . حزن طغتكين على فقد حليفه القوى وبدأ يمارس سياسته المتوازنة ف عقد هدنة مع بودوان عام ١١١٤ .

وتوجه طغتكين إلى بغداد لتقديم يمين الولاء إلى الخليفة المستظهر . وفى عام ١١٢٤ نجح بودوان الثانى من الاستيلاء على ميناء صور رغم المقاومة العنيفة من جانب طغتكين لمنعه من التقدم صوب دمشق وأوقفه عند مرج الصوفر جنوب دمشق . وفى عام ١١٢٦ تخلى طغتكين عن قلعة بانياس التى كان يحتلها الإسماعيليون الحشاشون والتى لم يكن بها سوى عصابة من النصابين والمساكين والمختلين عقليا والفلاحين والفرق السوقية . ومن هذا المكان الحصين بدأوا يضاعفون نشاطهم . وفى نوفمبر - ديسمبر ١١٢٦ سقط أمير الموصل على أثر طعناتهم له . وعين الخليفة المسترشد عماد الدين زنكى والى بغداد وأتابك (مربى ابن السلطان محمود) حيث استولى على الموصل فى سبتمبر ١١٢٧ وحلب فى شهر يناير ١١٢٨ . توفى طغتكين فى ١١ فبراير عام ١١٢٨ وخلفه ابنه تاج الملوك . واشتد الصراع ضد الحشاشين حيث ازداد نفوذهم فى دمشق فى عهد طغتكين . وتم ذبحهم بلا هوادة أو شفقة .

واصل زنكى اتباع سياسة التوازن بينه وبين الفرنجة لكنه لم يخف أطماعه توطئة لبء الجهاد الذى لا مفر منه من أجل بسط نفوذه على الشام بأكمله وخاصة دمشق ، ويعتبر زنكى المحرك الأول لصد الحروب الصليبية وقائداً حربيا لا نظير له . وذكر زنكى فى التاريخ الإسلامى أنه أحد الأبطال الذين استطاعوا صد الغزو الصليبي . ويعلق ابن الأثير قائلا : " لو لم ينشر الله العلى القدير رحمته وعفوه على المسلمين بأن أتاح للأتاك زنكى بغزو سوريا ، لكان الفرنجة قد استولوا عليها بالكامل " .

اتبع الفرنجة سياسة حمقاء . فبدلاً من التعاون مع تاج الملوك ، خرجوا من القلعة الحصينة التى سلمها لهم الحشاشون الإسماعيليون وساروا نحو دمشق فى جيش

قوامه ستون ألفا إلى أن وصلوا إلى قرية داريا فى غوطة دمشق على بعد حوالى عشرة كيلو مترات إلى الجنوب الغربى من المدينة . ولكن مفررة من قواتهم تركتهم وتوجهت إلى حوران للحصول على مؤن ودواب وفاجأتهم قوات تاج الملوك وأبادتهم وانسحبوا تاركين فى مواقعهم كميات ضخمة من العتاد . انتظر زنكى حتى العام التالى ليشن حملة على نطاق واسع ضد الدول اللاتينية . وأرسل له تاج الملوك أفضل ضباطه وخمسمائة فارس وابنه سيفنچ والى حماة . لكن فجأة تم اعتقالهم وإرسالهم إلى حلب وتمكن زنكى بذلك من الاستيلاء على حماة التى لم يكن بها مدافعون ، لكنه فشل أمام حمص فاتجه إلى الموصل وأخذ سيفنچ والضباط الدمشقيون رهائن وطلب فدية مقدارها خمسون ألف دينار مقابل الإفراج عنهم ووافق تاج الملوك على دفعها . وفى يوم ٧ مايو عام ١١٣١ هاجم ثلاثة من الإسماعيليين تاج الملوك وتوفى فى ٦ يونية عام ١١٣٢ متأثراً بجراحه وخلفه ابنه شمس الملوك إسماعيل حيث واصل القتال ضد الفرنجة . وبعد أن نجا من محاولة قتله فى فبراير ١١٣٤ بدأ ينهب الأموال المخصصة لرؤساء المناطق ويرتكب أعمالاً حقيرة محرمة تتم عن جشع متزايد كما استولى على ممتلكات الأعيان عن طريق التعذيب وإنهارت شعبيته تماماً . ولكى يتجنب حاجبه يوسف بن فيروز التهديدات هرب بسرعة إلى تدمر بصورة سرية وطلب مساعدة زنكى . ولكن فى ٢٠ يناير ١١٣٥ اغتيل شمس الملوك وحاصر زنكى دمشق حيث جاء شهاب الدين محمود شقيق المتوفى ينادى بالخلافة . وبعد عدة مناقشات انتهت بالتفاوض وانسحب متوجها إلى المنطقة الواقعة بين حمص وحلب ليحتل القلاع الموجودة فى تلك المنطقة .

فى عام ١١٣٧ توغل القيصر جان كومين إلى الشام على رأس قوة كبيرة وفرض سلطته البيزنطية على ريمون حاكم أنطاكية ووجد جيوش الفرنجة فى أنطاكية والرها وهاجم حلب ولكن أمام شدة المقاومة من المدينة انسحبت القوات المتحالفة من الفرنجة والبيزنطيين واتجهت لمحاصرة شيزار فى وادى أورنت (نهر العاصى) . كان الموقف عصيبا بالنسبة للأمراء المسلمين فى الشام . ولابد من وضع حد للمنافسات

والصراعات فقرر كل من زنكى وشهاب الدين أن يوحدوا قواتهما وأبرمت معاهدة على عجل فى ٢١ مايو عام ١١٢٨ يتم بموجبها أن يستولى زنكى على حمص ويتزوج زمردة أم شهاب الدين ويزوج زنكى ابنته لشهاب الدين . وبموجب هذه المصاهرة أمكن الاعتراف لزنكى بالسيطرة على دمشق . وفى ٢٢ يونيه عام ١١٢٩ اغتيل شهاب الدين وهو نائم فى مضجعه ، ووصل جمال الدين محمد شقيقه من الأب قادما من إمارته فى بعلبك وحاول الاستيلاء على دمشق إلا أن السلطة فى الواقع كانت من حق معين الدين أونور المربى السابق لشهاب الدين . وقد دفعت زمردة زنكى إلى اتخاذ موقف معاكس من جمال الدين . وفى ٩ ديسمبر أقام زنكى مخيمه فى داريا جنوب دمشق وهزم مفرزة أرسلت لقتاله ودفع بفرقة من الميليشيات قرب مصلى مضمار الخيل واستعد لحصار المدينة حيث كان عملاؤه يعملون على إثارة السكان لصالحه . وقد لجأ أونور إلى فولك أمير القدس وتعهد بتمويل المساعدات التى يقدمها له وأن يسلمه مدينة بانياس الحيوية لموقعها الإستراتيجى للدفاع عن دمشق . وكانت الفرصة متاحة بشكل رائع إذ حرك فولك قواته وأجبر زنكى على التقهقر إلى حماة شمالا واستولى على بانياس .

لم يظهر زنكى على أبواب دمشق إلا فى فجر يوم السبت ٢٢ يونيه ١١٤٠ حيث وجد مجير الدين عبق الذى حل محل والده محمد الذى توفى فى ٢٩ مارس وعرض عليه الاعتراف بسيادته المطلقة والدعاء له فى خطبة الجمعة . وقد أدرك زنكى عدم قدرته على الاستيلاء على المدينة بالقوة فقبل مبادرة مجير الدين وتوجه إلى أعالي بلاد ما بين النهرين (شمال العراق) حيث أخضع التركمان والأكراد بالقوة قبل أن يتوجه لحصار مدينة الرها التى فى أيدي الفرنجة حيث كان الأساقفة يتولون الدفاع عنها فى غياب جوسلين الثانى . دكت المدينة بعنف حيث أطلق عليها المنجنيق سبع مرات خلال ثلاثة أسابيع . وفى ٢٤ ديسمبر ١١٤٤ وليلة عيد الميلاد اقتحم جيش المسلمين المدينة وذبح كل من هو من الفرنجة دون هوادة ونهبت الكنائس اللاتينية ودمرت وكتب ابن القليسي يقول : " أخذ المنتصرون يجمعون الغنائم ويقتلون ويعتقلون ويربطون الأسرى بالسلاسل وينهبون ، كانت النفوس مفعمة بالبهجة والفرح يشرح الصدر والأيدى مليئة بالأموال

والأشياء النفيسة والأثاث والخيول " . وهكذا محيت من الخريطة أول دولة لاتينية بعد ستة وأربعين عاما على تأسيسها . ومنح زنكى الألقاب التالية : " زين الإسلام " ، " الملك المنصور " ، " نصير أمير المؤمنين " ، وتلقى هدايا قيمة : خيولاً مسومة بالذهب وسيوفاً من ذهب وعمامة العباسيين ذات اللون الأسود . سبب غزو الرها صدمة عنيفة للمسيحية الغربية وترتب على ذلك الإعداد لحملة صليبية ثانية على الشام وهذه المرة كانت بقيادة كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا حيث لم يصلوا إلى أنطاكية إلا فى شهر مارس عام ١١٤٨ .

وبعد عامين من الاستيلاء على الرها ، اغتيل زنكى فى ١٥ سبتمبر عام ١١٤٦ على يد أحد أغواته أثناء حصاره لقلعة جبار على الشاطئ الأيمن لنهر الفرات فى مواجهة جبهة القتال لمعركة صفين الشهيرة ، خلفه ابنه الأكبر سيف الدين فى الموصل أما ابنه الثانى نور الدين الذى كان عمره تسعة وعشرين عاما فقد استقر فى حلب . سار نور الدين على نهج والده ونجح فى مد نفوذه على دمشق ووجه ضربات حاسمة للفرنجة .

وما إن علم أونور بموت زنكى حتى بادر بالذهاب إلى بعلبك لاحتلالها حيث كانت تحت سلطة زنكى منذ أكتوبر ١١٣٩ ويتولى ولايتها الأمير الكردي نجم الدين أيوب والد صلاح الدين . وضع نجم الدين شروطه : تستقطع عدة قرى من الغوطة وتخصص كملكية له وكذلك مبلغ ضخم من المال وأن يخصص منزل ضخم للأمير البورى فى دمشق بالقرب من الجامع الكبير وهو حالياً مقر المدرسة الظاهرية .

كان صلاح الدين مهتما بفصل دمشق عن القدس فعمل على التقرب من البوريين بل وصل الأمر بأن تزوج إحدى بنات أونور .

ومنذ ذلك الحين ، قاد الأميران عمليات مشتركة ضد قوات بويدوان الثالث الذى كان يهدد بصرا وصلحذ وهما من القلاع الحصينة فى حوران .

وفى ربيع عام ١١٤٨ تلقى الفرنجة دعما عسكريا عن طريق صور وعكا وانضموا إلى ما تبقى من قوات لويس السابع وكونراد الثالث .

وفى ٢٤ يونية عقدت اجتماعات فى عكا ولم تشترك الرها وشكلت السهول الدمشقية الخصبة مطمعا أسال لعاب نبلاء الفرنجة . وتم خرق الهدنة التى استمرت طويلاً والتى عقدها الملك فوك وسارت الجيوش نحو دمشق . وفى يولية ارتدى الصليبيون دروعهم وكان عددهم حوالى الخمسين ألفا ما بين فرسان ومشاة ومعهم قوافل من الإبل والجاموس وتجمعوا فى طبرية ثم عبروا الجليل وانطلقوا يوم ٢٤ تجاه بساتين داريا جنوب غرب دمشق .

استعد أونور للمعركة وجمع المؤن وسمم الآبار وحصن النقاط الأكثر تعرضا من جانب العدو ووضع رجالا على الطريق للاستكشاف وأرسل كتيبة لحماية مضيق الربوة التى يتفرع منها قنوات الرى الرئيسية . وطلب مساعدة سيف الدين ونور الدين فحضرا فوراً ولكنهما طلبا بمجرد وصولهما إلى حمص حكومة مؤقتة لدمشق فى مقابل مساعدتهما ولكن طلبهما رفض . قطع الفرنجة أشجار الغوطة لإنشاء خنادق ودمروا الجسور .

لم يشأ لويس أن يعرض جيشه لخطورة الحرب على الزنكيين واستعادة الرها من أيديهم فاتجه بقواته تحت تأثير أمراء بيت المقدس إلى مهاجمة دمشق فى أوائل يولية ١١٤٨ ولكن بمجئ النجيدات والمساعدات الإسلامية على دمشق من الموصل وحلب أدى إلى تخوف الصليبيين من هذا التجمع الإسلامى فقرروا رفع الحصار عن دمشق والانسحاب . ولم يلبث الإمبراطور كونراد أن أبحر عائداً إلى أوروبا من عكا بينما بقى لويس السابع ستة أشهر وغادرها إلى أوروبا فى سنة ١١٤٩ بعد أن تأكد من فشل حملة الصليبيين فى تحقيق أغراضها التى جاءت من أجلها . ولقد أدى فشل هذه الحملة إلى انحطاط هيبة ومكانة الصليبيين بالشام وازدياد نفوذ المسلمين وارتفاع أرواحهم المعنوية وعندئذ تشجعت القوى الإسلامية فى الشرق وبدأت تغير على ما جاورها من أملاك الصليبيين وتسترد ما سبق أن فقده المسلمون .

ورث نور الدين محمود أملاك أبيه وتولى حكمها بعد موته . كما ورث عنه جهاده ضد الصليبيين . ولقد وضع نور الدين نصب عينيه منذ توليه الحكم خطة توحيد الجبهة الإسلامية للإطباق على الصليبيين من كل مكان . وقام سنة ١١٥٤ بالاستيلاء على دمشق بعد وفاة حاكمها السلجوقي واتخذها قاعدة له ، ورفع من شأن المذهب السني في الإسلام وشجع الفقهاء والصوفيين لمحاربة الهرطقة الشيعية وأنشأ عدة مؤسسات تعليمية ولكي يقضى على دار العلم التي أنشأها الشيعة أسس " دار الحديث " لنشر السنة النبوية . وسمى نور الدين " ببطل الإيمان " و " الملك العادل " .

ففي عام ١١٥٤ كان يوجد بدمشق ١١ مدرسة وهي مبنى تعليمي أنشأه الخاصة في البداية . وأول إنشاء لهذه المدارس كان في نيسابور ومرو بخارى في عهد محمود غاز نفيد (٩٧٠ - ١٠٣٠) . وفي عهد السلاجقة أصبحت المدرسة مؤسسات تابعة للدولة ، ثم استبدلت ببيت الحكمة ودار العلم حيث تدرس فيها جميع العلوم الدينية والشرعية وقراءة وتجويد القرآن والسنة والفقہ . أما العلوم البحتة ، فكانت تدرس بالمستشفى على أيدي أساتذة معروفين بالكفاءة . وكان الهدف تكوين درع قوى للدفاع عن السنة ، بإعداد مجموعة من الفقهاء والعلماء والمتخصصين والأوفياء .

كانت المدرسة شأنها شأن الأعمال الخيرية أو المنشآت التي تؤدي منفعة عامة ، تتمتع بدخل غير محدد المدة من بعض الممتلكات التي أوقفها أهل الخير للاتفاق على هذه المدارس . وقد سميت في اللغة العربية بالوقف لأنها خصصت لوجه الله ، ولا يمكن مصادرتها أو اغتصابها أو الاستيلاء عليها .

كانت المدرسة عبارة عن مخطط يشبه المنزل ، به فناء فسيح غير مغطى وفي الجهة الجنوبية صحن مسقوف لإقامة الصلاة . وفي الجهة المقابلة إيوان ذو قاعة عالية عليها قبة وتؤدي إلى صحن الصلاة . وفي الجوانب الأخرى توجد صوامع لسكن الطلاب والمدرسين ، بالإضافة إلى قاعات الدرس والمكتبات والمطابخ ودورات المياه .

أدخلت المدرسة إلى دمشق في نهاية القرن الحادى عشر عن طريق الأمراء السلاجقة . وأول مدرسة أنشئت هى المدرسة الصديرية عام ١٠٩٨ حيث أنشأها الأمير دقاق قرب باب البريد وهو الباب الغربى للجامع الكبير . وبعد ذلك أنشئت المدرسة الأمينية عام ١١٢٠ جنوب الجامع الكبير حيث أنشأها الأتابك كوموشاكين والمعينية التى تأسست عام ١١٢١ فى حى الجيرون ، والخاتونية عام ١١٢٤ على الشاطئ الأيسر لنهر بردى ووهبت للوقف من قبل الأميرة السلجوقية زمرد خاتون الأخت غير الشقيقة لدقاق ، والمجاهدية التى تأسست عام ١١٢٥ جنوب غرب الجامع الكبير والتى أنشأها الأمير الكردي مجاهد الدين ، والشرفية وهى أول مدرسة شرعية حنبلية وتأسست قبل عام ١١٤١ فى الجيرون ، والجاروكية عام ١١٤٨ شمال الجامع الكبير ، والمسمارية عام ١١٥٢ شرق الجامع الكبير .

كما أنشئت عدة أماكن للتعبد (خانقاه) يتعبد فيها المتصوفون ، وفى الوقت نفسه مراكز استقبال للزوار الذين يريدون مزيداً من التعبد والتعمق الروحانى ، وقد أنشأها السلاجقة : خانقاه الدويرية ، وتقع قرب باب البريد ، وخانقاه صفوى الملك التى أنشئت فى الشرف الأعلى ، وخانقاه شمس الملوك إسماعيل وأنشئت فى الميدان الأخضر على الشاطئ الأيمن لبردى .

أما عن المساجد فقبل مجيء نور الدين كان يوجد ٢٤١ مسجداً داخل المدينة و١٤٨ خارج المدينة .

والقصور ومنازل الأغنياء كان عددها حوالى ثلاثين ويسكنها صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ويقع أغلبها شمال الشارع المستقيم ، وما كان يوجد فى الغوطة فقد تعرض للنهب والسلب-، كما تعرض أغلبها للخراب أثناء الاضطرابات .

بدأت عدة ضواحي فى النمو خارج أسوار المدينة فى وسط الحداثق . أقيمت ضواحي العقيبة ، والصادف ، والعوزة ، والفرادس ، وستيرا ، وهى التى يوجد فيها مسجد الأقصب حيث يوجد بها رؤوس الصحابة الذين قتلوا بناء على أمر من معاوية ، كما ذكر ابن عساكر .

وفى خارج باب توما توجد ضاحية بيت لاهيا ، والمصيعة الصفوانية ، وهى التى يوجد بها ضريح الشيخ أرسلان بالقرب من مسجد خالد بن الوليد . وفى الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة توجد ضاحية قصر الحجاج . وعلى طريق حوران جنوب مضمار الحصى ، وبالقرب من مسجد فلوس توجد ضاحية السيفيان وضاحية قدم حيث يوجد مسجد القدم .

تطلع نور الدين إلى مصر وضمها إلى دولته وخاصة حين استهدف الصليبيون مصر وانتهبوا فرصة ضعف الحكم الفاطمى بها والاضطرابات الواقعة بها وتوجه بوبوان ملك بيت المقدس بقواته إليها لكن بوبوان توفى وهو فى طريقه إلى القاهرة فاضطرت قواته إلى العودة إلى بيت المقدس . وكرر عمورى الذى خلف بوبوان على عرش مملكة بيت المقدس محاولة غزو مصر مستغلا الصراع بين وزراء الفاطميين فأرسل نور الدين محمود ثلاث حملات إلى مصر لوقف وقوعها فى أيدي الصليبيين بقيادة قائده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين . واستطاع شيركوه أن يحسم الأمر فى مصر لنور الدين ، وأن يتولى الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد آخر خلفاء الفاطميين وتحقق بذلك حلم نور الدين ، إلا أن المنية وافته قبل إنجاز مشروعه الذى تم إنجازه على يد صلاح الدين .

كان حكم نور الدين لدمشق فاتحة عهد جديد من الرخاء أصاب المدينة وكان عهده وعهد صلاح الدين أزهى أيامها . ويختلف مجدها عنه أيام الأمويين . وقد تأثر هذا العهد كله بالجهاد الدينى فأصبح لزاما أن يعنى أولاً وقبل كل شئ بتحسين المدينة والنهوض بعلوم الدين . ومع ذلك لم تهمل علوم الدنيا إهمالاً تاماً . ويمثل هذا العهد ابن عساكر مؤرخ دمشق . ثم اقتصر شيئاً فشيئاً على تدريس علوم الدين . وكان للاضطراب الذى شاع أيام الحروب الصليبية نصيب كبير فى ازدياد نغرة التعصب الدينى فى دمشق فأصبحت بذلك أعظم حصون الإسلام . أسبغ نور الدين على المدينة طابعها الذى عرفت به . فقد زاد فى تحصينها بتجديد أسوارها بأبراجها وأبوابها وشيد مسجداً فى شمال قلعتها وفتح فى هذه الناحية منها باباً جديداً هو باب الفرج

وبنى بالقرب منه باب العدل أو دار السعادة . ولكن أشهر هذه الأبنية هي التي أقامها للسير والنقوى ، ثم البيمارستان المشهور المعروف ببيمارستان نور الدين . ولا يزال قبره قائماً في المدرسة النورية التي نسبت إليه .

كان الجيش يتكون أساساً من أمراء أكراد وجنود أتراك ويضم من ستة آلاف إلى عشرة آلاف فارس بما في ذلك التركمان والبدو . يتقاضى كل جندي راتبه العسكري ، أما الأمراء فكانوا يتمتعون بدخول من الإقطاعات التي تخصص لهم من قبل السلطة المركزية مقابل خدماتهم .

ويخلاف الإصلاحات والترميمات في المتاريس وأسوار المدينة ، عمل نور الدين بمجرد وصوله إلى دمشق على إنشاء بيمارستان (مستشفى) جديد في حي الذهب في المنطقة الواقعة بين القلعة والجامع الكبير بتمويل من فدية دفعها له أحد أمراء الفرنجة . ويرجع أصل هذا النوع من البناء إلى الفساسنة الذين أدخلوه في العالم الإسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد حيث أنشأ مستشفى من هذا النوع في دمشق عام ٧٠٧ . وقد ظل المستشفى الذي بنى في عهد نور الدين بحالة جيدة حتى عام ١٨٩٩ عندما تحول إلى دار للفتيات اليتامى ولا يزال باب الدخول الرئيسي تعلوه قبة صغيرة موجودة حتى الآن . أما البهو فمربع الشكل ومغطى بقبة ارتفاعها أحد عشر طابقاً ويشبه إلى حد كبير ضريح صفوى الملك الذي شيد قبله بنصف قرن ، وهو من النمط الفارسي مثل الذي يشاهد في بغداد في مقابر زبيدة أو سهراردى . خصص هذا المستشفى لعلاج الفقراء والمحرومين .

أما الفناء المستطيل فعلى كل جانب من جوانبه يوجد إيوان مغطى بقنطرة نصف أسطوانية . وعلى الحلية الموجة للإيوان الشرقي وهو الأكثر اتساعاً نقشَت آيات قرآنية توحى بشفاء المرضى .

وعندما زار ابن جبير دمشق بعد عشر سنوات من وفاة نور الدين كتب يقول : " يوجد في دمشق مستشفى قديم (وهو الذي بناه دقاق) وآخر جديد وهو الأكثر أهمية والأكثر اتساعاً ويدر دخلاً يومياً حوالى خمسة عشر ديناراً .

وتسجل الإدارة أسماء المرضى وكذلك المصاريف الضرورية لعلاجهم وتغذيتهم . يأتى إليها الأطباء كل صباح ، ويفحصون المرضى ويكتبون لهم العلاج اللازم . المستشفى الجديد بالنظام نفسه ولكن التنظيم فيها أفضل وتتميز بوجود قسم لعلاج المجانين المربوطين بسلاسل .

يأتى المرضى إلى البيمارستان سواء للاستشارة أو للإقامة من أجل العلاج وينقسم إلى قسمين منفصلين تماما عن بعضهما : القسم الأول مخصص للنساء والقسم الآخر للرجال . ويخلاف الغرف المغلقة الخاصة بالمجانين ، فإنه يوجد فى كل قسم قاعات خاصة لعلاج الأمراض الباطنية والجراحة والعيون والعلاج الطبيعى . كما كانت هناك قاعة مخصصة لعلاج حالات الإسهال . وكان العلاج المتبع فى حالات نوبات انفصام الشخصية الطريقة المتبعة فى الغرب القوة والسوط . وفيما بعد استخدمت وسائل أكثر إنسانية : جرعات من شراب اللوز بعد مزجه بمخدر الأفيون . كانت ميزانية المستشفى السنوية تتجاوز خمسة آلاف دينار .

كما كان البيمارستان أيضاً مؤسسة تعليمية للعلوم البحتة والطب حيث يتدرب فيها الممارسون ويحصلون على دبلوم بعد انتهاء الدراسة كما زودت المؤسسة التعليمية بمكتبة تضم مؤلفات متخصصة وتعليقات حول البول أو دراسات وبحوث حول عملية الجماع ، وقد استحوذ هذا الموضوع فى ذلك الحين على أفكار المجتمع الإسلامى وتجاوز بحثه إطار المؤلفات المتخصصة فيه حتى إن ابن الجوزى من أنصار مذهب ابن حنبل ويتميز بالذكاء الحاد ويبحث فى مواضيع شتى ومؤلف كتاب " صيد الخاطر " الذى يعتبر منجما للمعلومات حول الأخلاق والمجتمع خصص له مكانا فى أبحاثه مؤكدا أنه بذلك يعمل على ردم الهوة بين الأفكار الإسلامية والأفكار المسيحية حول هذا الموضوع . فبينما أكد ابن الجوزى أنه ضرورة فسيولوجية لا بد منها لحفظ توازن الجسد والروح ، ذكر القديس بولس " من يخلصنى من هذا الجسد الذى وهبته للموت " فهذا الإحباط وهذا الكبت غير الصحى هما من أسس الديانة المسيحية .

ذكر ابن عساكر أن دمشق قبل مجيء نور الدين كان بها ٢٨٩ مسجداً " وهذا يدل على تمسك الناس بالعبادة " . وقد أضاف نور الدين عدة مساجد أخرى في أماكن متفرقة من المدينة .

وقد أدخلت تحسينات وإصلاحات كثيرة على الجامع الكبير .

وفي مجال التعليم أضاف نور الدين ١٢ مدرسة جديدة غير تلك التي كانت موجودة وقدرها إحدى عشرة مدرسة لم يتبق منها الآن سوى مدرستين إحداهما تحمل اسمه : المدرسة النورية والثانية لم تكتمل إلا في عام ١٢٢٣ في عصر الدولة الأيوبية وسميت باسم : المدرسة العادلية .

اقترن رد فعل الجماعات السنية التي شجعت ظهور المدارس باتجاه قوى لتيار التصوف حيث يرتدى الصوفيون ملابس بسيطة من الصوف وتحركهم رغبة عميقة لتطهير نفوسهم وأبدانهم والتفرغ للعبادة حتى يشعرون أنهم اتحدوا بالخالق سبحانه وتعالى . كان الصوفيون يعيشون كجماعة تحت سلطة أحد الشيوخ في مكان يعتكفون فيه ويتعبدون بعيداً عن الناس يسمى بالخانقاه . وتصميم الخانقاه واحد في كل مرة ، فحول صحن رئيسي به حوض أو مغطس يوجد مكان كبير لإقامة الصلاة وإيواء وقاعات اجتماعات وغرف للنوم ، وفي إحدى زوايا المبنى توجد مستودعات ومراحيض ومطابخ .

وفي عهد نور الدين كانت توجد سبعة أماكن من الخانقاه في دمشق واحدة منهم شمال الجامع الكبير وكانت مخصصة بالكامل للنساء .

وفي عام ١١٦٩ - ٧٠ عمل نجم الدين أيوب على إنشاء خانقاه النجمية في حي باب البريد وذلك قبل رحيله مباشرة إلى القاهرة كما قام أسد الدين شيركوه ببناء خانقاه سميت الأسدية . وقام الأمير سيف الدين جروج ببناء خانقاه . وفي خارج المدينة بنيت واحدة أخرى سميت الخاتونية نسبة إلى الأميرة عصمت الدين خاتون ابنة منير الدين أونور وزوجة نور الدين . وعلى سفح جبل قاسيون بنيت خانقاه لاتباع

المذهب الحنبلى . وقد أعرب ابن جبير عن دهشته لكثرة ما بنى من هذه الأماكن بل وتهكم بأنها أقرب ما تكون لقصور مزدانة من الداخل يجرى فيها الماء وتطل على منظر رائع وأضاف قائلاً : " هؤلاء المتصوفة هم ملوك فى هذه البلاد لأن الله سبحانه وتعالى قد أبعد عنهم هموم الحياة فى هذا العالم وتفرغوا تماماً للعبادة . وهم يسكنون فى قصور وعدتهم بالجنة " . ولكن ابن الجوزى الخبيث وصفهم بأنهم غشاشون ودجالون وهجامم بالفاظ قاسية : " يوجد مطبخ فى كل خانقاه وبالتالي لم يحدث أن قضوا فيه أى ليلة فى التأمل والخشوع والمغطس ممتلئ دائماً والمغنى يدق على الدف وهو يختال ويتمایل وزميلة يعزف على الناي وتوجد فتيات فى الغناء " .

تمت الإنشاءات والإصلاحات للمباني الدينية لتشجيع الناس على الورع الدينى وأيضاً للسيطرة عليها والمحافظة عليها فى أضيق الحدود حسب السنة . وأقام نور الدين عدة أماكن للمزارات كالمشهد والمقام لتكريم ذكرى الأنبياء : آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ، وصحابة الرسول الكريم .

وبعد دخول نور الدين دمشق بفترة قصيرة ، أنشأ فى حى الأروان سوق الحميدية الموجود حالياً ودار العدل وهو بمثابة محكمة عليا . وقبل إنشاء دار العدل كان كبير القضاة يحكم فى القضايا المعروضة عليه فى الجزء الغربى من الجامع الكبير . كان كبير القضاة يشرف أيضاً على بيت المال والورش الخاصة بصك النقود . وفى الناحية الدينية كان يؤم الصلاة ويلقى خطبة الجمعة ويتولى إدارة المساجد والأوقاف .

أجريت إصلاحات وتعديلات كثيرة فى الجامع الكبير بدمشق . وقد اكتشف عام ١٩٣٥ نقش غير سليم للوحة من الفسيفساء تسجل الأعمال والإصلاحات التى تمت عام ١١٥٩ : إصلاح السقف الخاص بالصحن المستعرض ، وضع تكسية من الرصاص على غطاء الرواق الشمالى ، تحويل قاعتين تقعان فى الجانب الغربى إلى مصلى للصلاة على الأموات ، وحالياً بهو الدخول للزوار غير المسلمين . كما تم إصلاح الزاوية الشمالية الشرقية للفناء وتركيب ساعة مائية عند باب جيرون ، وهى أحد

اختراعات مؤيد الدين الحارثي ، الطبيب ونجار الأثاث بالمستشفى . وقد تغير اسم باب جيرون إلى باب الساعات واحتفظ باسم باب حائط القبلة كما ذكره لنا ابن جبير .

ورغم حدوث تعديلات فيما بعد ، ومنها إصلاحات مدمرة حدثت عام ١٩٩٠ ، فإن المخطط والطابع العام للمبنى ظل كما هو عند تأسيسه .

وعلى صعيد الآثار التذكارية فإن القرن الذي قضته الأسرة الأيوبية ، كان فترة تميزت بالزيادة الرهيبة في العمران . فقد أنشئت عدة منآت من المباني المدنية والتجارية والدينية وحوالي مائة منها لازالت موجودة حتى اليوم . أما الباقي فقد عرفناه من النصوص ، مما جعل دمشق اليوم من أكثر المدن الإسلامية التي أقيمت فيها مبان أيوبية . ففي عام ١٢٥٩ ، ليلة الغزو المغولي قام ابن شداد بحصر ٨٤ حماماً داخل المدينة أى أكثر من ضعف ما ذكره ابن عساكر قبل قرن . أما عن المدارس فكان يوجد بها ٢١ مدرسة عندما دخل صلاح الدين المدينة عام ١١٧٤ . وفي عهده أضيفت تسع مدارس أخرى . وفي عهد خلفائه صار عدد المدارس حوالي ستين في الفترة من ١٢٢٠ ، ١٢٦٠ وهي فترة الرخاء للإمارة الأيوبية لدمشق . وحسب التقاليد التي تميزت بها سوريا الأيوبية كانت أغلب المدارس التي أنشئت مدارس ماتم تشمل قبر مؤسس المدرسة حيث يتمتع بقراءة القرآن على روحه . كما أن إنشاء المدارس كان وسيلة سهلة لوضع ممتلكاته بعيداً عن أى استيلاء أو مصادرة .

أما الهندسة المعمارية العسكرية فقد قامت نتيجة التنافس مع الفرنجة وحظيت بأحدث الابتكارات التكنولوجية . فقد تم إصلاح وتعديل العديد من أبواب السور مع إجراء تعديل في السور والحفرة : باب الجابية والباب الخارجي لباب الفرادس في القرن الثالث عشر ، وباب توما عام ١٢٢٧ ، والباب الداخلي لباب الفرج عام ١٢٣٩ ، وباب السلام عام ١٢٣٤ .

أما عن القلعة فهي العمود الفقري للدفاع عن المدينة وحماية الأمير . فقد أعيد بناؤها بالكامل ابتداء من عام ١٢٠٦ وأدخلت عليها عدة تحسينات في الهندسة

المعمارية العسكرية . وبذا أصبحت أكبر المباني في سوريا وتأخذ شكلاً مستطيلاً ومزودة ببابين ومحاطة بثلاثة عشر برجاً ضخماً .

وقد كتب الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي أقام بدمشق عام ١١٨٤ بعد عشر سنوات من دخول صلاح الدين لها وقبل دخوله حطين بثلاث سنوات معبراً عن إعجابه الشديد لما لمسه وقال : " إنها جنة الشرق والأفق الذي يصعد إليه الجمال المضيء والرائع . إنها عروس المدن الإسلامية التي كشفت عن بهائها . فهي مزينة بالزهور والورود والرياحين ، وتكون البساتين حولها هالة لتلك التي تحيط بالقمر . وفي جهة الشرق تمتد الغوطة الخضراء إلى أبعد من مدى البصر . وتقول الخضره عنها : " لو كانت الجنة على الأرض ، فإن دمشق - بلا شك - جزء منها . وإذا كانت في السماء ، فإن دمشق تكون ضعفتها " . فالمدينة كلها مليئة بنوافير المياه . ومن النادر أن تجد أيًا من شوارعها أو أسواقها يخلو منها . حفظها الله من كل شر وأبقاها نحرًا للإسلام " .

وإلى الشمال من الجامع الكبير ، وفي حي الكلاسة أقيم قبر صلاح الدين الذي يرقد فيه جثمانه بعد أن دفن مؤقتاً في القلعة حسب التقاليد في ٤ مارس ١١٩٣ . حمل النعش المماليك والأغوات والمقربين من المتوفى وأقيمت صلاة الجنازة عليه في الجامع الكبير . صمم القبر حسب النمط المعماري السائد في ذلك العصر : صالة مربعة تعلوها قبة ذات ستة عشر ضلعاً وترتكز على عمودين أسطوانيين الشكل .

وبجانب المقبرة التي بنيت من الرخام الأبيض ، كهديّة من الإمبراطور غليوم الثاني ، فإن القبر التذكاري الذي صنع من الخشب المنحوت، والذي أقيم في وسط غرفة المآتم عام ١٩٠٣ ، لا يوجد منه سوى جانبين فقط من الأجزاء الأصلية التي صنعت في القرن الثاني عشر . توجد لوحات مزدانة بمجموعات من الزهور المنحوتة بشكل بارز وبزوايا متعددة ، وفي كل زاوية يوجد إفريز رأسى عليه زخرفة من قرون كثيرة وزهور وعناقيد غنب . وقد صنف جان سوفاجيه هذه الأعمال الفنية بأنها من أجمل ما صنع في القرن الثاني عشر في الشام وخاصة التشبيك الزهري الذي

يدل على تحفة فنية رائعة . أما الزجاج المدعم بالجص والتكسية بالخرزف المزخرف فقد أعيد إصلاحها وترميمها عام ١٦٢٧ على يد أحد الباشوات العثمانيين تقديراً منه لإصلاح الدين وعرفانا له بالجميل على ما بذله من تخليص بيت المقدس من " دنس الكفار " .

وبعيداً عن باب القرادس أقيم قبر ابن المقدم الذى بناه الأمير فخر الدين إبراهيم الذى توفى عام ١٢٠١ ودفن فيه ابن شمس الدين محمد بن المقدم الذى كان حاكماً لدمشق فى عهد نور الدين فخر الدين حاكم بارين ثم منبج .

يتميز البناء بأنه تأثر بالطراز المعمارى الطبلى ، إذ يختلف عن الطراز الذى كان سائداً فى دمشق بالنسبة للأضرحة . فغرفة الضريح (الدفن) مربعة الشكل وتفتح على الخارج بأربع كوات مقوسة عالية فى منتصف كل ركن من الأركان الأربعة للغرفة ، ويعملوها من الخارج حلق على الطريقة المصرية ، وفى الداخل إفريز بارز . غطيت غرفة الضريح بقبة ترتكز على أسطوانتين ومبينة من الحجر ، وتحتوى على أضلاع عمودية الشكل تبدو من الخارج على أنها نصف دائرية . كما أن حجر العقد مكون من كتلة حجرية واحدة والزخرفة مركزة أساساً على الواجهة الداخلية للأسطوانات وهى عبارة عن زهور موزعة بطريقة متناسقة حول المحور الرأسى .

أسست مقبرة الأميرة عصمة الدين خاتون (هانم) ابنة معين الدين أونور وكانت قد تزوجت نور الدين عام ١١٤٧ . وبعد عامين من وفاته أى فى عام ١١٧٦ تزوجها صلاح الدين الأيوبي لمحاولته بكل الوسائل مساندة ادعائه فى أن يرث آل زنكى وقد تزوجها فى زواج خامس . تميزت الأميرة عصمة الدين بالطهر والنقاء وتمسكها بالتقاليد الإسلامية . توفيت فى ٢ إبريل عام ١١٨٥ . تم تكسية قاعة المآتم بالجص المنقوش وهو الوحيد الذى ظل على حالته الأصلية .

أما الأماكن الأخرى الملحقة فقد تحولت إلى مسجد عام ١٢٨٨ وسمى بالمسجد الجديد وتم ترميمه وتوسعته فى العصر العثمانى عام ١٥٦٨ .

تأسست المدرسة البدرية فى نهاية القرن الثانى عشر على يد الأمير بدر الدين حسن شقيق الأمير نور الدين فى الرضاة .

وفى الجهة الجنوبية من شارع الصالحية الكبير تقع مقبرة الحسن بن سلامة والتى تعلوها قبة مضلعة ومحفور على الساكف الموجود أعلى الشباك اسم المرحوم وتاريخ وفاته ١٢١٢ ، وتسبقهما آيتان من القرآن الكريم : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ .

وإلى الشرق من مقبرة عصمة الدين خاتون (هانم) وشمال نهر يزيد ، توجد مقبرة الأمير سابق الدين مثقال الذى كان يشغل منصبا رفيعا فى عهد صلاح الدين حيث كان حاجبه الأمين . وعلى ساكف الشباك كتب اسم المتوفى وتاريخ وفاته . وعلى واجهة المقبرة ذكرت الآيات القرآنية التالية : " إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون " . وعلى الواجهة الغربية للمقبرة كتبت الآية التالية : " يبشركم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم " .

وفى الطرف الشرقى - الصالحية - أقيمت مدرسة الماتم للأمير ركن الدين منكويريش الذى كان حاكما لمصر وحاكم دمشق فى عهد الملك العادل .

وإلى الغرب قليلاً من مقبرة عصمة الدين خاتون ، أقيمت مدرسة الماتم للأميرة تاركان خاتون حفيدة زنكى وشقيقة حاكم الموصل نور الدين أرسلان شاه وزوجة الأشرف موسى الذى حكم دمشق فى الفترة من ١٢٢٨ إلى ١٢٣٧ وسميت بالمدرسة الأتابكية . توفيت الأميرة تاركان فى سبتمبر عام ١٢٤٢ ، ودفنت فى مدرستها ووهبتها للوقف ليلة وفاتها . وترجع عمارتها إلى العصر المملوكى وهدم الجدار الفاصل بين قاعة الماتم وقاعة الصلاة .

وعلى مقربة من مقبرة ابن سلامة أنشئت مدرسة ماتم لشقيقة أخرى لصلاح الدين ، حيث تزوجت سعد الدين مسعود بن معين الدين أونور . ويعد وفاته تزوجت

بأمير تركمانى هو مالك مظفر الدين أمير أربيل وعاشت معه أكثر من أربعين عاما . وبعد وفاته عادت إلى دمشق وعاشت فى منزل العقيق الذى يمتلكه والدها نجم الدين أيوب ، وماتت فى دمشق عن عمر يناهز الأربعة والثمانين عاما ودفنت بمدرستها المعروفة حالياً باسم المدرسة صاحبية حيث أوقفها لصالح المدرسة الحنبلية .

لا يزال البيمارستان الذى بناه نور الدين قائماً حتى اليوم فى دمشق .

أما التصميم المعماري للمبنى الذى حافظ على الطراز الأيوبي فى دمشق فهو المدرسة صاحبية وهو مستوحى أيضاً من بيمارستان النورى . ويتميز بتناسق كامل : مدخل ورواق وصحن مربع به بركة ماء مركزية وإيوان كبير وإيوانان صغيران وحوالى عشر قاعات تفتح على الصحن . غطى المدخل والقاعات بقنطرة نصف أسطوانية . يتميز التصميم بالوضوح والمساحات الكبيرة والبساطة التى تصل إلى حد التقشف . أما قبة الإيوان فهى مغطاة بطبقة من الجص وزخارف بشكل سعف النخل أو بشكل الزهرة . وعلى القبة نفسها حفرت الكلمات التالية باللون الأحمر على أرضية خضراء وبالخط النسخ : " لا إله إلا الله محمد رسول الله " .

وقد أدت زيادة السكان فى الضواحي واتساع رقعتها إلى إنشاء عدد آخر من المساجد الكبرى بخلاف جامع الحنابلة بالصاحبية : مسجد التوبة فى العقيبة ومسجد الجارة فى الشاغور ومسجد المصلى فى ميدان .

كما كان يوجد فى ضاحية العقيبة خان يعرف باسم الزنجارى مخصص لاستمرارية التقاليد الخاصة بمتع الحياة من لهو وخمر ، ويرتكب الناس فيه كل صنوف الخطايا وجميع الأعمال غير المشروعة من جانب المغنيات . وكان الخان ذا طابع تجارى محض يمارس فيه البغاء مقابل مبالغ معينة يدخل جزء منها فى خزانة الدولة .

فى عام ١٢٢٨ صار الأمير الأشرف موسى حاكماً على دمشق وكان يتميز بالورع والأخلاق الحميدة والتقوى .

وفى عام ١٢٣٢ أمر بهدم الخان - الحانة وأنشأ مكانه مسجداً كبيراً يشبه الجامع الأموى .

أما عن الحمامات فى العصر الأيوبي فلم يتبق منها إلا عدد قليل جداً يشبه تماما حمامات عصر نور الدين .

أنشأت الأميرة أدرا خاتون ابنة أخ صلاح الدين حماما سمي حمام الست أدرا عام ١١٩٦ بالقرب من مدرسة المآتم : المدرسة الأدرافية والتي هدمت أثناء القصف على دمشق عام ١٩٢٥ ، ثم دمرت تماما عام ١٩٣٦ أثناء إعادة بناء الحى .

وفى مجال الهندسة المعمارية العسكرية ، فقد اهتموا أولاً بإصلاح وترميم وإعادة إنشاء بعض أبواب المتاريس والأسوار الواقية .

وابتداء من عام ١٢٠٦ كانت القلعة نفسها موضع اهتمام كبير من جانب الملك العادل حيث بدأ فى إعادة إنشائها لأنه كان مشغولاً بحماية نفسه من هجمات أبناء أخيه أكثر من اهتمامه بحماية نفسه ضد الفرنجة . وفى الركن الشمالى الغربى منها لا يزال يوجد ستة أبراج من ثلاثة عشر . أما فى الجهة الجنوبية فلا زالت الأبراج بحالة جيدة حيث يصل سمك جدار كل برج أكثر من ثلاثة أمتار .

يوجد للقلعة بابان رئيسيان وهناك باب ثالث يطلق عليه باب السر يستخدم لمغادرة القلعة سرا أو الدخول إليها باجتياز جسر خشبى مقام على حفرة ويقع هذا الباب فى الواجهة الغربية .

وقد استخدمه العثمانيون كباب رئيسى فى الدخول إلى القلعة . قام المماليك بإدخال تعديلات وإضافات لكنها لم تغير الطابع العام للقلعة .

ورغم أن القلعة جزء أساسى فى الدفاع عن دمشق ، إلا أنها كانت قبل أى شىء آخر مركز السلطة السياسية ومقر الأمراء والسلاطين حيث كانت تستخدم كمقر خاص للأمير وحاشيته وأيضاً قاعة العرش ، أى إيوان لإيواء الذين يحضرون للمقابلات

الرسمية والولائم ويضم كذلك مكاتب الإدارة المدنية والعسكرية ومقر البريد باستخدام الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومستودع الأسلحة والخزانة ودار صك النقود وحديقة وسجن الدولة بل وصل الأمر إلى استخدامها كمدفن للعائلة المقيمة . لقد كانت القلعة عبارة عن مدينة داخل مدينة كما كان بداخلها السوق الخاص بها وحماماتها وجامعها الكبير ليتمكن جميع المقيمين بداخلها من أداء صلاة الجمعة بعيداً عن إزعاج الدمشقيين لهم .

وبالإضافة إلى إنشاء عدة مئات من المباني الجديدة لم تتوقف حركة الترميم والإصلاح وإعادة البناء للمباني التي تضررت بالحرائق أو بالزلازل الأرضية ، مثل مدرسة الكلاسة والمئذنة المجاورة للعروس التي احترقت وأعيد إصلاحها في عام ١١٧٤ بعد فترة قليلة من اعتلاء صلاح الدين حكم سوريا . وبالتأكيد كان الجامع الكبير موضع الاهتمام الدائم لأمراء الأسرة الأيوبية .

وفي عام ١١٧٩ أمر صلاح الدين بإعادة تكسية عمودى القبة بالرخام . كما تم إصلاح مسجد خالد بن الوليد . أما اليوم فقد دمر بالكامل ولم يتبق منه سوى محرابه الجميل حيث تم إصلاحه في عام ١٩٨٤ .

وفي دمشق وكما ذكر ابن عساكر من قبل أن جبل قاسيون "هو أحد أربعة جبال من الجنة" حيث كان يوجد في قمته مغارة آدم التي كانت موضع تبجيل واحترام فترة طويلة واتخذت كمصلى ، وعلى بعد مسافة قصيرة منها "مغارة الدم" قرب المكان الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل "وترك أثر جريمته حيث توجد علامات حمراء على الحجر" وفي عصر ابن جبير كانت المغارة تضاء بمصابيح بفتيل . وهناك مغارة أخرى يطلق عليها مغارة الجوع لأنه كما ذكر في الأسطورة أن أكثر من سبعين نبيا لم يكن لديهم من طعام سوى الخبز الجاف وماتوا جميعاً من الجوع . وفي ١١٨٤ وفي أسفل المنحدر الغربى لجبل قاسيون يرتفع "تل المبارك" تل نيراب القديم والذي أصبح يسمى باسم الربوة حيث أقام المسيح وأمه كما ورد في الآية التالية :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (١) وفى

المغارة التى أقام بها المسيح حيث يهرول المؤمنون للصلاة هناك توجد نافورة عدلت لتصير كحوض للوضوء ومزودة بالماء الجارى . ويقال إن قبر مريم موجود على هذه الربوة . كما أن إلياس لجأ إلى هذا المكان هرباً من ملوك قبيلته وعلى سفح هذا الجبل المبارك توجد قرية برزا حيث تذكر التقاليد الإسلامية أن إبراهيم ولد فيها . وهناك قرية بيت لاهيا وتقع بين دمشق وبرزا والتى أمضى إبراهيم فيها طفولته وحطم الأصنام التى كلفه والده ببيعها ، وأقيم مسجد صغير فى هذا المكان إحياء لذكرى العصيان الطفولى واعتبر هذا العمل أساساً لوحداية الله .

وبخلاف مقابر الأنبياء الذين ذكرهم ابن جبير لم يتردد فى أن يذكر أيضاً قبر موسى عليه السلام وأن العدد سوف يزداد بمرور الزمن ، فهناك الخلفاء الأمويون والصحابه وزوجة الرسول الكريم أم حبيبة شقيقة الخليفة معاوية والتى أطلق عليها اسم " أم المؤمنين " . كما يقال إن قبر بلال مؤذن الرسول موجود هناك .

يبالغ الدمشقيون فى تبجيل الحجاج القادمين من مكة ويلمسون أياديهم تبركا بهم ، وتقدم لهم النساء الخبز وما إن يقضوا منه لقمة حتى ينتزعونها من فم الحجاج لتأكلها النسوة تبركا .

ومن عادات أهل دمشق : أولاً طريقة تبادل التحية - إنها نوع من انحناء الرأس والجسم حيث ترتفع الرقبة وتنخفض وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً . ينحنى الأول ويرفع الثانى رأسه .

ويذكر المغربى أن هذه العادة قبيحة ولا يقوم بها إلا النساء من الطبقات الدنيا والعبيد .

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .

الفصل الثالث

حكم الأتراك

وهكذا وفى المنصورة وتحت سمع وبصر لويس التاسع وجيشه تم ارتكاب الجرائم ، وفى ٢ مايو ١٢٥٠ اغتيل توران شاه المؤسس الفعلى لدولة المماليك والتي ستمتد سلطتهم على الشام ومصر حتى مجىء الأتراك العثمانيين عام ١٥١٦ ، وهكذا نشأت دولة لم تكن فى الأصل سوى نزوة واندفاع من قبل عسكر غير منظمين كانوا مهتدين بإجراء غير منطقى من جانب سلطان شاب عديم الخبرة . وفى الأعوام التى تلت هذه الأحداث استمر التهديد الصليبي كما تقدمت القوات المغولية فكان على المسلمين مواجهة هذا الخطر الصليبي المغولى المشترك فى وقت واحد والحيلولة دون قيام اتحاد بينهما . فإذا كان الأيوبيون قد تصدوا للغزو الصليبي فإن سلاطين المماليك تصدوا للغزوين الصليبي والمغولى معا .

تمكن الخليفة وسلاطين الشام من توحيد قواهم وخلق الظروف المواتية لصعودهم للسلطة العليا . إلا أن ولادة هذه الدولة المملوكية مرت بعقبات وصعوبات وثورات واضطرابات واغتيالات . وفى ١٢ أبريل ١٢٥٧ أمرت شجرة الدر بقتل زوجها الأمير المعز أيبك ، وبعد ثلاثة أيام قتلت هى أيضا بالقباقيب واعتلى الحكم المنصور على بن المعز أيبك . ولكن فى ١٢ نوفمبر ١٢٥٩ نودى بالأمير سيف الدين قطز الذى كان مملوكا لوالد المنصور على سلطانا باسم الملك المظفر . وبعد أقل من عام انتصر على المغول وحقق انتصارا ساحقا عليهم فى عين جالوت بفلسطين فى ٢ سبتمبر ١٢٦٠ .

احتل قطز دمشق لينطلق منها فى مد نفوذه وتدعيم سلطته على الشام . وللمرة الأولى منذ وفاة صلاح الدين تتم الوحدة من جديد بين مصر والشام تحت سلطة واحدة . وتغيرت ظروف الصراع ضد ما بقى من إمارات وممالك صليبية تغيرا كبيرا . فعندما وصل قطز إلى القاهرة قتل أثناء قيامه برحلة صيد عند القصير على يد جماعة من المتآمرين بقيادة مملوك قديم للملك الصالح وهو الأمير التركى بيبرس الذى كان يشعر بالسخط لعدم تعيينه حاكما على حلب . قام الأمراء الذين اشتركوا معه فى المؤامرة بتعيينه سلطانا باسم الملك الظاهر . ودخل بيبرس إلى القاهرة التى كانت تنتظر قطز لكن القاهريين لم يتأثروا كثيرا بالتغيير . كانت القاهرة مزدانة بالأعلام ابتهاجا بوصول قطز ولكن أصواتا عالية كانت تنادى : « اطلبوا الرحمة للملك المظفر وتمنوا الخير للسلطان الملك الظاهر » ، وهكذا تمت اللعبة كما عبر بذلك ابن السقاعى الذى كان معاصرا للأحداث وموظف مسيحي فى الإدارة المملوكية .

أرسى بيبرس قواعد وأسس الدولة الجديدة التى أصبحت من أقوى الدول فى التاريخ الإسلامى ، فعمل على تقليل نفوذ الإمارات التى تتمتع بالحكم الذاتى ووحد الشام تحت سلطته . وابتداء من عام ١٢٦٨ لم يتبق سوى حماة التى كانت مستقلة بقيادة أحد الأمراء الأيوبيين أعد بيبرس جيشا قويا لملاقاة المغول الذين كانوا يهددون الحدود الشمالية للشام وينتزعون مدينة تلو أخرى والأماكن المحصنة .

وأعلن الجهاد الذى نادى به من قبل صلاح الدين .

تميز بيبرس بخبرته الحربية والإستراتيجية وبأنه محارب شرس وعنيف وصلف لا يكل وعديم الذمة وقاسى القلب ، كما يتمتع بذكاء سياسى لا يجاريه أحد ويطاقة لا حدود لها ووصل إلى السلطة بعد أن قتل حاكمين : توران شاه وقطن ولذا فهو يستحق اسمه عن جدارة ذلك أن " بيبرس " معناها فهد أو نمر شرس .

كانت سياسته العسكرية مكلفة للغاية ، إذ اعتمدت على سياسة ضريبية عنيفة وشرسة لم يعمل بها أحد من قبل .

ونذكر المقرئى أنه كان يهوى ممارسة أعمال الابتزاز لصالح خزانة الدولة ويفرض ضرائب باهظة على الأفراد ، واخترع وزيره غرامات وضرائب جديدة وقام بمسح أراضي الملاك وفرض عليهم غرامات باهظة وهلك الكثيرون منهم بسبب المعاناة والعذاب الذى حل بهم . كما قام بمضاعفة الخراج المفروض على أهل الذمة (وكان يجبرهم على ارتداء ملابس خاصة بهم) وطالبهم بدفع ضرائب أخرى كان يحصلها منهم بعد تعذيبهم بالسياط . واعتبر أن أراضي الغوطة ملك له وقرر ابتداء من عام ١٢٦٧ إجبار الملاك القدامى على دفع إتاوات . وعندما توجه إلى الأناضول فى حملة تصنع التمسك بالشريعة الإسلامية وجمال العلماء ، ورفع عن الشعب ضرائب استثنائية كانت مفروضة على المدينة والقرى المحيطة بها بمقدار مليون درهم . ورغم كل ذلك ، لم يتردد المقرئى فى الكتابة عنه قائلاً إنه كان أفضل الحكام الذين حكموا المسلمين وأنه لا بد أن نذكر انتصاراته على الفرنجة والمغول وأنقذ بذلك مصر وسوريا من الانقسامات وحمل سكاكنهما من العبودية والإذلال .

بدأ بيبرس بتنظيم بولته المترامية وتدعيم سلطته ، فعمل على تحديث الترسانة والأسطول وبدأ بتصنيع أعداد كبيرة من السفن الشراعية الحربية فى موانئ دمياط والإسكندرية ونظم البريد وأوجد مواقف للإبدال على كل الطرق بحيث تصل الأخبار من دمشق إلى القاهرة فى غضون أربعة أيام .

كان همه الشاغل حماية الشام ضد أى هجوم مغولى وفى الوقت نفسه الاستعداد لمحاربة الصليبيين فأوجد عدداً ضخماً من القلاع المحصنة فى عجلون وصلخد وبعصرا وبعليك .

اتبع بيبرس سياسة التعلق لأشراف مكة . وفى عام ١٢٦٣ أرسل بطريق البحر عددا كبيرا من البنائين والنجارين ومعهم كميات من المواد لإصلاح وترميم المسجد النبوى بالمدينة . وفى العام التالى أرسل كميات من الشمع والطيب والطور والزيوت . وفى عام ١٢٥٦ سلم أمير الحج مبلغ عشرة آلاف قطعة فضية لإعادة إنشاء المحراب النبوى . وفى عام ١٢٦٩ قام بأداء فريضة الحج .

ولجأ إلى رجال الشرطة مدعياً تطبيق الشريعة فمنع بيع المشروبات الكحولية أو تعاطيها ، وفى عام ١٢٦٤ منع البيرة . وفى عام ١٢٧٠ أمر بعدم حظر النبيذ وألغى الضرائب المفروضة على بيعه . وفى عام ١٢٧١ نفذ إصلاحات مهمة فى الجامع الكبير بدمشق .

وعلى الصعيد العسكرى قاد حرباً لا هوادة فيها ضد الإسماعيليين والمغول والصليبيين والأرمن وحقق عدة انتصارات وأوقف توغل المغول فى الشام . وبالنسبة للصليبيين وجه ضربات حاسمة وقلل من الممالك التى كانوا يسيطرون عليها وتقلصت إلى مجرد شريط ساحلى صغير . وفى عام ١٢٦٥ استولى على القيسارية وحيفا وأرسوف وتبنين . وفى عام ١٢٦٦ استولى على صفد . وبعد عامين تمكن من إخضاع الإسماعيليين .

وفى عام ١٢٦٦ أمر ببيبرس ببناء قصر له فى الميدان الأخضر سمي بقصر الأبلق وهو المكان الحالى للكنيسة السليمانية . ثم قام بتشييد قصر بالاسم نفسه فى القاهرة .

وفى يونية ١٢٧٧ وبعد عودته من حملة قادها ضد المغول عاد إلى دمشق للإقامة فى قصر الأبلق ابتلع بطريق الخطأ كأس السم الذى كان مخصصاً لأحد الأمراء الذى كان يرغب فى التخلص منه فأصيب بحمى شديدة وإسهال حاد ومات بعد بضعة أيام وعمره خمسون عاماً بعد أن حكم سبعة عشر عاماً .

وفى القاهرة ذكر المقرئى أن أحد أبنائه - الملك السعيد - شعر ببهجة عارمة لدى سماعه نبأ وفاة والده واعتلائه الحكم .

نقل جثمان بيبرس مؤقتاً إلى القلعة إلى أن يتم تجهيز مقبرة له ودفن بالمدرسة الظاهرية بدمشق التى أمر ابنه السلطان سعيد ببنائها .

وعندما اكتمل بناء المقبرة نقل جثمانه ليلاً من القلعة إلى الجامع الكبير وأقيمت الصلاة عليه ، ثم توجهوا به إلى المدرسة التى أنشئت له ودفن تحت القبة بحضور نائب -

سوريا ، والمدفن له باب دخول وقاعة مربعة الشكل يعلوها قبة ترتكز على عمودين أسطوانيين الشكل كل منهما ذو ثمانية أضلاع . والجدران الداخلية للقاعة الجنائزية مغطاة بلوحات من الفسيفساء الذهبية ذات التقنية البيزنطية . ويوجد محراب بين عمودين صغيرين فى منتصف لوحة متعددة الألوان ومزدانة بتشبيك زهرى بخطوط متعددة الزوايا . وفى الخارج ازدانت الواجهات الغربية والجنوبية بحليات محفورة حول كوة بيضاوية الشكل . أما الباب فهو الجزء الأكثر أهمية فى المبنى ، فقد ثبت داخل حائط مستطيل الشكل من الحجر الأسود والأصفر مع تكتسية بالرخام ، كما يوجد إفريزان عليهما كتابة بالخط النسخ المملوكى . تتكون القبة من أربعة صفوف من الزركشة المقرنسة Muqarnas يعلوها صدف .

وفى عام ١٢٧٨ وصل الملك السعيد ووالدته والأمراء والحاشية إلى دمشق وألغى الضريبة السنوية التى فرضها والده على حدائق الغوطة . وفى العام التالى أجبر على التنحى وعزل فى قلعة كيراك وأعطيت له كإقطاعية . وخلفه شقيقه الأصغر سلاميش البالغ من العمر سبع سنوات بوصاية الأمير قلاوون الذى كان يحكم بمفرده . وبعد مائة يوم ، أبعد سلاميش بدوره ولحق بشقيقه فى قلعة كيراك وأخذ قلاوون لقب الملك المنصور وتولى الحكم . وفى دمشق وما إن خلع السعيد بن بيبرس وتولى قلاوون السلطان حتى ثار سنقر الأشقر ١٢٧٩ حاكم الشام مؤيدا بفتوى من قاضى القضاة ابن خلكان . ولكن هذه الثورة أخمدت فى العام التالى .

وفى القاهرة عين السلطان قلاوون ابنه علاء الدين وليا للعهد وسار على رأس جيش قوامه خمسون ألفا متجها إلى دمشق وانضم إلى وحدات عسكرية من التركمان والعرب وبينما كان الجيش يسير بمحاذاة نهر العاصى لملاقاة المغول كان الناس فى دمشق قد انتابهم الرعب والفرع وأخذوا يتضرعون إلى الله لنصرتهم على العدو . وفى ٢٩ أكتوبر ١٢٨١ وفى سهل حمص ، وعند أول ضوء من الصباح وجد جيش المسلمين نفسه أمام خمسين ألفا من المغول وثلاثين ألفا من جورجيا واليونان وأرمينيا

والفرنجة . جهز قلاوون جيشه للمعركة ، وضع على الجناح الأيمن عرب القبائل وعلى الجناح الأيسر التركمان وفى الوسط الأمير تورونتاي نائب مصر ومعه السلطان قلاوون محاطا بالمقربين إليه وثمانمائة مملوك وأربعة آلاف فارس كحرس شخصى له ويشكلون القوة الرئيسية للجيش .

ومنذ اللحظات الأولى للاشتباك تحطم الجناح الأيسر للجيش المملوكى وتشنت المنهزمون ووصل بعضهم إلى دمشق واستعد سكان دمشق للهرب إلا أن المعركة تحولت فى النهاية لصالح المماليك ووصل الخبر بالنصر عن طريق الحمام الزاجل واطمأن الناس وعزفت الموسيقى . وفى ٧ نوفمبر وصل قلاوون إلى دمشق فى احتفال رسمى ثم عاد السلطان إلى القاهرة حيث وصلها فى ٦ ديسمبر .

وفى عام ١٢٨٦ قام تحالف بين المغول والفرنجة فخرق قلاوون الهدنة التى عقدت عام ١٢٨١ ، وجهز حملة فى دمشق وهاجم حصن المرقب وفى ١٧ أبريل ظهر أمام الحصن جيش قوى يضم وحدات عسكرية مزودة بنقابين وعمال حفر وصناع الأسهم النارية ومجهزين بعتاد حربي وأسهم للرماية ونفط وقاذفات لهب ومجموعة أدوات للحصار وأجهزة للحرب . وفى ٢٥ مايو وبعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوما ، استسلم رجال الدين المسيحى . وبعد عامين سقطت اللاذقية وتخلص شمال الشام من أى وجود صليبي ، وفسر رجال الدين المسيحى أن الكارثة التى وقعت هى عقاب من الله أنزله على المسيحيين لاختلاف آرائهم وبعدهم عن الإيمان .

وفى ٨ فبراير ١٢٨٩ وصل قلاوون إلى دمشق واستعد للتوجه إلى طرابلس لحصارها . وفى ٢٦ أبريل وبعد حصار دام أربعة وثلاثين يوما ، توغل جيش المماليك فى المدينة .

وبعد أن عاد إلى القاهرة عجل من استعداداته العسكرية للهجوم على عكا وهى مركز ورمز ما تبقى من الفرنجة فى الشام . وفرضت ضرائب باهظة على سكان دمشق وعلى قرى المرج والغوطة . وتوفى قلاوون فى ١٠ فبراير ١٢٩٠ .

وفى سبتمبر عام ١٢٩١ بدأت أعمال الإصلاح فى قلعة دمشق تحت إشراف النائب الأمير سنجرشوجاي ، فقد أعيد بناء قصر السلطان والقبة الزرقاء . وتم جلب الرخام من جميع مناطق الشام . أما فى دمشق فقد ذكر الجزارى " نزع الرخام من الأعمدة الرومانية الضخمة " . نفذت الزخرفة بعناية فائقة . ولتزيين الأسقف استخدمت كمية مقدارها أربعة آلاف مثقال من الذهب . اتسعت مساحة المصمار الأخضر باتجاه الشمال وخصصت أماكن للاستحمام بطول القنوات . وحسب ما ذكر الجزارى أن جميع الأمراء والقادة والجند وعدد كبير من سكان دمشق اشتركوا فى هذه الأعمال الخاصة بالتجميل .

تولى قيادة الجيش ابنه الملك الأشرف خليل الذى عين خلفاً لأبيه . وبعد أن أرسل نساءه إلى دمشق ظهر أمام عكا فى بداية أبريل ١٢٩١ ومزوداً بالآلات كثيرة للحرب . واشترك فى الدفاع عن المدينة رجال الدين وفرسان فى خدمة الكنيسة وفرسان الأرض المقدسة وجنود من قبرص وصليبيون وصلوا مؤخراً من أوروبا وتجار إيطاليين وسكان المدينة .

بدأ النقيبون عملهم فوراً وكذلك رجال المنجنيق والمختصين بعملية الحصار . وفى ١٨ مايو ، وعند الفجر أمر الأشرف بدق الطبول التى كانت موضوعة على ظهر ثلاثمائة من الجمل إيذاناً ببدء الهجوم الكبير . كانت المعركة ضارية ومخيفة .

وكتب أبو الفدا يقول : " قام المسلمون بقتل ونهب أعداد كبيرة " أما المقرئى فكان أكثر تحديداً : " فى اللحظة التى استولى فيها المسلمون على الموقع تقدم الفرنجة وكان عددهم حوالى عشرة آلاف يطلبون العفو عنهم فوزعهم السلطان على الأمراء الذين قاموا بذبحهم جميعاً " . وتبددت مغامرة الصليبيين وغرقت فى دماء آخر المدافعين عن عكا . وبدأ الهدم والتخريب المنظم للمدينة .

ووصلت أنباء الانتصار إلى دمشق عبر البريد الذى يحمله الحمام الزاجل ، وعمت الفرحة التى استمرت شهراً كاملاً واعتبر الأشرف محرر البلاد وبعد ذلك سقطت صور وبيروت وصيدا وعنتيت وطرطوس دون قتال عندما رحل الفرنجة منها . ومحيط الممالك

والإمارات الصليبية نهائيا من خريطة الشام . وكتب أبو الفدا قائلاً : " وهكذا تظهرت أرض الشام بالكامل والمناطق المجاورة لها من الفرنجة الذين كانوا على وشك غزو مصر والاستيلاء على دمشق " .

وإذا كان الفرنجة أبعدوا نهائيا ، فقد عاودوا الظهور مرة أخرى فى عام ١٩٢٠ ولكن فى شكل آخر . وبخل المغول فى الإسلام وعاودوا استئناف الهجوم . وفى عام ١٢٩٢ هددوا مدينة الرقة . ولكن الأشرف أصر على لقائهم .

وفى ٩ ديسمبر عام ١٢٩٤ اغتيل الأشرف داخل خيمته عندما كان فى رحلة صيد وذلك على يد مجموعة من الأمراء ، وكما ذكر المقرئى أنهم اشتركوا جميعا فى قتله بسيوفهم .

أدى اختفاء الأشرف إلى بداية فترة من الثورات الدموية فى القصر . وطوال السنوات الخمس التى تلت وفاته حدثت أربعة تغييرات فى الحكم . وأعلن المتآمرون يمين الولاء للأمير بيدارا الذى قتل بعد أن اختار الأمراء ابن قلاوون من أميرة مغولية وكان عمره تسع سنوات وسمى الملك الناصر محمد الذى بدأ بمطاردة قاتلى الأشرف وعذبهم جميعا بقسوة بالغة .

وفى الأول من ديسمبر ١٢٩٤ وبعد أن قضى عاما فى الحكم أبعد الملك الناصر وحل محله فى اليوم نفسه الأمير كتبغا النائب السابق على دمشق وأخذ لقب الملك العادل واستمر عامين فى الحكم . وذكر المقرئى (أنها كانت من أحلك الفترات التى مرت بدمشق حيث انتشر القحط والمجاعة والأمراض الخطيرة) . وفى ٧ ديسمبر ١٢٩٦ انتهز أحد المتآمرين على الأشرف وهو الأمير لاشين الذى كان حاكما سابقا على دمشق غياب كتبغا وأعلن نفسه سلطانا بلقب الملك المنصور . واستمال السكان إليه بورعه وحبه للخير لمرءوسيه .

ويمجرد اعتقاله السلطة منع شرب الخمر ولعب الميسر وألغى العديد من الضرائب غير القانونية .

وفى ١٦ يناير ١٢٩٩ انتشرت إشاعة بأن المغول سيهاجمون مصر وسقط المنصور بعد أن حكم لمدة عامين ضحية مؤامرة دبرها أمراء حاقدون (وطعن بالسيف فى كل جزء من أجزاء جسده بحيث لم يعد سوى كتلة مشوهة من اللحم وغير محددة المعالم) كما ذكر المقرئى . ولما بلغ الملك الناصر سبعة عشر عاما وضعه الأمراء على رأس الحكم بحيث لا يتخذ قرارا إلا بموافقتهم ، فكانت السلطة الفعلية بأيدي أميرين هما سالار المنصورى مدير الحكومة وبيبرس الجاشنكير القائد العام للقوات .

كان القائد غازان بن أرجوم يخيم على شواطئ نهر الفرات على رأس جيش ضخم قوامه مائة ألف رجل كما قال المقرئى وأخذ الملك الناصر طريقه إلى الشام ووصل إلى دمشق فى ديسمبر ١٢٩٩ فى الوقت الذى تجاوز فيه المغول حلب متجهين إلى دمشق . ووقع أول اشتباك قرب حمص وانتهت المعركة لصالح المغول عندما ناولش دروز كسروان الجيش المصرى وكذلك قبائل البدو الذين نهبوا أمتعتهم فرجعوا إلى دمشق .

استولى غازان على خزائن السلطان الموجودة بحمص وواصل مسيرته إلى دمشق وهرب نائبها أكدش الأفرم إلى القاهرة ليلحق بالسلطان هناك . وانتاب الناس ذعر و هلع شديداً " وخرجت النساء إلى الشوارع سافرات الوجوه وترك الرجال حوانيتهم وممتلكاتهم وفروا إلى خارج المدينة ولجأ عدد ضخم منهم إلى مصر " . ويقال إن نائباً سابقاً من دمشق يدعى "قبجاق" هو الذى تسبب فى استقدام حملة غازان المغولية . انتشر المغول فى المدينة ولقيت دمشق من جراء هذه الحملة شر الدمار خلال المعارك التى نشبت بين المغول الذين كانوا يحتلون المسجد وبين المماليك الذين كانوا يستميئون فى الدفاع عن أنفسهم بالقلعة ، وخربت ضواحي المدينة مثل الصالحية تخريباً تاماً وسوى جند حامية القلعة الأماكن المجاورة كلها بالأرض من باب النصر إلى باب الفرج . كما قام المغول بإحراق أقسام كبيرة من المدينة منها دار الحديث التى شيدها نور الدين وسرعان ما ارتد المغول وخضع "قبجاق" للسلطان الناصر ، وكان غازان قد عينه والياً من قبله .

ولكن فى ١١ فبراير ١٢٠٠ يئس المغول من الاستيلاء على القلعة وعلموا أن جيشاً ضخماً بقيادة الملك الناصر غادر القاهرة فرحلوا عن دمشق ونجت من غزوة المغول .

وفى أبريل ١٢٠٢ ظهر القائد المغولى مرة أخرى على نهر الفرات وكأنه يستعد لإرسال ثمانين ألفاً من رجاله إلى منطقة وسط الشام بقيادة قوت لشاه والذى انضمت إليه قوات ضخمة : ملك أرمينيا لى " يقضى على عقيدة محمد نهائياً (كما عبر بذلك الراهب الأرمنى حيثوم) ويسترد الأرض المقدسة للمسيحيين " . تم الاستيلاء على حمص " وقتل جميع المسلمين بالسيف دون استثناء " . ظهر المغول أمام دمشق وأصبح جميع السكان فريسة للرعب والخوف الشديدين " وقضوا الليل فى الجامع الكبير يتضرعون إلى الله أن ينقذهم " .

ولكن الملك الناصر ومعه الخليفة المستكفى والقراء " الذين كانوا يحثون المسلمين على القتال وأن موعدهم الجنة " كانا على رأس الجيش المملوكى وبدأت المعركة فى شقب بالقرب من دمشق .

وفى ٢٠ أبريل ١٢٠٢ هزم المغول هزيمة منكرة وانسحب عدد ضخم منهم إلى الغوطة ووقعوا فى كمين نصبه لهم أهل دمشق وأخذ من لم يقتل منهم أسرى أذلاء . وعم الفرح والبهجة أرجاء دمشق ونزل السلطان فى قصر الأبلق ولم تدم إقامته فترة طويلة بل عاد إلى القاهرة مسبقاً بالأسرى التتار مكبلين بالسلاسل ويحملون ، أو علقت فى رقابهم رؤوس زملائهم الذين قتلوا .

ويموت غازان عام ١٢٠٤ عقدت معاهدة سلام بين شقيقه أولجايتو والملك الناصر يتم بموجبها عدم التهديد مؤقتاً من جانب المغول .

بدأت بعد ذلك الفترة الثالثة من حكم الملك الناصر وهى أطول فترة فى تاريخ حكم المماليك وأكثرها أمناً والتى استمرت حتى وفاته فى يونية ١٢٤١ . وفى تلك الفترة من حكم الناصر ظل تنكز والى دمشق الذى كان يتبعه نواب الشام جميعاً أميراً على الشام ربع قرن (١٢١٢ - ١٢٣٩) وكان سلطانه فى الواقع مطلقاً . وقد

أسس مسجد التنكيزية كما أسس مدرسة لدراسة التفسير والحديث وأصلح الجدار الجنوبي الغربي المتهدم من الجامع الأموى . وبينما كان مشغولاً بترميم ما أحدثته النيران فى المدينة من تلف . غضب عليه السلطان فقتل شر قتلة وهو سجين فى الإسكندرية .

نقل المؤرخون والرحالة الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن الرابع عشر صورة عن دمشق فى عهد تنكيز تتميز بالرخاء والغنى الواسع .

كان النصف الأول من القرن الرابع عشر هى الفترة التى حكم فيها تنكيز دمشق . اشتراه الأمير حسن الدين لاشين عبداً مملوكاً وهو صغير من سوق العبيد بالقاهرة . وبعد وفاة سيده انتقل إلى خدمة السلطان الناصر . عين أميراً وهو فى العاشرة من عمره واشترك فى معركة شغب ضد المغول . وبعد فترة قصيرة من بدء الولاية الثالثة للسلطان الناصر ، عين حاكماً على دمشق وتولى منصبه رسمياً فى ٢٤ أبريل ١٣١٢ . " وفى عهده شعر الناس بالأمان وأنهم فى حماية ضد طغیان الأمراء وكبار الشخصيات حتى إن أيا من هؤلاء لم يكن يجرؤ أن يعبر عن غضبه ضد السكان أو يقترف ظلماً سواء ضد المسلمين أو أهل الذمة " .

وصل نفوذه وشعبيته درجة كبيرة حتى إنه بعد مماته كان قبره بمثابة مكان يحج إليه الناس ويزورونه ويؤدون الصلاة هناك " . وقد وجه المؤرخ الدمشقى ابن طولون إليه قدراً كبيراً من المديح لم يوجهه لأى شخصية أخرى ، فوصفه بـ"العظيم" ، "والعالم" ، "والممتاز" ، "والمتمدين" و"الذكى" ، "والموهوب بسلطة عظيمة" وأكثر من ذلك ، "موهوب بصفات اكتمال الرجولة" . كما أن تفوقه على السلطان حيث كان حماه وأن أبناءه تزوجوا من بنات السلطان الذى لم يكن يتخذ أى قرار فى القاهرة دون أخذ مشورته من دمشق . كان يوصف بأنه "سيد الأمراء فى الكون" . وذكر الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى أقام فى دمشق فى عهده عام ١٣٢٦ وقدّمه على أنه " أحد أعظم الرؤساء وأكثرهم نبلاً وشجاعة " . وفى الوقت نفسه الذى كان يضاعف فيه سلطته وثروته ، كان يضاعف من إقطاعياته ومناطق نفوذه وقواته ودخله .

ومثل جميع الوصوليين كان له ذوق ينطق بالترف والبذخ التفاضلى . وكتب ابن ساسرا يقول كل شىء على جواده الذى يمتطيه من الذهب حتى الرمح المستخدم فى الصيد " . وبعد وفاة الناصر عام ١٢٤١ صار غنيا بصورة رهيبه ، وقبض عليه واقتيد إلى الإسكندرية حيث مات مسموماً . وأثناء اعتقاله فى السجن وجد لديه حمولة ثمانمائة جمل من الذهب والفضة والملابس دون ذكر الخيول والبغال والعبيد " .

وفى جرد لممتلكاته ظهر أنها بالكثرة لدرجة أنها ملأت صفحات عديدة . فبالإضافة للمنزل الذهبى الشهير الذى قدر بستمئة ألف درهم . ومنزل الزمرد وأماكن عدة للإقامة بملحقاتها وحمامات وأماكن للضيافة (خانات) وقياسر (جمع قيسارية) وحدائق وبساتين وحقول ومزارع كروم وأرباع وأنصاف وأجزاء من قرى بل وقرى باكملها ومطاحن ، وكلها موزعة فى عدة مدن بسوريا .

تميز عصره بالاهتمام بالبنية التحتية ، فعمل على تنظيف وإصلاح قنوات المياه وإقامة مصانع للزجاج خاصة فى الضواحي الشمالية والغربية وإنشاء جسور . وحاول مد العمران إلى شمال غرب سور دمشق وطهر المدينة من الكلاب الضالة . وفى نوفمبر ١٢٣٢ قام بإصلاح باب توما وسجلت الإصلاحات على السالك العلوى للكوفة . وكان الجامع الأموى موضع عناية كبيرة منه ففى الفترة من ١٢٢٦ - ١٢٢٨ أعيد بناء الحائط الجنوبى لصحن الصلاة وتثبيت المحراب بصورة نهائية وإصلاح التغليف بالرخام الموجود بصحن الصلاة . وفى سبتمبر ١٢٣ تم إصلاح أحد شبابيك الرواق الغربى .

أما فى عام ١٢٣٩ فقد سقطت المنذنة الشرقية على أثر حريق ، ودمرت عدة أسواق مجاورة . واتهم حوالى عشرة من المسيحيين بينهم شخص يدعى الحالى الذى كان يقوم بسقاية المسلمين فى المساجد حاملاً المياه فى قرية مصنوعة من جلد الخنزير اتهموا بأنهم وراء تلك الكارثة التى وقعت ، فصلبوا جميعاً دون هوادة وقطعوا إلى نصفين بعد سبعة أيام . كان هناك تأكيد على التعاطف والتعاون من رجال الدين كالعلماء والقضاة والفقهاء وإعطائهم الفرصة لممارسة السلطة لاستخدامهم كأداة

لا غنى عنها فى إيجاد انطباع عظيم وإيجابى لدى الناس عن الحاكم ، وفى الوقت نفسه إقناعه ببذل الاهتمام نحو الشئون الدينية كوسيلة للتكفير عن الخطايا الموجودة فى الحياة السياسية .

لم يتوقف ولعه الشديد بالمباني عند حد ، بل امتد إلى إنشاء تكية فى القدس وقام بأعمال مهمة وبصفة خاصة جر المياه إلى مكة وإنشاء بيمارستان وخان وعدة مبان فى صفد ومنزل وحمام ومحلات بالقاهرة وفى دمشق ، فقد تم إنشاء وإصلاح ما يقرب من أربعين منشأة فى عهده .

وبالقرب من سوق البنورية وفى الموقع الحالى لقصر العظم اشترى دار الفلوس (القطع النحاسية) وجعله من أجمل منازل دمشق وأعطاه اسم : دار الذهب . وفى عام (١٣٣٨ - ١٣٣٩) أنشأ مدرسة للفقراء لتحفيظ القرآن ودراسة الدين .

وبجوار سوق السلال أقام عام ١٣٣٠ ضريحاً لزوجته سطيطة وكساه من الداخل بالجبص المنحوت . وفى عام ١٣١٧ أنشأ مسجداً واجهته ذات لونين ومزود ببيابن مزركشين . وقد تم إصلاح الواجهة والباب أثناء الانتداب الفرنسى . ويتميز المنذنة بأنها من الطراز المملوكى : قاعدة مربعة ، جذع عمودها ثمانى الأضلاع ، كوات بقنطرة برءوس متعددة الزوايا ، أعمدة صغيرة متراصة ، شرفات مجوفة ، دهليز بخرجة ذات زركشة ، درابزين مزدان ، كوات متشابهة ، أقراص من الخزف ظهرت لأول مرة فى دمشق . وكان هذا المسجد يعتبر من أجمل مساجد دمشق . وكتب المؤرخ الدمشقى أبو البقا : إنه الفن المعمارى الذى تجاوز كل الحدود . فالبنى به عشرون شباكاً على صف واحد وتطل على الأنهار ومراعى الميدان . وفى وسط الفناء ، عبر نهر بانياس ليتوضأ منه المصلون ، كما توجد ناعورتان (ساقيتان) تملآن حوضين (قادوسين) ، إضافة إلى تواجد جميع أنواع الأشجار والنباتات العطرية والزهور .

ويجوار الباب يوجد المدفن الذى دفن فيه تنكيز بعد إحضار جثمانه من الإسكندرية عام ١٣٤٤ . وكان المبنى مطابقاً للطراز الأيوبي . قبة بصلية الشكل مقامة على أسطوانتين كل منهما متعددة الأضلاع ، قاعة مربعة الشكل ، تلبس دقيق بالرخام الملون بتشبيك زهرى هندسى ، زخارف نجمية الشكل على قاعدة القبر ، بينما قبة المحراب دائرية بين شباكين فى الحائط الجنوبي ومكسوة بالفسيفساء وعجينة زجاجية مبطنة بالذهب .

ساعد السلم بين المدنيين والرخاء الاقتصادى على إنشاء مبان جديدة تجارية . إلا أن هذه المباني قد اختفت كلها ولكن أسماءها وأماكن بعضها محفوظة فى الكتب الأدبية .

وقد بنيت قيسارية عام ١٣١٥ سميت باسم "دهشة النساء" غرب الجامع الأموى لصالح الوقف وأخرى عام ١٣٣١ باسم قيسارية تنكيز .

وقد نقل إلينا المؤرخون والرحالة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر صورة عن الرخاء والثروة التى كانت سائدة فى دمشق تنكيز . وقد نقل المؤرخ الدمشقى العمرى وصفاً دقيقاً حيث بدأ أولاً بالحكم الذى يمتد من العريش جنوباً إلى السلمية شمالاً ومن الساحل فى الغرب حتى الرحبة فى الشرق ، مما يعنى زيادة كبيرة فى الضرائب التى كانت تحصل عليها الحكومة فى ذلك الوقت . أما عن المباني فيمكن أن تطبق ملاحظات العمرى على المدينة القديمة حالياً ، آثارها مبنية أغلبها ، ومنازلها صغيرة بالنسبة لمنازل القاهرة لكنها مزدانة أكثر . ومع ذلك فالرخام أقل استخداماً فى تلك المنازل . إلا أنه يوجد تنوع جميل .

ويوجد لدى السكان ذوق جميل وحس مرهف بالنسبة للمباني ، فهم يهتمون بتزويد منازلهم بحدائق . أما حلب فمبانيها أجمل لأنها تستخدم الحجر على نطاق واسع . إلا أن دمشق تتميز بسحر وجاذبية أكثر لأن المياه موزعة فى كل ركن من أركانها والمنازل مزودة بالمياه ويستخدم خشب الحور (الصفصاف) بدلاً من جنوع النخل ويشكله الطيبعى دون ألوان .

أما الأحياء الأكثر كثافة فى السكان ، فهى الأحياء الغربية والشمالية ذات المباني الجميلة وأسقفها مذهبية وأرضيتها مبلطة بالرخام وقريبة من الجامع الكبير . أما الأسواق فهى مخططة تخطيطاً جيداً والقياسر مبنية بشكل متقن . فالحرفيون وعمال البناء وصناع الجواهر وعمال التطريز .. كلهم مهرة فى الحرف التى يقومون بها .

ورغم كل الرخاء الذى كانت تعيشه دمشق وثناء أسواقها وجمال مبانيها ، فإن دمشق ظهرت أكثر جمالاً أيضاً بحدائقها وبفن الحياة الذى ينبع منها . فانتشار الخضرة بهذا الشكل فى مناخ شبه صحراوى جعلها موضع انبهار ، إذ توجد بها حدائق أو بساتين عديدة تروى بأنهار ومياه جارية وصافية تسر الناظرين . ويبلغ عدد الحدائق أو البساتين حوالى ثلاثين ألفاً وبها أشجار البرتقال والليمون والتفاح والرمان والعنب والتين والخضروات وجميع المنتجات الغذائية .

وقد تغنى العمرى بأسلوب شاعرى حين وصف دمشق قائلاً : "دمشق والصالحية بهما حدائق رائعة تجرى خلالها شبكة من الجداول التى تحيط بالأشجار الظليلة وتتمايل أغصانها طرباً لشدو الطيور .

تبدو الحدائق البهيجة والبساتين الشاسعة وقد أحاطت بها مبان جميلة وأحواض عميقة حيث تقام أجنحة وقاعات استقبال وتمتد حولها النباتات والخضرة وأشجار السرو الكثيفة والصفصاف وتنتشر الروائح العطرة التى تفوح من زهور الأشجار كما تعطى الفواكه الناضجة وآلاف الأشياء بهجة وروعة . وكل هذا بفضل نهر بردى وفروعه السبعة خاصة نهر تورا "نيل دمشق الحقيقى الذى ترتفع على شاطئيه المباني وأغلب الأجنحة وحيث يتنزه الناس أيضاً " . كما أن النظام الهيدرولىكى لتوزيع المياه متكامل ، فينتشر نهر القنوات فى أرجاء المدينة .. وتجرى مياهه فى قنوات تحت الأرض لتصل إلى المساكن والأماكن البعيدة . وتسير قنوات أخرى تحت الأرض للماء الفائض والخزانات ومياه الصرف وتتجمع بدورها وتكون مجرى مائياً يصب فى خارج المدينة ويروى الحدائق " . تكمن الذروة فى هذه الروائع ، فى الوادى الأعلى لنهر بردى . كما أن ماء المطر كاف والمياه الجوفية متوفرة وكذلك الشمس والمناخ المعتدل يكملان

الصورة الوردية . كذلك الجبلان اللذان يحيطان بدمشق وقد غطتهما زهور البنفسج والورود والياسمين تتفتح كلها باسمه ، وخير المياه يرد على هديل الحمام ، وتهب ريح الشمال على الأرض المفروشة بنباتات عطرة ونسمة الجنوب على الحقول التي تفوح عطراً .

وفى العقود الأولى لسيطرة المماليك تزايد امتداد مدينة دمشق إلى خارج حدودها بشكل كبير . وتعتبر الضواحي مهمة على جميع أطراف المدينة وأكثرها أهمية تلك المنتشرة فى الغرب والشمال . فالضواحي التي فى الغرب تؤدي إلى القلعة وإلى ميدان فسيح على شاطئ النهر وهو سوق الخيل ، وفى الوقت نفسه ميدان للفروسية .

أما ضاحية الشمال والتي تسمى العقبية ، فهي مدينة مستقلة قائمة بذاتها ، بها مساكن فسيحة ومبان كبيرة يسكنها عدد من الأمراء والعسكريين . وقد أكد جاك دى فيرون أهمية الضواحي قائلاً : " المدينة المحاطة بأسوار ليست شاسعة جداً . أما ابن بطوطة فكان أكثر دقة وتحديداً عندما قال : " تحيط بهذه المدينة ضواح من جميع الجهات باستثناء الجهة الشرقية . وتشغل حيزاً كبيراً ، كما أنها من الداخل أكثر جمالاً من المدينة ذاتها بسبب شوارعها الفسيحة " . كما ذكر لنا ابن بطوطة بعض خطوط عريضة لدمشق تنكيز التي بهرته : الجامع الكبير ، فالبناء فى حد ذاته يعتبر من أجمل مساجد العالم ولا يوجد نظير له ، ويعمل به سبعون مؤذناً وثلاثة عشر إماماً ، ولا تنقطع الصلاة فيه ولا قراءة القرآن منذ الفجر وحتى ثلث الليل . ويحضر إليه عدة مئات من الأشخاص لقراءة القرآن . كما ينتظم أشخاص عديون فى دروس دينية على أيدي أساتذة متخصصين حيث يتجمعون حول أعمدة ويفسرون للأطفال كتاب الله . كما تقيم هناك أعداد كبيرة لا هم لها سوى الصلاة وقراءة القرآن وذكر الله ، ويقومون للوضوء باستخدام طريقة الأواني المخزنة فى المنذنة الشرقية والتي يمددهم بها الأهالي مجاناً عن طيب خاطر وأيضاً كل ما يحتاجونه من أغذية وملابس .

أما عن أهالي دمشق فحسب رأى الرحالة المغربي " أنهم يتصارعون من أجل المنافسة فى تشييد المباني الدينية كالمساجد والزوايا والمدرسة والمدفن " ، وتصل إلى

حد الهوس المعماري كما حدث في عهد تنكيز . وأما عن غذائهم فإنه يتميز بالفراة ، فغالبيهم لا يأكل إلا ما يعدونه بأنفسهم . وكرم الضيافة مثالي عندهم ، إذ يعاملون الغرباء باعتبار وتقدير مع تجنب كل ما يجرح شعورهم أو يسيء إلى كرامتهم الشخصية ، كما أن سلوكهم نحو الموت جدير بالاحترام : "يتبعون نظاماً رائعاً عند السير في الجنازات ويسيروا أمام النعش ، بينما قارئ القرآن يتلونه بصوت جميل ومؤثر مما يدفع المشيعين إلى البكاء وطلب الرحمة والمغفرة من الله .

ومنذ سقوط عكا نقلت أكبر الأماكن التجارية في ذلك العصر وهي فينيسيا (البندقية) وجنوا وبيزا وبرشلونة مستعمراتها من الشام إلى قبرص ، ورغم جهود البابا لمنع أى تجارة مع الشرق إلا أنها لم تتوقف . وفي عام ١٣٠٢ وبعد إحدى عشرة سنة من انتهاء الإمارات الصليبية في الشام ، وصل سفير من البندقية إلى القاهرة وطلب تجديد الامتيازات القديمة . ولم تستمر العلاقات التجارية إلا فترة قصيرة في أرمينيا الصغرى ثم عادت أكثر نشاطاً في موانئ الشام : بيروت وطرابلس واللاذقية وارتبط نشاطهم بدمشق وحلب .

بعد وفاة تنكيز عاشت دمشق فترة من التدهور والانحطاط وعانت من تباعد الأنشطة العسكرية ، ودخلت في منافسة مع أكبر مدينة بعدها وهي حلب . كما أن زوال خطر الفرنجة واستمرار وجود التهديد المغولي على نهر الفرات أدى إلى نقل المسئوليات المتعلقة بشئون الحرب إلى حلب . وأصبحت عاصمة الشمال نقطة انطلاق لثمانى حملات كلت بالنصر ووجهت إلى أرمينيا الصغرى في الفترة من ١٣٣٤ و ١٣٤٨ . ومن ناحية أخرى فخلال السنوات العشر التي أعقبت وفاة السلطان الملك الناصر جاء على دمشق حكم سادة الفوضى والتنازع واقتتل فيه الأمراء على السيادة وعادت دمشق مسرحاً لهذه الحروب .

وابتداء من عام ١٣٣٠ استمرت الاضطرابات دون توقف حتى بداية القرن العشرين من جانب القبائل . وفي صعيد مصر ، وفي الشام على الحدود الشمالية والمناطق الشرقية عرقلت الهجمات على القوافل عمليات التبادل التجاري كما أن

الغارات التي كانوا يشنونها على القرى أثرت تأثيراً سيئاً على المحاصيل ، وأدت أحياناً إلى هجرة الزراعة وتدمير قنوات الري . وقد ذكر المقرئى أنه فى عام ١٣٠٢ أدت أعمال اللصوصية وقطع الطرق التي كان يقوم بها البدو فى صعيد مصر إلى عدم تحصيل الضرائب . وعندئذ أعلن الفقهاء والقضاة إباحة المقاومة المسلحة ضد هؤلاء الخارجين عن القانون ومثيرى الشغب : (تم ذبح السكان بالسيف وقتل الجميع دون شفقة أو رحمة . ووصل عدد الرجال الذين شقت بطونهم حوالى ستة عشر ألفاً وغطت رائحة الجثث المعفنة أرجاء البلاد) .

وبالإضافة إلى الاختلاسات من جانب ولاية دمشق ، فقد عانت المدينة من عمليات الابتزاز وسحب الأموال التي تتم بصورة منتظمة لصالح القصر فى القاهرة .

وفى العقد الأخير من القرن الرابع عشر ، حدثت منافسة شديدة بين مجموعة من المماليك كان من نتيجتها أن دخلت الإمبراطورية فى نومة من الاضطرابات استمرت حتى عام ١٤٢٢ بل وأدت إلى ظهور قوات من التتار فى دمشق . وفى ٢٦ نوفمبر ١٣٨٢ ، عزل آخر سلالة السلطان قلاوون وهو صلاح الدين حجبى البالغ من العمر أحد عشر عاماً وقام الأمير برقوق وهو عبد قديم تم شراؤه من أوكرانيا وادعى أن الإمبراطورية فى حاجة إلى حاكم قوى لإنقاذها وتقدم للسلطنة بناء على نصيحة الفقهاء الذين يرأسهم الخليفة . وبذا يكون برقوق أول سلاطين المماليك الشركس .

ولكن جاء على دمشق حكم سادته الفوضى والتنازع واقتتل فيه الأمراء على السيادة وعادت دمشق مسرحاً لهذه الحروب .

وحدث صدام بين برقوق ومنطاش الذى اصطحب السلطان الحجبى والخليفة إلى دمشق على رأس جيش ضخم فانسحب إلى صخب قرب دمشق .

وفى ٥ يناير ١٣٩٠ لم تكن نتيجة المواجهة لصالح برقوق الذى هرب من المعركة ومعه بضع مئات من الرجال ولكن الظروف ساعدته إلى اعتقال السلطان والخليفة

ومجموعة من القضاة وتوجه بهم إلى القاهرة . فى ذلك الوقت وصل منطاش إلى دمشق واستولى على قصر الأبلق وعين نفسه الحاكم الفعلى لدمشق .

من ناحية أخرى وصل برقوق إلى القاهرة ومعه الخليفة المعتقل فى ٧ فبراير ١٣٩٠ واستقبل فى القاهرة استقبال المنتصرين .

وبدأ يعد جيشاً لإعادة غزو الشام . وفى ٢٦ مايو ترك منطاش قصر الأبلق بعد أن علم أن جيشاً قويا فى طريقه من القاهرة إلى دمشق وتوجه إلى شمال الشام وهو انسحاب إستراتيجى .

وفى ٤ يونيه ١٣٩١ ظهر مرة أخرى فى دمشق على رأس جيش كبير وأقام مقر قيادته فى قصر الأبلق . وفى ٦ يونيه نشبت معركة طاحنة فى شمال غرب المدينة بين منطاش الوزير المطلق النفوذ وبرقوق السلطان المخلوع .

وفى ٢٦ يولية وعلى أثر تخلى عدد كبير من جنود منطاش عنه ، فقد أعطى إشارة الانسحاب . وبعد هذه الموقعة استعاد السلطان ملكه وعاد التنافس بين الأمراء مرة أخرى .

وفى ٢٩ يولية ١٣٩٢ انتهى موضوع منطاش ووصلت رأسه من حلب إلى دمشق فى سلة تابعة للبريد ، وطاف بها الناس فى أرجاء المدينة ثم أرسلت إلى القاهرة وعلقت لعدة أيام على باب زويلة ليشاهدها الناس . واسترد أهل دمشق الثقة والطمأنينة ، ولكن لم تدم فرحتهم إلا فترة قصيرة . ففى الشهر نفسه وصلت أنباء عن استيلاء جيوش تيمور لك على بغداد .

وقام تيمور لك بمسعى حميد لدى البرقوق وأرسل سفيرا إلا أنه عامله بازدراء وقام بقتله . واستعدت دمشق ووصل برقوق إلى دمشق بمصاحبة الخليفة فى ٢٤ مارس ١٣٩٤ . وفى أغسطس قام برقوق بجولة تفتيشية إلى محافظة حلب ثم عاد إلى دمشق حيث أقام بها حتى شهر نوفمبر قبل أن يعود إلى القاهرة .

وفى ٢٠ يونية ١٣٩٩ توفى برقوق على أثر أزمة صرع ، وحل محله ابنه الملك الناصر فرج . ومرة أخرى أعلنت دمشق رفضها الاعتراف بالسلطان الجديد وجهاز حاكم دمشق سيف الدين الحسنى جيشاً للتوجه إلى القاهرة ، لكنه هزم عند غزة وأسر واقتيد إلى دمشق حيث أعدم .

واصل الجيش المصرى مسيرته إلى الشام لملاقاة تيمور لك الذى احتل حلب ووصل إلى وادى نهر العاصى واحتل بعلبك وتجمعت القوات المغولية إلى الغرب من دمشق فى قرية قطننة قبل أن تتخذ موقعا لها فى داريا . واستمرت المناوشات فترة طويلة دون أن يحسم الموقف لصالح أى من الجيشين . وبعد معركة شرسة وعنيدة مال النصر إلى جانب تيمور لك وهُزم جيش الشام وتقهقر إلى أبواب دمشق بعد أن قتل أكثر من نصف جنوده وتشتت جزء كبير منه ولكن قوات التتار لحقت بهم وأبادتهم . " ولم يكن يشاهد سوى أكوام من الجثث فى كل مكان وجداول من الدماء وأسلحة وأعلام ورءوس مبعثرة على الأرض " . علم السلطان فرج أن ثورة يُعد لها فى القاهرة فغادر دمشق ليلا متوجهاً إلى القاهرة تاركا دمشق تتعرض لهجمات تيمور لك . " واستيقظ الناس فى صباح اليوم التالى وهم فى حالة ذهول ووجوم " . كما عبر بذلك ابن خلدون ، حاصرت قوات التتار المدينة وهى تحتمى بحائط ضخم من الفيلة احتل تيمور لك قصر الأبلق .

جاء هذا الفاتح الجبار تيمور لك من الشرق فحلت على دمشق نكبة عظيمة . وضرب على دمشق غرامة مليون دينار وعرف عظم أهلها وبعد أن جباها أطلق العنان للجيش بالسلب والنهب والقتل والفحش والتعذيب ثم وضع الحريق فى أرجائها فى يوم عاصف فعم المدينة وأتى على ما فيها من التحف والآثار وفعل ذلك فى الجامع الأموى ولم يبق غير جدرانه قائمة وذهبت المساجد والدور والقياسر والحمامات وأحياء منها .

وقد روى يوحنا شلبترجر البافارى الذى كان مملوكا فى جيش تيمور زمانا طويلا أن ثلاثين ألفا من النساء والرجال والأطفال حبسوا فى المسجد الكبير ثم أشعلت النار فيه .

وبعد أن فعلت جنود تيمور لك ما لا يحمل ذكره من الفتك والحرق والبهتك والتدمير حمل تيمور لك معه إلى سمرقند كل ماهر فى صنعة من الصناعات كالنساجين والخياطين والسيافين والنقاشين وغيرهم ، وأخذ عددا من العلماء والوجهاء فأفقر دمشق من كل الوجوه . فكانت هذه المصيبة من أعظم المصائب التى دهمتها فى كل العصور .

وفى نهاية مارس ١٤٠١ وبعد أن انتهى تيمور لك من إحراق قصر الأبلق ، أمر بأن يحرر جميع العبيد بالشام كبادرة منه على تسامحه وتفرغ للوقوف ضد تهديدات العثمانيين وترك معسكراته فى القبيقات وأرسل وحدات صغيرة لنهب تدمر وأنطاكية وحماة وسار على رأس جيش كبير إلى بغداد .

ترك خلفه دمشق وقد نزفت دماؤها وأصبحت فى حالة من الضعف والهزال بعد أن كانت تنعم بالرخاء والبهجة والفخامة فحولها إلى كومة من الأطلال والحطام وفقدت كل معانى الجمال والفن .

ورغم كل الإصلاحات التى قام بها الوالى شيخ الخساكى ابتداء من صيف ١٤٠٣ فى دار السعادة والجامع الأموى وبیمارستان نور الدين وعدة مدارس ، فقد لاحظ جيلبير دى لانوى أثناء مروره عام ١٤٢٢ أن تيمور لك قد محا دمشق من ذاكرة الزمن لكنها بدأت فى استعادة قوتها وبناء ما تحطم منها . وبعد عشر سنوات لا زالت آثار الكارثة واضحة .

وبعد رحيل تيمور لك استمرت الحروب الداخلية أكثر من عشر سنوات مما ساعد على زيادة الخراب واضمحلال الصناعات الحرفية والتجارة وفقدت الأموال قيمتها نتيجة التضخم وانحيار النظام البريدى والظلم القادح فى فرض الضرائب مما أدى إلى طرد الفلاحين من أراضيهم وتشجيع تسلل التركمان الذين خربوا الحقول ، هذا بالإضافة إلى زيادة الهجمات التى يقوم بها البدو على الأراضى الزراعية . وطوال فترة حكم السلطان الملك الناصر فرج التى استمرت ثلاثة عشر عاماً حيث دخل فى صراع مع العصابات والمجموعات التى كانت تعتمد على النول الرئيسية المنافسة لمصر

والشام . وفى عام ١٤١٢ هزمته قوات التحالف بزعامة الأمراء نوروز الحافظى والشيخ الخساكى فهرب إلى دمشق ، وعزل فى ٧ مايو ١٤١٢ ومات بالقلعة وألقى به خارج المدينة مع أكوام القمامة يسبه كل من تضرر منه بأذى. وبعد فترة عابرة للخليفة الدمية - المستعين - تولى الحكم الشيخ الخساكى بلقب الملك المؤيد .

وفى دمشق أخذت البقايا المشتتة ترجع إلى وطنها وتقيم ما تقدر عليه من الأبنية وتوافد الغرباء عليها من كل جانب فعمر بعض خراب دمشق . على أنها ظلت نحو نصف قرن تترنح من شقائها وفقدان أهلها الأصليين ولا سيما أهل الصناعات منهم إلى أن عادت فاستوت على قدمها ، وانتعشت بذلك صناعة الحرير والقطن والمنسوجات والسجاجيد والجلود والخزف . كما أن المنتجات الأوروبية أحدثت منافسة شديدة ولا زال أثرها باقيا حتى اليوم .

وتغير الميزان الاقتصادى لصالح الغرب مما حدا بابن خلدون (١٤٠٦) أن يرثى للحال التى وصلت إليها المدن الإسلامية من هبوط فى مستوى العلوم والطب والتعليم وتقهقر عام فى الحضارة ، كما لاحظ "تقدم الفنون فى البلاد غير الإسلامية مثل الصين والهند والأقاليم التركية والشعوب المسيحية التى يتوفر لديها كل ما يحتاجون إليه " . كما أن الازدهار والانطلاق الفكرى للغرب المعاصر ظهر كعنصر مستحدث . وكتب يقول : " علمت أن العلوم الفلسفية تلقى تشجيعاً كبيراً فى روما وعلى الشاطئ الشمالى المجاور لبلاد الفرنجة " .

استمر إصلاح الدولة المملوكية بالقوة نفسها فى عهد السلطان الأشرف برسباى الذى تولى الحكم فى أبريل ١٤٢٢ . وقهرت الثورات التى حدثت بالشام والاضطرابات التى قام بها البدو . ومنع أهل الذمة من التعيين فى الوظائف الإدارية ، كما أغلقت ممتلكات الأوروبيين بالشمع الأحمر الذين منعوا من العودة إلى البلاد ومنع تداول العملة الأوروبية واتخذت كافة الإجراءات التى تعمل على توطيد دعائم السلطان وتشجيع اتخاذ مواقف عدائية تجاه المسافرين الأوروبيين الذين يفدون إلى البلاد .

وفى دمشق " كان المسيحيون موضع كراهية شديدة " . وفى عام ١٤٨١ ذكر أحد المسافرين إليهم واسمه ميشو لام بن مناحم أن "اليهود فرض عليهم ارتداء عمامة صفراء فى جميع الأقاليم التابعة للسلطان " .

ولم تمنع تلك الإجراءات من التجارة مع أوروبا . ورغم كل الإهانات التى تعرض لها الأوروبيون ، فقد زاد عددهم فى مدن الشرق الأوسط . وفى عام ١٣٩٥ لاحظ السنيور دانجلور أن عدد النزلاء الفرنسيين والإيطاليين من البندقية وجنوا ونابولى ومن جزيرة قبرص ومن مارسيليا زاد عددهم بدرجة كبيرة فى القاهرة .

وضع برسبائى همه فى توفير الأمن للإمبراطورية فعمل على تقوية الدفاعات ، وفى البحرية أعد أسطولاً صغيراً من السفن الحربية وأنشأ تحصينات بطول الساحل . وقامت حملة عام ١٤٢٦ ضد القاعدة الرئيسية للقرصنة المسيحية فى شرقى البحر المتوسط وهى جزيرة قبرص حيث أسر ملكها جانوس . وكان ذلك أول انتصار بحرى إسلامى منذ عدة قرون . كما واصل القتال الشرس ضد التركمان ، وانتصر عليهم فى أميد (ديار بكر حالياً) وأجبرهم على الاعتراف بالسيادة المطلقة للسلطان المملوكى . ووصلت حدود الإمبراطورية إلى أقصى اتساع لها ، واستعاد الوضع الاقتصادى نشاطه وتم تداول عملة ذهبية : الدينار الأشرفى ليناكس الدوكا (وهى عملة ذهبية من البندقية) كانت تستعمل فى ذلك الوقت .

ولكى ينمى السلطان والأمراء عائداتهم الشخصية تدخلوا بصورة مباشرة فى الدورة الاقتصادية . فاحتكر برسبائى لصالحه زراعة القصب وصناعة وبيع السكر وبيع القطن الخام والمغزول .

وضاعف من عمليات الشراء الجبرى وبأسعار أعلى من السوق ، وهكذا وفى عام ١٤٢٩ اضطر التجار الأوروبيون إلى الشراء من السلطان أو من وكلائه التوابل القادمة من جدة بسعر ١٢٠ ديناراً للشحنة ، بينما لم يكن يتجاوز سعرها ثمانين ديناراً .

وفى عام ١٤٣٨ أصيب برسباى بالطاعون فأُسند السلطة إلى ابنه العزيز يوسف .
وبعد عدة أسابيع عزله الأمير سيف الدين جقمق وأعلن نفسه سلطانا باسم الملك الظاهر .

وفى عام ١٤٦٨ تبوأ الأمير قايتباى السلطنة وافتتح عهدا من المقرر أن يستمر
حتى عام ١٤٩٦ لأن المشكلة السياسية الرئيسية التى كانت تواجهه هى العلاقة مع
القوة المتصاعدة المسيطرة على الأناضول ألا وهى الأتراك العثمانيون . وقد أدى
الصراع بين الفئتين المتناحرتين إلى سحق الممالك واختفاء نظامهم نهائيا فى العقد
الثانى من القرن السادس عشر .

وفى عام ١٤٨٦ غزت الجيوش العثمانية سيليسيا واستولت على تارس وأضنة .
ولكى يعد الممالك قوات جديدة تلبي احتياجاتهم فرضوا ضرائب جديدة ومرتفعة ووصل
بهم الأمر إلى الابتزاز الذى امتد إلى جميع طبقات المجتمع كما كانوا يميلون دائما إلى
التمرد والعصيان إذا لم يحصلوا على المعونة و لم ينبج منهم أهل الذمة فقد
استدعى السلطان البطريرك المسيحى و الحاخام الأكبر لليهود بالقاهرة وأمرهما
بإخضاع جالياتهما لفرض ضريبة عالية لتوفير الأموال اللازمة للحملة القادمة وكتب
ابن إياس (تلك كانت بداية مصادرة الأموال و الممتلكات التى أصبحت ظاهرة عامة)
وفى الوقت نفسه ضاعف البدو من هجماتهم فى صعيد مصر والدلتا ومنعوا تزويد
العاصمة بالقمح وكذلك زادت غاراتهم فى الشام فى طرابلس وحلب وحماة و حوران
وفلسطين والرملة .

وفى عام ١٤٨٧ عرض بالأسواق خبز من الذرة الشامية فقط ، وحدثت مجاعة
رهيبة لم يحدث مثلها قط . ومات الفقراء جوعاً وسدت جثثهم الطرقات .

وفى عام ١٤٩٠ وبعد فرض زيادة جديدة فى الضرائب ودفع المنحة للممالك
ومقدارها مائة دينار عن كل رأس ودفع رواتب العسكريين أربعة أشهر مقدما ومقدار
ثمن جمل ، نجح قايتباى فى تجهيز جيش ضخم قدرت تكاليفه بخمسمائة ألف دينار ،
ووضع تحت قيادة الأتابك إزبك وهزم العثمانيين هزيمة فادحة عند القيسارية . وساد
الأمن والسلام حتى نهاية عهد قايتباى .



شكل رقم (١٧) قبر صلاح الدين من الداخل



شكل رقم (١٨) المدرسة الماريدانية ١٢٢٦ - ١٢٢٧



شكل رقم (١٩) المدرسة الركنية ١٢٢٤



شكل رقم (٢٠) قبة مقبرة الملك العادل على اليمين ١٢٢٢ - ١٢٢٣ ، في المواجهة باب وقبة المدرسة
الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨ ، وفي الخلف الجامع الأموي (قبة النسر ومئذنة قايتباي ١٤٤٨ .
وعن بعد قباب أسعد باشا (القرن الثامن عشر)



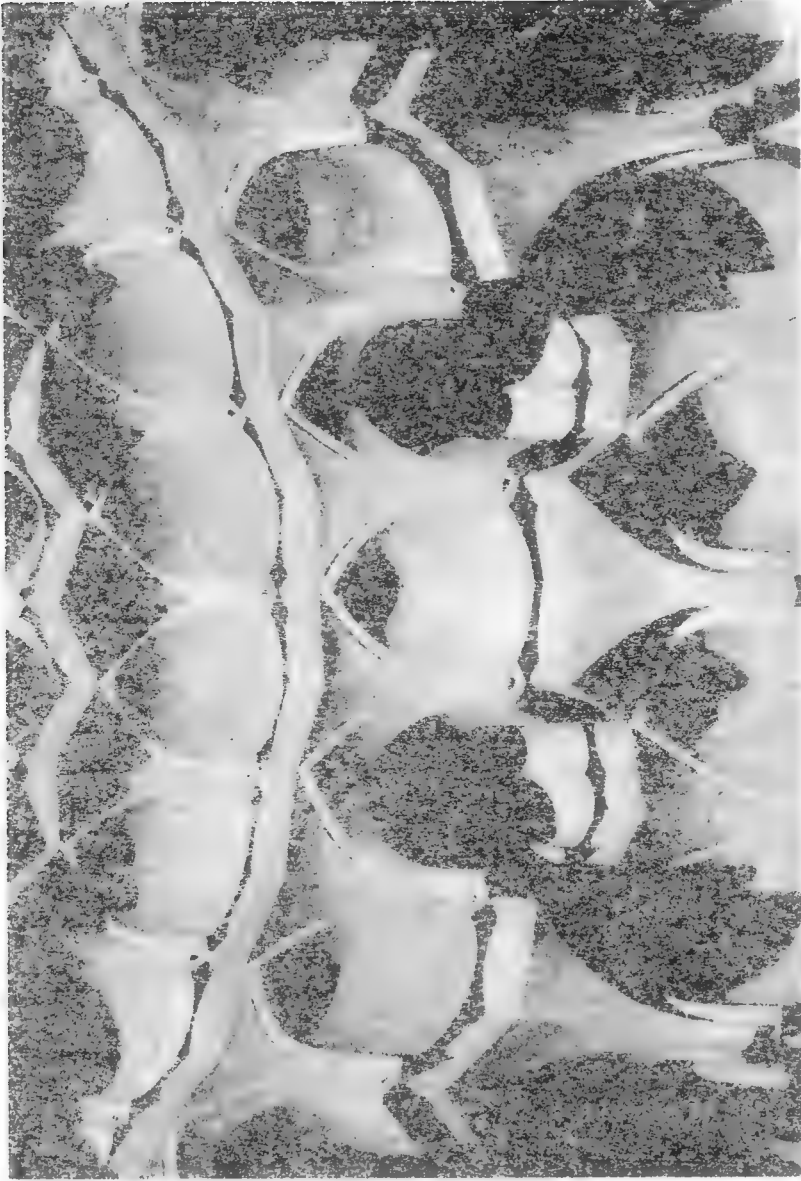
شكل رقم (٢١) المدرسة العدلية والظاهرية . وفي الخلف منذنة أنعروس وقبر صلاح الدين



شكل رقم (٢٢) فناء وواجهة صحن الصلاة لمسجد التوبة ١٢٥١



شكل رقم (٢٣) زخارف على باب المدرسة الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨



شكل رقم (٢٤) زخارف على باب المدرسة الظاهرية ١٢٧٧ - ١٢٧٨



شكل رقم (٢٥) المقبرة التكريتية



شكل رقم (٢٦) أحد أبراج القلعة



شكل رقم (٢٧) المسجد الجنائزي للأمير توريزي .

المنذنة وقبة المقبرة ١٤١٥ - ١٤٢٣



شكل رقم (٢٨) إحدى بلاطات الخزف سداسية الشكل التي تغطي قاعدة القبلة لمسجد التوريزي



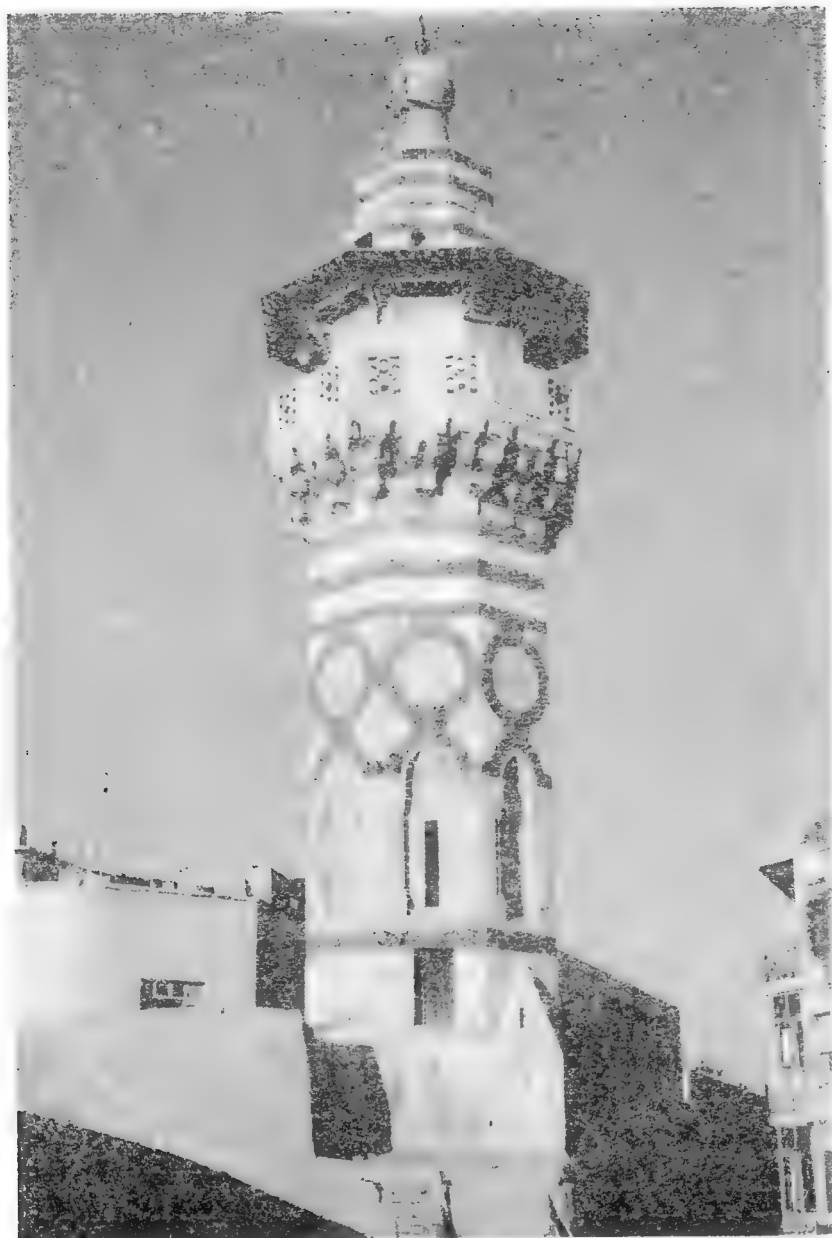
شكل رقم (٢٩) قباب حمام التوريزي ١٤٤١ - ١٤٤٢



شكل رقم (٣٠) القاعة الحارة لحمام التوريزى



شكل رقم (٣١) مئذنة القلعي ١٤٧٠



شكل رقم (٣٢) منئذنة المدرسة السباعية ١٥١٥

وفى خريف ١٥١٥ بدأ الفصل الأخير من مأساة الممالك ، إذ وصل أسطول
عثمانى يضم حوالى أربعمئة سفينة وهجم على دمياط والإسكندرية بينما تحركت
أعداد غفيرة من القوات المسلحة تسليحا كاملا على الحدود الشمالية للشام . وفى
القاهرة أعلنت التعبئة العامة فاستنفذت جميع الموارد بالخرانة . وتم شراء
إخلاص وولاء الضباط بألاف الدنانير : خمسة آلاف دينار للقائد العام سويون
عجمى ومائة دينار راتب أربعة أشهر أى ثمانية آلاف دينار ومبلغا يوازى ثمن
جمل لكل مملوك .

وفى ١٨ يونية " وفى موكب لم تشهد البلاد مثله " وبمصاحبة سيباى الذى كان
يحمل مظلة كبيرة للوقاية من الشمس وكذلك الهلال دخل قنصوه الغورى إلى دمشق
عن طريق باب النصر .

وكتب ابن إياس يقول : " كان يوما خالداً ، إذ كان هذا الموكب من الأحداث التى
لا تنسى " .

كانت المدينة مزدانة بالأعلام ، وفرق الدفوف والطبول تدق فى القلعة ، وكان
التجار الأوروبيون المتواجدون ينثرون قطعاً ذهبية وفضية تحت أقدام السلطان .
أما مدير النقد اليهودى صدقة فكان يلقي بقطع جديدة . وأقيمت مأدبة فاخرة على
شرف السلطان تبعها تبادل الهدايا : تلقى سيباى ثوبا للتشريفات ذا قيمة غالية جدا
ومطرزا بالذهب على أرضية خضراء تشبه ريش الحمام الزاجل ومزدانا بالذهب
ومطابقاً لذوق العصر كما قال " يلغا " . أما السلطان فقد تلقى أربع عشرة صينية
محملة بالدراهم الفضية وملابس ثمينة وحوالى عشرة خيول ومثلها من الممالك " الذين
تم اختيارهم من أجمل الممالك ويملكونهم أهل الكتاب " .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ يونية اتجه السلطان وجيشه نحو الشمال يتبعهم سيباى .
وفى ١٠ يولية وصل الجيش الملوكى إلى حلب . وقد أودع كاتوش الغورى فى القلعة
ثروته التى قدرت بمليون دينار بخلاف البضائع التى نهبت من أسواق القاهرة .

وفى الوقت الذى بدا فيه وكأن النصر يميل لصالح المماليك ، إذا بخير باك يغادر ساحة المعركة سرا وهو قائد الجناح الأيسر وترك جميع قواته وبدأت القوات العثمانية تطلق النار بكثافة فسادت الفوضى والاضطراب فى صفوف القوات السورية - المصرية . وقتل سودون عجمى القائد العام للقوات المسلحة وسيباى قائد الجناح الأيمن الذى بدأ يترنح وازداد التباعد والهروب من حول السلطان الذى لقي حتفه هو الآخر وعمره ٧٨ عاماً ، " وتركت جثته فى العراء طعاما للذئاب والحيوانات المتوحشة " ، وكتب أيضاً ابن إياس يقول : " اختفت سلطته فى لمح البصر كما لم يكن يوجد قط . إن السلطان وأمرأه لم يشغلوا بالهم إطلاقا بتحقيق العدالة ولا المساواة بين المسلمين فلقوا مصيرهم المحتوم جزاء أعمالهم وما اقترفوه " .

وفى معركة مرج دابق التى تشبه إلى حد كبير المعركة الفاصلة بين البريطانيين والفرنسيين عام ١٤١٥ .. هذه المعركة التى قضت للأبد على حكم المماليك الذى استمر أكثر من مائتين وخمسين عاماً .

لم يشترك جنود المماليك فى المعركة بل ظلوا " واقفين كخشب مُسندة " حسب تعبير ابن إياس . أسر عدد كبير من المحاربين والأمراء ومن بينهم تمران والى طرابلس وطراباى والى صفد وأصلان والى حمص .

أما محمود بن الغورى فقد اصطحب زوجته شقرا ابنة سيباى وأمها متجهين إلى مصر بأقصى سرعة . أما عن فلول جيش المماليك فقد تشتتوا بشكل فوضى وفى حالة يرثى لها دون زى عسكرى أو خيل وأغلبهم كان على ظهر حمير وبعضهم جرد تماما من ملابسه ، والبعض الآخر يرتدى جلبابا من البدو أو يلف جسمه بغطاء خفيف .

وبعد أن نهب العثمانيون مخيم المهزومين دخلوا حلب فى ٢٩ أغسطس وهرب كائوش أشرقى قائد القلعة مع الجيش المملوكى . استولى سليم الأول على خزائن الغورى وحضر صلاة الجمعة فى مسجد الأطرش .

أما فى القاهرة فقد نادى بعض الضباط بطومان باى سلطانا باسم الملك الأشرف ، بينما البدو يثيرون القلاقل فى كل مكان .

وفى دمشق أعلن انتخاب الأمير جنبرى الغزالى والى حماه فى ٢ سبتمبر . ولكن فى ٢١ سبتمبر تراجع مقتنعا بعدم جدوى مقاومة نيران أسلحة العثمانيين . وأرسل عائلته إلى مصر ثم لحق بها هو الآخر .

كان الوضع فى الشام فى غاية البشاعة حسب تعبير ابن إياس .

وفى يوم الخميس ٢٧ سبتمبر قرر الأعيان والشيخو الامتناع عن أى مقاومة . كان يونس باشا قد أقام مخيمه فى الميدان الأخضر ودخل المدينة بصفته الحاكم العثمانى وتجنب أى مواجهة مع على باى والى القلعة الذى قام بزيارة مجاملة له وأهداه ثوبا مطرزا بالذهب . وفى اليوم التالى نفسه ، تم الدعاء لسليم الأول فى خطبة الجمعة بالجامع الأموى ، حيث وصل فى اليوم نفسه على رأس جيش قوامه أكثر من مائة وثلاثين ألف رجل وأقام مخيمه فى القابون ، وهناك استقبل كبار القضاة الأربعة ثم الأشرف وألقى القبض على باى الذى حضر لتسليمه مفاتيح القلعة .

وفى يوم الجمعة ٤ أكتوبر توجه مباشرة إلى الجامع الأموى لحضور صلاة الجمعة . وفى أثناء الخطبة وصف القاضى الشافعى ولى الدين بن فرفور سليم الأول بأنه خادم الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة المنورة .

فى الوقت نفسه احتل الجنود العثمانيون عددا ضخما من المنازل وطردوا أصحابها دون مراعاة لسن أو مرتبة اجتماعية ، وألقيت محتويات المنازل من الشبابيك وكان ابن طولون المؤرخ قد وجد كتبه ملقاة على قارعة الطريق بعد أن احتلوا منزله . تحولت أماكن مقدسة كثيرة إلى إسطبلات أو مأوى للأغنام كما صادر السلطان مسكنا جميلا قريبا من المدرسة النورية وطرد جميع سكان الحى .

ولكى يضمن ولاء قبائل البدو حتى يتمكن من مواصلة السير إلى فلسطين صدق سليم الأول على تعيين رئيس البدو ناصر الدين بن حنش كمقدم لسهل البقاع واليا

على صيدا وبيروت ومنحه قرية نوى بحوران كإقطاعية خاصة له مقابل عدم تدخل قبائل المنطقة . وفى ٧ نوفمبر توجهت أول حملة إلى المدن الفلسطينية.

وبعد ثلاثة أيام علم سليم أن قواته احتلت بيت المقدس وغزة التى هزم بالقرب منها جنبردى الغزالى على يد الوزير الأعظم سنان باشا .

أما فى القاهرة فقد وقع السكان فريسة للرعب والهلع وفر بعضهم إلى الصعيد والبعض الآخر " واجه الموقف بأن اختبأ فى كهوف المقابر " وسرت بين الناس آلاف الشائعات حول فظاعة أعمال الجنود العثمانيين فى دمشق .

وفى يوم الإثنين ١٥ ديسمبر خرج سليم الأول من دمشق عن طريق باب الجابية متوجها إلى مصر بعد أن أرسل مبعوثاً إلى القاهرة يدعو فيه طومان باى إلى الاستسلام . تطوع الشباب وكونوا ميليشيات شعبية وحاولوا صناعة مدافع تركب على عربات صغيرة من الخشب تجرها ثيران أو جاموس . أقام الجيش معسكره الحصين فى الريدانية (العباسية حالياً) شمال القاهرة . وفى ٢٣ يناير ١٥١٧ أبيد الجيش على يد خصم مسلح تسليحاً جيداً وأكثر قوة وعدداً ، فقد ترك جنبردى الغزالى معسكر المماليك وانضم للسلطان العثمانى وأقام سرا علاقات معه.

قام الجيش العثمانى بإشعال الحرائق وسفك الدماء فى كل مكان بالقاهرة وتمت مطاردة المماليك وذرياتهم دون شفقة إلى المساجد والمقابر التى اتخذوها ملاجئ لهم وقطعت رؤوسهم فوراً وتكدست على هيئة أهرامات أو علقت بحبال وثبتت بأعلى عصى طويلة .

وبعد معارك طاحنة فى الضاحية الجنوبية للقاهرة ، هرب طومانباى إلى الصعيد . وكتب ابن إياس يقول : " تعرضت القاهرة لأشد محنة قاسية عبر تاريخها " . وقام العثمانيون والدمماء والخدم والرعا ع بمذبحة عامة قتلوا فيها ثمانمائة مملوك أمام الحاكم العثمانى . وانتشرت الحرائق ونهبت المقابر ومنها مقبرة الإمام الشافعى وعمت المجاعة فى كل مكان .

وفى ٢ أبريل وعلى الشاطئ الغربى لنهر النيل وعند الجيزة تجمعت آخر قوات طومان باى " التى أصيبت بالصمم من جراء قصف مدافع العثمانيين " حيث هزمت وأسر طومان باى على يد أحد رؤساء البدو وسلّم إلى سليم الأول الذى قتله وأمر بتعليق جثته على باب زويلة لمدة ثلاثة أيام " إلى أن فاحت الرائحة العفنة " . وهكذا انتهت فى هذه المذبحة الرهيبة دولة المماليك التى ظلت تحكم الشام ومصر لمدة ٢٥٧ عاماً .

ويذكر ابن إياس وابن طولون أن الشعب لم يشعر بأى تغيير إلا فى الحكام الذين أظهروا قسوة أشد من سابقيهم وأنه مجرد حدث بسيط فى الحياة العادية المحلية وليس حدثاً له وزنه وتأثيره وفتح عهداً جديداً فى حياة وتاريخ الشرق الأوسط . إنهم أترك حلوا محل أترك والفرق أن الجدد أترك انكشارية حليقو الذقن أما المماليك فكانوا ذوى لحى .

أصبحت القاهرة عاصمة إقليمية تحت سلطة خيرباك الخائن الذى باع نفسه فى مرج دابق . كان للأترك الجدد الطباع والمعاملة السيئة أنفسهما للمصريين العنف نفسه والاحتقار للفرد .

ففى أحد أيام شهر يولية ١٥١٧ كتب ابن إياس : " لإخراج بعض المدافع من القلعة ألقى القبض على المارة ووضعت حبال فى رقابهم وسحبوا منها حتى هؤلاء الذين كان يبدو عليهم أنهم يشغلون مناصب رفيعة وشخصيات محترمة ووضعوا على آلة التعذيب حيث ضربوا بالسياط " . وقد كان ذلك واضحاً وجلياً لتحديد مدى العلاقة بين الحاكم والمحكوم . وفى المدينة ظهر الجنود العثمانيون أكثر شراسة ووحشية من المماليك حيث كانوا يقتحمون المنازل ويستولون على ما بها من تحف وأشياء ثمينة وبيعها بثمن بخس ويقيمون فى ثكناتهم حفلات سكر وعريضة ويسرقون ملابس المارة ويخطفون النساء والأولاد لإشباع شنوذهم وغرائزهم الأكثر وحشية .

وفى منتصف سبتمبر ١٥١٧ ، عاد السلطان سليم الأول إلى الشام وأخذ معه - مثملاً فعل تيمور لئلا قبله فى دمشق - غنائم ضخمة : تحف نادرة ، وأوان نحاسية ،

أسلحة ، خيول ، بغال ، جمال ، رخام فاخر نزع من الأبنية ، ألف جمل محملين بالذهب والفضة ومئات الصنائع الماهرة فى جميع الحرف . كما أجبر عدة آلاف من الأعيان على الرحيل إلى إسطنبول : الأمراء وذريات كبار الضباط والقضاة ومساعدتهم والعلماء وكبار الموظفين والتجار والأغوات . كما نهب سليم الدخول الذى كان يحصل عليه الخليفة المتوكل والذى تنازل له عن منصبه . وكما قال ابن إياس " إن مصر لم تشهد مأساة منذ عصر نابوشو دو نصور البابلى الذى دمر البلاد وأشعل فيها النيران بمثل هذه الطريقة . وظلت أربعين عاماً إلى أن استعادت وضعها " .

وفى ٧ أكتوبر ١٥١٧ وصل سليم الأول إلى دمشق وأقام بها أربعة أشهر قبل أن يتوجه إلى إسطنبول فى ٢١ فبراير ١٥١٨ .

وظلت مدينة الأمويين مجرد عاصمة إقليمية للإمبراطورية العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .

ومما لا شك فيه أن النظام المملوكى كان أكثر النظم غربة عبر التاريخ الإسلامى كله . ذلك أن حفنة من العبيد " الأجانب سواء كانوا أتراكا أو شركس فى معظمهم تم شراؤهم فى ريعان شبابهم من أسواق القوقاز أو من آسيا الوسطى ونجحوا رغم كل العقبات التى صادقتهم على استمرار سلطتهم على الشام ومصر لمدة أكثر من قرنين من الزمان . إنه نظام لم يشاهد فيه السكان العرب إلا " حكم الأتراك " .

وهو نظام قائم على جلب شبان جدد وبصورة مستمرة ويدينون بالولاء التام لأسيادهم ، ويتولد عامل التآزر داخل التكتلات ، حيث يشعر كل أمير من الأمراء الكبار أنه سيستدعى إلى مناصب رفيعة والوراثة ليس لها أى مكان . فنظام كهذا الصعود فيه إلى العرش مخصص بصورة ثابتة إلى الأفراد الذين ولدوا ممالك ، وليس نتيجة سلالة أو نسل أو بالانتخاب أو الاقتراع ، ولكن بنوع من " الاختيار الطبيعى " بناء على الطمع والمكر والدهاء والعنف . فأولاد الأمراء الذين أحسن اختيارهم مثل آبائهم على تلك الحياة ولدوا أحراراً ومسلمين ولم يرثوا مخصصات عقارية . فعليهم إذن تأمين معيشتهم من خارج الجيش مما جعلهم ينخرطون فى وظائف دينية لتدر عليهم عائداً

كبيراً وغير محدود . أما المصير المأساوى لبعض أبناء السلاطين الذين جاءوا بعد آبائهم ، فقد ثبتت استحالة تنفيذ نظام تتابع الوراثة وأيضاً بسبب الفترة القصيرة للأسرة الحاكمة فى القرن الرابع عشر ، باستثناء أبناء السلطان قلاوون .

أما فى القرن الخامس عشر فقد حجز السلاطين الحكم بالوراثة لأبنائهم . وكتب خليل الظاهرى صاحب السياسة الميكيفيلية النفعية للممالك يقول : "إنه لبعد نظر قاسٍ تحتاجه الإمبراطورية كبقائها فى حالة هدوء وأمان " .

أبدى الممالك مهارة كبيرة كمقاتلين وأسسوا شرعيتهم تحت أعين "العلماء" والشعب فى التنظيم الإدارى والعسكرى حيث عرفوا كيف يفرضونه ويحافظون عليه بقوة وشدة حتى يجدوا الأسباب المقنعة لهذا النجاح . على رأس هذا التنظيم : السلطان ، وهو أول شخص من بين الأمراء يتم تعيينه من قبلهم حيث وجدوا أن السلطة التى تعتمد على القوة محدودة نظرياً على الأقل بواسطة أقرانه . وعندما يكتب إلى كبار الضباط الذين كانوا بالأمس زملاءه ، وقد يكونون بالغد منافسين له ، فإنه لا يستخدم لقب سلطان حتى لا يجرح شعورهم أو كبرياءهم ، ولكنه يذيل خطابه بتوقيع متواضع قائلاً : " المملوك " . أما هيلمان السلطة والعرش والعلم (الراية) والطبول والمظلة التى تحميه من الشمس ، فهى ملك للإمبراطورية ، ولكنه يتقاسم السلطة مع أمير المؤمنين . وحسب المفاهيم السائدة عن السلطة فى ذلك العصر والتى فسرهما خليل الظاهرى أن قوته هى ظل الله فى الأرض ، وأن العناية الإلهية تأمر العباد بطاعته طاعة "عمياء" وأن يذعنوا لأوامره التى ينطق بها كما يشاء ودون مراجعة . فهو يعتبر نفسه أنه يستخدم الصولجان والسيف بفتنة وضعها الله بين يديه لإقامة العدل والنظام والقضاء على الفوضى والعصيان والتمرد والفسق والجريمة وترسيخ دعائم الإمبراطورية بعيداً عن الإهانة من الخارج والعمل على احترام الحياة وممتلكات المواطنين ، باختصار : يتبع تعاليم الآية الكريمة " تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ " . من أجل ذلك فإن جميع الوسائل مطلوبة وفعالة . وذهب خليل الظاهرى إلى حد أنه أيد استخدام "التعذيب كوسيلة للحكم" .

يتمكن الوصول إلى السلطة عادة بثورة القصر التي هي موضع لوم وتوبيخ نتيجة عمليات القتل والتي قد تؤدي أحيانا إلى إعدام الملوك القديم الذي أصبح سلطانا . يتلقى التنصيب على أيدي الخليفة ، وهو إجراء شرفي لا بد منه للمحافظة على المظهر ، ولكن في الواقع نتيجة الموافقة الجماعية لكبار الضباط والأمراء وكبار القضاة والعلماء .

ويخلاف نسبة كبيرة من عائدات الأراضي ، فإنه يحصل على موارد عديدة بصورة سرية . وفي منتصف القرن الخامس عشر ، وكما حدد ذلك خليل الظاهري فكان جمرك الإسكندرية يحصل رسوماً عن التجارة مع الأوروبيين على التوابل القادمة من الهند وله نسبة منها وكذلك رسوم على السمسمرة والترجمة ورسوم على تكرير السكر ورسوم بنسبة ٥٪ على الممتلكات العقارية والعوائد التي يتم تحصيلها من عدة قرى والرسوم على مدينة بيروت كأكبر ميناء لتصدير التوابل عبر البندقية وأيضاً الاستيلاء على ممتلكات الأعيان الذين ماتوا دون وريث وممتلكات الحجاج والمسافرين الذين ماتوا في الطريق .

وبناء على أوامر السلطان كان الجيش مكوناً أساساً من فرسان جميعهم من المماليك القدامى أو من السلالات التي تم إعتاقها . وللعناية بهم وتدريبهم وتنشئتهم نشأة قوية كانت جميع إمكانيات الدولة الحيوية من تجارة وإنتاج تستنزف وتستغل لصالحهم دون حياة .

وكان تفوقه ومهارته ونظامه من الأمور التي تثير الإعجاب لدى جميع المراقبين . ورغم أن الخيول كانت تبنو صغيرة الحجم والأسلحة ضعيفة ومتخلفة ، إلا أن جاك دي فيرون ذكر أنهم كانت لديهم "شهرة واسعة كمقاتلين أشداء" . وأراد فيليكس فابري أن يضع يده على فاعلية تدريبهم العسكري بهذه الصورة : "كان الاهتمام هنا بموت الرجل أقل من الاهتمام بذبح دجاجة" . وقال لوبوفيكو دي فارتيتما : "شاهدت مملوكا آخر يجري بحصانه وينتزع سرج حصان آخر ويضعه فوق رأسه، وبعد ذلك يضع السرج مرة أخرى على الحصان وهو مستمر في الجري دون أن يقع من فوق الحصان الذي يركبه .

وأكد شرف الدين مؤرخ تيمور لك قائلاً " إن الفروسية المملوكية كانت أفضل فروسية فى العالم " .

كان الجيش عبارة عن فرق أفرادها من الممالك أو العبيد الشخصيين للأمرأ اشتروهم بأموالهم الخاصة ويتولون تعليمهم وتدريبهم العسكرى . وكان الحرس الشخصى للسلطان من الممالك وعددهم بالآلاف ويطلق عليهم اسم السلطانيون . كان لقلابون سبعة آلاف مملوك ويدينون بالولاء والإخلاص لسيدهم وكانوا يشكلون حامية القاهرة . وفى كل مرة يتم فيها تغيير الحكم ، يحتفظ السلطان الجديد بكامل حرس السلطان السابق أو بجزء منه ويضاف عليه ما يمتلكه قبل ذلك وما يستجد من شراء .

يأتى بعد ذلك جند الحلقة وهم أيضاً فى خدمة السلطان ولكن الأعضاء مزبونون بإقطاعية . يضم جند الحلقة حوالى ٢٤ ألفاً من الرجال ، مقسمين إلى فرق كل فرقة ألف رجل بقيادة أمير المائة . وأخيراً هناك الممالك حيث يتولى كل أمير رعايتهم والعناية بهم ويشكلون الحرس الخاص به . يأتى فى أعلى التدرج أمراء المائة وهم فى العادة يشغلون المناصب العليا فى الدولة حيث يمتلك كل أمير منهم مائة مملوك ثم أمراء الأربعين فأمراء العشرين وأخيراً أمراء العشرة أو الخمسة .

وكان ديوان الجيش مكلفا بإدارة الدخل من الأراضى الممنوحة كهبة . كانت أرض الإمبراطورية مقسمة إلى أربعة وعشرين جزءاً أربعة أجزاء للسلطان وعشرة أجزاء للأمراء وعشرة للجند .

وبالإضافة للمخصصات العسكرية للأمراء ، كانوا يشغلون أيضاً وظائف عليا مدنية تعود عليهم بدخل كبير . فى القصر السلطاني كانت هناك وظائف عليا ، ويرتدى كل شخص زيا خاصا يميزه حسب الوظيفة . فهناك النائب الذى يحل محل السلطان ، ورئيس النوبة ويرأس الممالك السلطانيين ، وأمير المجلس وهو الذى يحافظ على البروتوكول وأصول الألياقة ، وأمير السلاح الذى يجهز للسلطان سلاحه فى الاحتفالات

الكبرى ، وأمير الخور للإشراف على الإسطبلات ، وأمير الدويار وهو المسئول عن المراسلات ، والحاجب ويتولى تحقيق العدل بين الأمراء والجند ، والأمير جندار ويتولى تنفيذ الإعدام والأسطى دار وهو رئيس القصر ويشرف على الخزانة الخاصة للسلطان وإدارة المخازن الملكية والإشراف على المطبخ والخدم .

وهناك أربع إدارات كبرى يشرف عليها الوزير :

المراسلات وتحصيل الضرائب وإدارة الجيش والديوان الخاص للسلطان . وخلافا لرجال الجيش الذين كانوا جميعاً من " الأجانب " فإن الموظفين كانوا يختارون من السكان المحليين : مسلمين أو مسيحيين أو يهود .

وفى القرن الرابع عشر كان الدخل السنوى للأمير يتجاوز مليون درهم ، بينما مرتب رجل الدين لا يتعدى ٧٠٠ دينار سنوياً .

يحتل الممالك وضعاً مركزياً فى الدورات الاقتصادية وذلك باستثمارهم جزءاً ضخماً من عائدات الإقطاع المخصص لهم ومن إيراد اختلاساتهم وأصبحوا يشتركون فى ميراث الدولة المتمثل فى عقود الأوقاف المتنوعة والتى تشمل منازل وحوانث وطواحين وقياسر (مبان ضخمة تضم أسواقاً ومخازن ومستودعات) ومفردها قيسرية ، ومراكز تجارية وأسواقاً (خان) ومصانع لعصر الزيوت وأخرى لاستخلاص السكر من القصب وأفراناً وحمامات وإسطبلات ومخازن غلال وورشاً ومخازن عمومية وحقولاً وبساتين .

وقد امتلكوا أموالاً ضخمة مما ساعدهم على القيام بدور فعال كعمولين حقيقيين للمشاريع الأكثر أهمية . ففى دمشق كان من بين المؤسسين لمشاريع ذات طابع تجارى كالسوق والخان والقيسارية ، السلطان (خمس مشاريع) والأمراء (٢٨ مشروعاً) وذلك من واحد وأربعين مشروعاً . وهكذا ، ففى عام ١٢٩٢ قام أحد الأمراء بدمشق بشراء قيسارية القطن من خزانة الدولة وحصل على موافقة السلطان بنقل جميع تجار الحرير بالمدينة إلى داخل هذه القيسارية .

ولكى يضمن الأمراء عدم مصادرة ممتلكاتهم من قبل الدولة بعد وفاتهم حسب العرف الذى كان سائدا فى ذلك الوقت . خصصوا جزءاً من ممتلكاتهم وقفاً لصالح الجمعيات الخيرية .

وفى دمشق تم إنشاء وإصلاح وإعادة بناء ١٧٨ مسجداً ومدرسة وخانقاه فى عهد المماليك حيث قام الأمراء بتمويل إنشاء وإصلاح ٨٢ من تلك المباني وأغلبهم من النواب وعشرة من السلطان و ٢٥ من التجار و ١١ من كبار الموظفين والباقي وقدره (٤٢) قام به العلماء والقضاة .

واستناداً إلى الآية الكريمة : " أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ " . ومن هنا مارست السلطة السياسية إشرافاً دقيقاً على هيئة العلماء خاصة كبار القضاة وقاضى الجيوش ليكونوا ملتزمين بالطاعة والانقياد . وهكذا كان العلماء فى موقف صعب كمن وضع بين المطرقة والسندان : الشعب حيث من المفترض أن يدافعوا عن حقوقه ، والطبقة العسكرية الحاكمة لتأكيد ونشر السلطة بين جميع طبقات المجتمع ، وكذلك اشتراكهم وتحذيرهم الشعب من عدم دفع الضرائب غير الشرعية وإضفاء الطابع الشرعى عليها لأنهم كانوا يخضعون لضغوط مختلفة لإرضاء السلطان والأمراء حتى لا يحرموا من أموالهم ولا لشرف التقرب منهم .

ومع ذلك فقد كان تدخلهم لصالح الحكوميين له أثر كبير . ففى عام ١٣١١ أعلنت بدمشق مجموعة من القضاة وخطباء المساجد وعلماء الدين سخطهم وعدم رضاهم لفرض ضرائب جائرة .

ورغم إلقاء القبض على الزعماء لم يتم خفض الضريبة .

وفى عامى ١٤٧٧ - ١٤٧٨ ، تعرض أحد القضاة بانقاهرة لسخط السلطان قايتباى . ولم يعرف إطلاقاً عنصر الاتهام الموجه إليه ، وطافوا به فى الشوارع وهو مثبت على ظهر جمل ، وبدلاً من أن يقطع إلى نصفين حسب العادة المتبعة ، ويسبب تدخل أحد المسؤولين إعراباً عن الشفقة والرحمة ، اكتفى فقط بتعليقه على شجر جمين .

وفى نوفمبر عام ١٥٠٤ ، عاقب السلطان قانوش الغورى القاضى بدر الدين وعذبه عذاباً أليماً لا حدود له كما عبر بذلك ابن إياس ولم يعذبه أحد من المتخصصين فى عمليات التعذيب وإنما تم على يد أحد الحجاج ورئيس الخزانة وسكرتير النائب : " قاموا بسحق كعوب قدميه وركبتيه وعرزوا فى أصابعه أسياخا كانوا قد وضعوها فى النار مما أدى إلى تدمير سلاميات أصابعه . لم يستمر العذاب على وتيرة واحدة بل نوعوه :

استخدموا كلاباً فى نزع حلقات الثديين وحمروها فى النار وطلبوا منه أن ياكلها . ضغطوا صدغيه بحبل قنب حتى خرجت كل عين من حجاجها (تجويها) وتدلّت على الخدين . استمر المسكين فى العذاب دون سند قانونى يحميه .. لقد فاق العذاب أى احتمال يمكن أن يتصوره العقل " .

وفى عام ١٥١٢ ، وبسبب اختلاف بسيط فى تقدير موضوع تافه خاص بالعدول عن الاعتراف فيما يتعلق بجريمة زنا . رد السلطان وكان أيضاً القاسى قانوش الغورى على أحد القضاة قائلاً بأن حكمه هو الذى ينفذ أما حكمك أنت فلا قيمة له .

وكان المتهم شخصاً يدعى زنكلونى . بعد ذلك أمر بجلد القاضى ألف جلدة لأنه تجراً وخالف أمر السلطان . وبطبيعة الحال فاضت روحه من العذاب .

وإزاء هذه الظروف ، لم يكن يجرؤ إنسان على اتهام السلطة بعدم الشرعية أو الخروج عن الشريعة طالما أن الحاكم يؤكد أنه مسلم وأن الطابع الإسلامى للمجتمع بشكل عام لم يكن موضع اتهام .

كان هناك شعور سائد بأن الدكتاتورية أفضل من الفوضى ومن الحروب الأهلية ومن الخلافات والانقسامات داخل جماعة المؤمنين . كما أنه لا شئ يعرقل أو يقف ضد مذهب السياسة وهو المذهب الرئيسى فى القانون العام للمسلمين والذى بموجبه تتمتع السلطة السياسية بنوع من الاستقلال فى مواجهة الشريعة .

وليس غريباً أنه فى نظام كهذا أن يصل الإحباط والحقد الشعبى إلى حد اللجوء إلى العنف . فبصورة منتظمة وفى كل مناسبة يتم تعيين نائب غير محبوب من الشعب بالإضافة إلى حدوث نقص فى المواد الغذائية ، وخفض قيمة العملة ، وغلاء الأسعار ، وتعسف الممالك ، وفرض ضرائب جرافية ، وبيع إجبارى ، والقبض على أحد العلماء أو عزله ، ومضاربات غير نزيهة ، وفتن تنتشر ، وإغلاق الأسواق والمحلات ...إلخ.

وفى عام ١٤٠١ قام الشعب بطرد النائب . وفى عام ١٤٣٩ - ١٤٤٠ ، أجبر النائب تجار الأغنام على أن يبيعوا له بسعر أقل من السعر الذى يبيعون به وفى عام ١٤٧٥ - ١٤٧٦ ، هوجم أحد الوكلاء وأحرق منزله . وفى عام ١٤٨١ تظاهر تجار سوق الطواقيين وسوق جقماق داخل المسجد الأموى مما أدى إلى تدخل رماة السهام المماليك . وفى عام ١٤٨٨ طعن مبعوث السلطان الذى كان يحمل مرسوماً سلطانيا بزيادة الضريبة على سمسرة الحبوب . وأحرق جثته . وفى عام ١٤٩٢-١٤٩٣ وأثناء حدوث فوضى خطيرة ، هوجم النائب بالحجارة .

وفى قرى الغوطة اغتيل عدد كبير من الأمراء حيث كانت بعض القرى مثل المزة تتميز بمعارضتها الشرسة لسلطة المماليك .

واستغلالاً للانهايار الاقتصادى وعدم التكامل السياسى فى نهاية القرن الخامس عشر ، قامت عصابات شبه عسكرية من الشباب الذين كانوا فى سجون الأحداث قبل العصر المملوكى ، وظهروا فى دمشق تحت اسم الزعّار (مفردها أزعر) ويضعون فوق رؤوسهم غطاءً مميزاً لهم وكذلك ملابس خاصة بهم ، ويتم اختيارهم من قرى الغوطة ومن الأحياء الواقعة فى ضواحي المدينة مثل شاغور والقيبيات وميدان والحسا وباب المصلى والسويقة حيث يعيش فيها أناس قدموا من الريف ودخلوا فى المدينة حديثاً ، وغير منسجمين مع الحياة فى المدينة.

ورغم أن الحى لا يبدو وكأنه العامل الأساسى للتأزر وإنما فقط بمثابة قاعدة جغرافية للاختيار ، لأن كل حى له عصابته الخاصة به . وعلى رأس كل عصابة يوجد

"الكبير" وأحياناً يعطونه لقب "الشريف" أو "السيد" أو "قريش" وليس فى دوافعهم أية تطلعات دينية ، وإنما هم مجرمون ولصوص وسلايون . يقوم الزعار بدور مزدوج ومتناقض يعتمد على الظروف التى تتيحها السلطات المختلفة فى إدخالها فى إستراتيجيتهم ، فلا يترددون لكى يثبتوا وجودهم فى طلب الفدية من الشعب بالابتزاز . وفى وقت الاضطرابات يقومون بنهب الأموال ، وليسوا فى كل الأوقات المدافعون الشجعان عن أحيائهم ضد جشع جامعى الضرائب وقهر الممالك. وفى عام ١٤٩٨ - ٩٩ قتلوا أكثر من ثلاثين شخصاً فى الصالحية من بينهم رئيس الشرطة وأكثر من مائة شخص من داخل المدينة ، وقد شجعهم على ذلك العلماء . وفى عام ١٥٠١ - ١٥٠٢ ، أعلن النائب الجديد قانوش البرج حل عصابات الزعار وأوجد ضرائب استثنائية . فنظم زعار ميدان والحسا والشاغور مقاومة وهاجموا الثكنة العسكرية وانضم إليهم زعار من أحياء أخرى ، وامتدت المعركة إلى القبيبات وقنصوة .

ولعدم التمكن من السيطرة على النظام والأمن أرسل إليهم شيوخاً وقضاة للتفاوض ، وألغيت الضرائب غير الشرعية ، ولكن قتلت شخصيات رسمية كثيرة حتى تعترف السلطة بالزعار . وبعد فترة قصيرة ، وبسبب فرض ضرائب جديدة استؤنفت الاضطرابات وألقى القبض على زعماء عصابات الشاغور وميدان والحسا ، وهاجم الممالك الشاغور حيث وضعت المتاريس ، وخاض زعار الأحياء الأخرى المعركة مع زملائهم وتعرض جزء كبير من الشاغور للحرائق . وأخيراً استتب النظام ووافق النائب على هدنة عامة ، إلا أن كبير الشاغور أعدم .

وبالإضافة إلى العنف الذى ارتكبه الزعار فى العقود الأخيرة للنظام المملوكى ، هناك مجموعات أخرى تسمى "المنصر" أو "الحرامية" ، وهى عصابات إجرامية حقيقية منظمة تنظيمياً جيداً يرأسها أفراد بلقب "كبير" أو "ريس" ، ويهاجمون أماكن العبادة المنعزلة والمدافن والأحياء التى تدفع "إتاوات للحماية" ، ويسلبون منازل الأغنياء ويغتصبون النساء داخل الحمامات . وهناك مجموعات أخرى من أدنى درجات السلم الاجتماعى ويطلق عليهم الحرافيش ، وهم من البروليتاريا أو الطبقة الكادحة المعدمة ،

ويتكونون من المتشردين حيث التسول هو الوسيلة الوحيدة لقوتهم ومعاشهم . وليس لهم مأوى سوى أكواخ حقيرة والمساجد والحمامات والشوارع ، حيث يموت منهم العديد من البرد فى أيام الشتاء القارس^(١) . كما أن مظهرهم الخارجى وعاداتهم البربرية تثير الاشمئزاز وتنشر العار والفضيحة للمسلمين المحترمين . وأحياناً يظهرهم فجأة فى المساجد ، فيملأون الجو صياحاً وصرخات كلها قذف وسب . وكانوا يقومون بأعمال حقيرة ويحصلون على أجر متواضع لا يزيد عن درهم فى اليوم مثل نقل وحرق جثث الموتى بالطاعون وأسر ومطاردة الكلاب الضالة . وفى دمشق عام ١٢٩٩ - ١٣٠٠ وعند إعلان هزيمة الجيش المملوكى أمام القائد غازان ، نهبوا الحدائق وانقضوا على منازل الأغنياء ونزعوا الأبواب والأحجار الملونة والرخام وبلاطات الأرضية والشبابيك .

وكانوا ينظمون أنفسهم فى مجموعات على أنهم صوفيون . وابتداء من القرن الخامس عشر كان على رأسهم شيوخ لديهم بعض المعرفة عن العلوم الإسلامية . ولكن الأغلب أنهم ينتمون إلى عائلات المشعوذين والحواة أو حراس المقابر (تربية) أو خدم فى الحمامات .

وبالإضافة لطغيان السلاطين وقسوة الممالك كانت هناك تقلبات الطبيعة : زلازل وفيضانات وجفاف وأوبئة وحرائق وأسراب الجراد التى تحجب الشمس ، والتى أمامها تتضاءل أى مؤامرة أو ثورة وتصير لا قيمة لها .

ففى عام ١٢٨٤ هطلت أمطار غزيرة ومتواصلة ووصلت المياه إلى باب الفرادس وحطمت المزاليح وخربت كل ما كان بالداخل .

(١) رأى فيليكس فابرى أثناء مروره بالقاهرة عام ١٤٨٣ « أناسا كثيرين من الفقراء ينامون فى ميادين كبيرة يفترشون الأرض ويلتحفون بالسما . أما النساء الفقيرات فكن يرقدن فى الأرض يضعن مواليدهن فى الميدان على مرأى من الجميع ، إلا إذا بادرت بعض النسوة العابرات بتغطيتهن بطرحة (غطاء الرأس) . وفى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ذكر ابن جرير عن الذين ليس لهم مأوى بدمشق « كان هؤلاء الفقراء يبيتون فى الجزء الشرقى من الجامع الكبير لأنهم ليس لهم سكن يقيمون فيه » .

كما دمرت أعدادا كبيرة من المباني وذكر المقریزی أن الشعب عانى من خسائر لا حصر لها . وفى ١٢٨٢ - ١٢٨٤ كانت الفيضانات من الشدة والعنف حتى إن مخيم جيش قلاوون قد خلعتة السيول .

وفى ١٢١٦ - ١٢١٧ تسببت الفيضانات فى حدوث تلفيات خطيرة فى الغوطة وفى المدينة : تدمير ٨٩٥ منزلاً وسبعة عشر مخبراً وإحدى عشرة طاحونة وأربعين حديقة و ٢١ مسجداً وخمس مدارس . أما عن الجفاف فقد تكرر مرات عديدة وقام الناس بصلوات عديدة حتى ينزل الله الغيث عليهم .

وفى عام ١٢٩٧ كانت المياه فى نهر بردى ضحلة وشحيرة حتى إنها لم تكن كافية لإدارة طاحونة واحدة وأُتلفت أغلب المحاصيل .

وتجمع الناس فى مساجد مختلفة يؤدون صلاة الاستسقاء ويبتهلون إلى الله أن يرسل عليهم الغيث . وخرج الحاجب الأكبر وجميع أمراء دمشق حفاة القدمين وكذلك العلماء والشيوخ والفقهاء يبتهلون ويבקون تضرعاً إلى الله . كانت أعداد الناس كبيرة لا يمكن حصرها .

كما أن الأوبئة ومنها وباء الطاعون حصد أرواحاً كثيرة . وذكر ابن بطوطة أنه مر بدمشق أثناء عودته من الصين وأنه صعب من انتشار " الطاعون الجينى أى الخاص بسلسلة النسب حيث لا يكتفى بالقضاء على فرد واحد بل بجميع أقاربه أيضاً " حيث كان ضحاياه أكثر من ألف يموتون فى اليوم الواحد .

حدثت أيضاً عدة زلازل أرضية أشهرها الزلزال الذى وقع عام ١٢٠٣ ، وكما يقول المقریزی أنه من منطقة الشرق الأوسط بالكامل ، وطوال عشرين يوماً لم تتوقف الأرض عن الاهتزاز وفقدت أرواح كثيرة تحت الانقراض وتشققت جدران الجامع الأموى بدمشق . وانتشرت الحرائق بسهولة كبيرة فى المدينة ، وكان عام ١٢٩٦ أكثر الأعوام شؤماً . وفى ٥ مايو ١٢٩٦ كتب ابن سارسة ، " شب حريق لم ير أحد مثله والتهم سوق الحريريين جنوب المسجد الأموى وسوق الصابونيين وسوق القطنيين وسوق

الدقاقين (تجار الدقيق) وسوق الفرائين (بائعى الفراء) وقيسارية الصوف وقيسارية العباءات وقيسارية ابن البابی وعدد ضخم من النزل (الخان) . كما التهمت النيران الجزء الأعظم من ممتلكات التجار الأوروبيين لأنهم كانوا يقيمون فى تلك النزل وخاصة قيسارية ابن البابی . وفى العام نفسه شب حريق ضخم فى الحى الموجود خارج المدينة وقضت النيران على قيسارية يلبغا وقيسارية الطواشى (الأغوات) .

وفى ١٣ أكتوبر ١٤٧٩ التهمت النيران ثمانية أسواق ووصلت إلى الجامع الكبير وتهدمت المئذنة الغربية بفعل النيران .

ومن الناحية الإدارية قسم الشام فى عهد المماليك إلى ست نيابات (محافظات) وهى : دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد وكرك التى ضمت إليها غزة . كانت نيابة دمشق الأكبر والأهم حيث تمتد سلطاتها من شمال حمص إلى شمال كرك وعلى الساحل من صور إلى جبيل وإلى الشرق حتى تدمر .

ويعتبر نائب دمشق الممثل الفعلى للسلطان والشخصية المرموقة . وكان بيمارستان النورى والجامع الأموى تحت إشرافه المباشر . وفى أول يوم من تعيينه فى تلك الوظيفة يكون فى استقباله جمع غفير من القضاة وحامية الجند المكلفة بالحراسة بأكملها والموظفون والشيوخ من مختلف جمعيات البر والإحسان ومندوبو الأحياء وحشد كبير من الجمهور . وبمجرد وصوله إلى باب القلعة يضع النائب القدمين على الأرض ، يقلده فورا الحاجب الأكبر والحجاب الأربعة الصغار . ثم يتقدم نحوه قائد القلعة ومتولى الحجر والنقيب وينزعون سيفه ويفكون حزامه وبذا يتمكن من أداء ركعتين لله ثم يوضع حزامه على الرقبة بينما يمسك متولى الحجر سيف النائب . بعد ذلك يقدمون له البيرق الملكى فيقبله ويقبل الأرض ثم يمتطى الجواد ويدخل قصر الحكم . وهناك يقف ليستمع إلى القرار الرسمى بتعيينه بحضور القضاة حيث يقف أمين سر الدولة على منصة ويقرأ نص القرار . وفى كل مرة يرد فيها ذكر اسم السلطان المعظم وأى مدح يُنسب إلى السلطان فى هذا القرار ، يأمر الحاجب الأكبر النائب بتقبيل الأرض . ويقوم بعد ذلك بتوزيع ملابس التشريف على الموظفين كل حسب درجته .

أما كبار الموظفين المكلفين صراحة بالتجسس على النائب فيتم تعيينهم من قبل السلطان : الحاجب ، ومدير الشرطة وهو الشخصية الثانية بعد النائب ويحل محله فى حالة غيابه ، والوزير ، وأمين سر الدولة ، والمدير الإدارى للجيش ، ورئيس الشئون السلطانية ، مراقب الخزانة العامة ، وكبار القضاة الأربعة ، وخطيب الجامع الأموى . أما الوظائف المتوسطة فكانت تمنح إما عن طريق النائب أو السلطان ومن هذه الوظائف : مفتش الخزانة ، وقاضى الجيش ، ومفتى دار العدل ، والمحتسب ، إلخ . أما الوظائف الثانوية فكانت فقط من اختصاص النائب ومنها : شيخ الشيوخ ، والرئيس العام لجميع الخوانق (جمع خانقاه) ، وخطباء المساجد الأخرى ، رؤساء التعليم ، ومراقب نقاط الإبدال للبريد ، مراقب المسابك ، رؤساء المؤسسات الحرفية : كبير الأطباء ، كبير أطباء العيون ، كبير الجراحين ، إلخ ، ورؤساء نقابات أهل الذمة لأنه كما حدد القلقشندى " تعيينهم عاجز فى التسلسل الإدارى كما كانوا بعيدين عن قصر السلطان " : البطريق اليعقوبى وبطريق المليكيت (الكاثوليك والأورثوذكس فى ذلك الوقت) ، "ورئيس " اليهود ، ومندوب رئيس الساماريين بدمشق الذى كان يقيم بنابلس .

ولكى يتم تحييد مطامع وطموحات الذين يشغلون منصب نائب دمشق وحتى لا تتاح لهم فرصة التأمر ، كان قائد القلعة يتلقى أمر تكليفه بالوظيفة من القاهرة مباشرة دون أن يكون للنائب أى سلطة عليه وذلك بمرسوم سلطانى صادر مباشرة من ديوان السلطنة .

يتم تزويد قلعة دمشق بالمياه من نهر بانياس ، وأيضاً توجد آبار لتأمين توافر الماء . كما يوجد مستودع ضخم للأسلحة به سيوف وأقواس وسهام ورماح ودروع مرنة ذات زرد ويلطات ومنجنيق ومواد مختلفة ومخزن ملابس ومستودعات ممتلئة عن آخرها بالبسكوت والدقيق والزبد والعسل والعلف والماشية وذلك تحسباً لحدوث أى حصار . وقد قاومت القلعة مقاومة باسلة أثناء الحصار الذى قام به التتار .

وتعتبر القلعة أحد معالم الجمال بدمشق بعد الجامع الأموي .

فهى بمثابة مدينة نظرا لاتساعها وامتدادها ، ومزودة فى كل ركن من أركانها بخمسة أبراج عالية وضخمة ، كما أنها محاطة بجدران عالية جدا مبنية من الحجر المصقول إضافة إلى حفر ضخمة تعوق وصول العدو إليها مما جعل دمشق محمية تماماً .

وللعمل على سرعة توصيل الأخبار بسرعة بين العاصمة وأقاليم الإمبراطورية المتباعدة وخاصة أثناء تهديدات الفرنجة والتتار والعثمانيين ومؤامرات حكام الأقاليم ، نظم المماليك شبكة ثلاثية للاتصالات . " البريد بالخيول والبريد بالحمام الزاجل وأبراج الإشارات بالنار . سمي البريد بالخيول بالبريد حيث استخدمه السلطان بيبرس أثناء الحرب ضد الصليبيين والتتار .

وقد خصص بيبرس مبالغ ضخمة لإصلاح طريق البريد نظراً لأهميته وحفر آبارا للمياه وأوجد عدة نقاط للإبدال ووفر عددا ضخماً من الخيول والمؤن والعلف اللازم للخيول .

وبذا كانت عواصم النيابات والحصون الرئيسية والمدن الحدودية والساحلية على صلة منتظمة بقصر السلطان . وذكر القرىزى أن الأخبار كانت تصل بالبريد من القاهرة إلى دمشق فى أربعة أيام ، بينما المسافر العادى كان يقطع المسافة نفسها فى ثلاثة أسابيع فى ذلك الوقت .

وبجانب البريد كان هناك نظام البريد بالحمام الزاجل حيث استعمل أيام الدولة العباسية كما استخدمه نور الدين بوفرة حيث عمل على تحسينه وتطويره خاصة فى اتجاه حدود جبال طوروس والشاطئ السوري . النوع الثالث وهو الإشارات بالنار كان موجها أساساً نحو الساحل لتفادى خطر السفن التى تغادر جزيرة قبرص . ومن خلال هذه الإشارات تقوم قلعة دمشق بدور رئيسى ، وتحدد تلك الإشارات الاتجاه نحو السلم أو الحرب .

وفى عهد السلطان الناصر محمد ارتبطت بالبريد خدمة أخرى ليست لها علاقة به ، ألا وهى نقل الثلج من دمشق إلى القاهرة حتى يحصل السلطان على مشروبات باردة . وفى السنوات التى لا ينزل فيها الثلج على دمشق ، يتم تجميعه من الجبال وينقل من موانئ بيروت وصيدا إلى دمياط عن طريق البحر . ومن هناك ينقل عبر النيل إلى بولاق ويحمل على ظهر بغال إلى قصر السلطان حيث يخزن فى صهاريج .

لم يصمد البريد وملحقاته أمام الانهيار الذى أصاب دولة المماليك ابتداء من بداية القرن الخامس عشر وأصيب بالإهمال التام عقب وفاة السلطان الناصر محمد ، كما أن ثورات الأمراء والإفلاس المزمّن للخرانة وغزوة تيمورلنك التى أفرغت محطات الإبدال من الخيول ومن الأفراد عجلت بانهيار هذا النظام .

ولقى البريد بالحمام الزاجل المصير نفسه .

ورغم التمرد والعصيان والفتن والكوارث الطبيعية وغزوة تيمورلنك ، فقد عاشت دمشق فى أيام المماليك فترة من الرخاء العظيم لوفرة مياهها وحدائقها الغناء ومنازلها الجميلة . وذكر ابن بطوطة أنها " فاقت فى جمالها وكمالها أى مدينة أخرى " .

وشبهها الدمشقى بأنها " مثل طائر أبيض يحط على مرعى فسيح ويرتوى من المياه المتدفقة " .

تعتبر مدينة دمشق وضواحيها مكتظة بالمساكن والسكان حتى لم يعد بها مكان شاغر .

غير أن التطور العمران فى الضواحي لم يكن متناسقا ، وكلما وصل امتداد الحى إلى درجة معينة ، كان لابد من إنشاء جوامع كبيرة لتحديد تاريخ وحدود هذا التوسع العمرانى . وفى الجهة الشرقية ، وخارج الباب الشرقى ، لا توجد أى ضواح . وبمحاذاة الجهة الشمالية أنشئ حزام من الأحياء وفى كل حى أقيم مسجد خاص به : مسجد السقيفة فى باب توما ، الأقصاب فى باب السلام ، الجوزة والمعلق فى حى العقيية ، المؤيد ويلبغا فى حى يطلق عليه " تحت القلعة " ، والورد فى حى سوق

ساروجا . وفى غرب المدينة مسجداً سنجدار وتنكيز . وفى الجنوب الغربى وعلى طول طريق مصر فى حى السويقة يوجد مسجد التوريزى . وفى الجنوب وبطول طريق حوران والحجاز وفى حى الميدان يوجد مسجداً منجاك الكرىمى والتينبية . وعلى الطريق نفسه وإلى الجنوب من "ميدان الحصى" كانت توجد قرية القبيبات . وإلى الشمال وعلى سفح جبل قاسيون يوجد حى الصالحية حتى إن جاك دى فيرون ذكر أنه فى " هذا الحى بنى أكثر من ألف منزل فى مواجهة الجبل " .

وفى نهاية العصر المملوكى كان حى الصالحية يضم حوالى خمسمائة مسجد وعدة جوامع كبيرة .

تمتد الضواحي بطول الطرق المؤدية إلى الحجاز ومصر وبيروت لتتأخم الجزء الغربى من وسط المدينة .

وإذا كان هذا الجزء الغربى من المدينة ظل فى العصر المملوكى القلب النابض لدمشق وذلك لوجود القلعة والجامع الأموى والجزء الأعظم من الخان والأسواق ودار السعادة ودار العدل القديم الذى أنشأه نور الدين وتحول إلى مقر رئيسى الحاكم ، واستمر هذا النشاط أيام العثمانيين وحتى الوقت الحاضر .

وفى الجهة الشمالية من القلعة وعلى الشاطئ الأيسر لنهر بردى وفى مكان يسمى تحت القلعة تحيط به أحياء السويقات وساروجا والذى كان يقيم به أعداد كبيرة من الضباط ، يوجد سوق الخيل حيث يعتبر المورد الأساسى للجيش المكون من فرسان ولذلك فقد أصبح سوق الخيل المركز الرئيسى للحياة العسكرية إذ يقام عرض عسكري يومى الإثنين والجمعة من كل أسبوع يستعرض فيه الحاكم القوة بالكامل مع التفتيش على الأسلحة والمعدات .

وتحت القلعة يوجد سوق للمنسوجات وسوق للملابس الجاهزة وسوق للملابس المستعملة وسوق النحاس وسوق السكاكين وسوق تجار القرب وسوق الجلود المدبوغة وسوق الأقمشة وسروج الخيل وسوق الخيل والبغال والدواب والماشية وسوق الجمال .

وكتب سيجولى الفلورنسى يصف خارج دمشق قائلاً : "يوجد خارج دمشق بساتين تتسم بالجمال الرائع وعندما تكون أشجارها مورقة تحجب أشعة الشمس تماماً ويقضى الرجال والنساء هناك أوقاتاً ممتعة " . وذكر جاك دى فيرون أن عدد تلك البساتين تجاوز ثلاثين ألف بستان تحتوى أشجارها على "برتقال وليمون وتين وخضروات وجميع المنتجات الأخرى اللذيذة والمفيدة لجسم الإنسان " .

ومثل القاهرة وسائر المدن الإسلامية ، أنشئت دمشق من مجموعة متراسة من الأحياء سميت أحيانا حارات أو محلات .

وفى بداية القرن السادس عشر كان يوجد داخل المدينة حوالى سبعين حارة وحوالى ثلاثين فى حى الصالحية . وخارج المناطق التجارية التى تضم الأسواق والخان والمحلات تمتد الأحياء "الرئاسية" المزودة بجامع وحمام وتجارة بسيطة .

وفى أحياء اليهود والمسيحيين كانت السمة الواضحة التآزر فيما بينهم والمبنى على الترابط الدينى . أما فى أحياء المسلمين فكان هناك تآزر مبنى على عوامل مختلفة حسب الظروف حيث تتلاقى الأصول العرقية من تركمان وأكراد وفرس ومغاربة ويمنيين مع الأصول الريفية والانتماء إلى أى مذهب من المذاهب الأربعة .

وهكذا كان حى الصالحية ينتمى إلى المذهب الحنبلى وباقى المدينة ينتمى إلى المذهب الشافعى .

وإذا كانت " الطبقات " الميسورة تشغل الجزء الغربى من المدينة والضواحي الغربية والشمالية الغربية ، فليس هناك ما يدل على أن مستوى الغنى - مثلاً يحدث فى الغرب المعاصر - هو العامل الحاسم فى التمييز الاجتماعى . كما أن تضامن الأحياء وترابطها تدعمه المسؤوليات الاجتماعية والإدارية والجنائية المنوطة إليهم .

يعين الحاكم أحد الأعيان الرئيسيين ويعطيه لقب شيخ أو عريف ويعتبر المسئول والإدارى ومنذوباً عن الحى لدى السلطة .

فبالإضافة إلى عمله الأساسى وهو تقسيط الضرائب وتحصيلها ، فهو يتولى وبالتعاون مع باقى الأعيان والوجهاء والأمراء والعلماء والتجار الأغنياء صيانة المباني العامة والعناية بها وكذلك طرق المواصلات وقنوات المياه ، كما يتحمل مسئولية منع وقوع الجرائم والبحث عن الهاربين والمجرمين وأيضاً تأمين الحراسة الليلية وتطبيق التعليمات الصحية والإشراف على فتح وإغلاق المحلات ، وإذا احتاج الأمر يقوم بمنع البغاء وحظر شرب الخمر وتعاطى المخدرات .

وفى الحى المسيحى يقوم البطريك بدور الشيخ وتطبيق إجراءات تتخذها الحكومة تحت ضغط المسلمين تجاه أهل الذمة كأن تجبرهم على ارتداء عمامة زرقاء ومنعهم من ركوب الخيل أو البغال أو حمل أسلحة أو تشييد بنايات أعلى من بنايات المسلمين أو قرع الأجراس أو شراء عبيد من المسلمين .

وكان على رأس الجالية اليهودية أيضاً مسئول يمثلهم وكان بدمشق ٤٥٠ رب أسرة يهودية - جميعهم أغنياء وتجار ويتولى أمرهم يهودى يتسم بالعقل والشرف والتقوى وهو الطبيب ر. يوسف .

قام النائب سيف الدين يلغا ببناء قيسارية عام ١٢٤٧ خارج باب الفرج وكانت تؤجر سنوياً بمبلغ ٨٤ ألف درهم ويضاف إلى هذا الدخل الواضح مبالغ أخرى مستترة لأن الخان كان عبارة عن أماكن للدعارة وكان صاحب الامتياز دائماً من القوادين المشهورين ويقتطع جزءاً لا بأس به من الدخل لنفسه . كما كانت تلك النزول (الخان) مكاناً يتم فيه تحصيل الضرائب على البضائع المحلية والمستوردة فى خان خاص يسمى خان الجمرك حيث حل فى العصر المملوكى مكان دار الوكالة الذى كان موجوداً قبل ذلك .

شكل كبار التجار "طبقة" غنية وقوية وتحظى بالاحترام حتى إن بعضهم كان لديه ثروة تفوق ما لدى الأمراء وكانوا من كبار الملاك ولديهم أراضى شاسعة وأسواق ونزول (خان) وقياسر (جمع قيسارية) ومحلات وحمامات .

وكان عدد كبير منهم يقيم فى قصور حقيقية . وفى نهاية العصر المملوكى قام جان تينو بإجراء إحصاء فى القاهرة فوجد بها مائتين من كبار التجار الأغنياء وأكثر من مائة ألف صراف ذهب .

كما أن وضعهم الاجتماعى وتواطؤهم مع السلطة والأمراء - حتى إن بعضهم كان يشغل مناصب عليا بما فى ذلك وظائف القضاة والمحاسبين - أتاح لهم التهرب من الضرائب والانخراط فى أنشطة غير مشروعة مثل تجارة الخمر أو الخنازير مع التجار الأوروبيين بل وأيضاً تجارة الرقيق .

وبالنسبة للإسكندرية التى كانت قد خربت عام ١٣٦٥ ودمرت تماماً عام ١٤٩٥ وأصبحت غير مأهولة بالسكان ، فإنها ظلت الميناء الأكثر نشاطاً فى الدولة المملوكية والباب الرئيسى لدخول التجار الأوروبيين ومنهم تجار البندقية الذين كانوا يتمتعون بامتيازات تجارية خاصة زادت فى العصر الأيوبي .

وفى نهاية العصر المملوكى أدت اكتشافات البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح إلى تهديد التجارة فى البحر المتوسط وانحصرت التبادلات بين البندقية والقاهرة .

كانت دمشق المركز التجارى الإقليمى حيث كانت تستورد البضائع من كافة أنحاء الشام : الفواكه من منطقة دمشق والحبوب من حوران والأرز من منطقة الحولة والزيت من نابلس والألبان والحبوب من البقاع . كما كانت تصدر منتجاتها المصنعة والأيدى العاملة الماهرة من بنائين وعمال تركيب رخام وخزف وكانت تستقبل التجارة الدولية عبر القوافل البضائع التى ترد من كل بلاد الشرق من المملكة الأشورية ومن الهند ومن آسيا الوسطى والقوقاز . كما كانت دمشق تشتهر بمنتجاتها من الزجاج والمعادن والخزف والمجوهرات الذهبية والفضة والنحاس والمنسوجات الفاخرة من الحرير والبروكار والملابس المطرزة .

وذكر ميشو لأم بن مناحم أنه كان يوجد بدمشق أربعة أسواق رئيسية : سوق للأحجار الكريمة واللؤلؤ وسوق لكل أنواع التوابل وثالث لجميع أنواع الحرائر . أما السوق الرابع فكان للنحاس المرصع بالذهب والفضة .

وبعد رحيل تيمور لك ، فرغم تدهور الصناعات بها إلا أنها ظلت محط إعجاب الغربيين ، خاصة صناعة السيوف .

وقد شكل الحج فى العصر المملوكى عاملا مهما فى اقتصاد مكة . إذ كان له أهمية كبيرة كما كان يعرض أعدادا كبيرة من المسلمين لمواقف صعبة سواء فى الشتاء لشدة الأمطار أو فى الصيف لحرارة الجو ونقص مياه الشرب إضافة إلى تعرض الحجاج فى جميع الفصول لهجمات البدو حيث وصفهم ابن خلدون بأنهم " وحوش مفترسة " وقال عنهم ابن إياس بأنهم " أكثر بربرية من تيمور لك " ، فلم يترددوا من مهاجمة القوافل رغم إلحاق مفرزة مسلحة بكل قافلة ورغم دفع إتاة عشرة آلاف درهم تدفع لهم .

وقد ذكر الجزارى أن عدد المفقودين من الحجاج الشوام والعراقيين بلغ أربعين ألفا .

وفى عام ١٢٢٦ ذكر ابن بطوطة أنه لاحظ " اتساع الشوارع فى الضواحي وضيقها فى داخل المدينة وأنها كانت مزودة بأرصفة على الجانبين لمروء المشاة " . كما ذكر جاك دى فيرون وهو معاصر لابن بطوطة أنه وجد فى دمشق آثارا مصفوفة جيدا وميادين جميلة وشوارع فسيحة وأن جميع الشوارع كانت مغطاة ومزودة بفتحات للإضاءة نهاراً وللبات للإضاءة ليلاً .

أما سكان مدينة دمشق رجالاً كانوا أم نساءً فإنهم خاضعون للضريبة والسخرة رغم مبادئ العدل التى تنادى بها الشريعة الإسلامية ، ولكن لكى تضمن طبقة الممالك أن تعيش فى بحبوحة ويسر .

ويعيش أهل دمشق حياة الإنسان المؤمن ويتمسكون بالإيمان والصلاة والصيام والأمل .

ويعلق فارتيتما على سهولة الطلاق في الدول الإسلامية قائلاً : " تتزوج النساء إشباعاً لرغباتهن . وعندما تمل من الحياة مع زوجها تتوجه إلى قاضى الحى الذى تعيش فيه وتطلب الانفصال والخلع عن زوجها ثم تتزوج رجلاً آخر ويأخذ الزوج امرأة أخرى " .

وأهم ما يلفت نظر الأجانب فى الآثار الموجودة بدمشق الجامع الأموى لأنه يذكرهم بأن جسد القديس يوحنا المعمدان مدفون به . وكان الدخول للجامع غير مسموح به لغير المسلمين .

وقد أكد جاك دى فيرون أنه " لم ير أى كنيسة فى جميع مناطق إيطاليا بهذا الحجم وهذا الجمال مثلما رآه فى الجامع الكبير " . وتعتبر هذه شهادة تقدير - دون أن يدري - للعمارة الإسلامية .

ربما اطلع على داخل المسجد من خلال أحد أبوابه . فهو مبنى ضخم يتسم بالجمال المبهر . ويطول كل جانب من جوانبه تتوفر المياه المتدفقة ، وله أربعة أبواب جميلة وصحن مربع على هيئة رواق ومبلىط ببلاطات من الرخام والمرمر المصقول . والجدران التى توجد فى أعلاها القباب التى تحملها أكثر من مائة عمود من الرخام مزينة بالفسيفساء المطعمة بالذهب . يشع النور فى أرجاء الجامع من الداخل حتى فى وضوح النهار وبه أكثر من ألفى مصباح .

ورغم ذلك صارت دمشق بعد القاهرة كمعمل تفريخ للآثار الإسلامية . فمن جوامع ومدارس وحمامات ونزل (خان) ومقابر بالمئات والمآذن التى تضاء طوال شهر رمضان .

وقد سجلت المدرسة الظاهرية على أنها أول الآثار المملوكية فى دمشق وعلى أنها فى الخط المستقيم للعمارة الأيوبية منذ نهاية القرن الثالث عشر . كما تعتبر مقبرة

السلطان كتيبغا (١٢٩٤-١٢٩٦) التى بنيت عام ١٢٩٦ فى غرب الصالحية كأول دليل ظهر على التغيير .

وفى نهاية العصر المملوكى ظهرت: مئذنة المدرسة السباعية ولم تنفذ التغطية الخارجية لها بالحجر ولكن اتبعت تقنية سوف تعمم فى العصر العثمانى وهى التغطية بالجص أو الجبس الملون بحيث يملأ الثقوب الخفيفة فى واجهة الجدار . وبالنسبة للمساجد ، كانت العمارة المملوكية فى مصر تقتبس نماذجها من آثار الفاطميين الرائعة . أما فى الشام فقد ظل النمط المعمارى للجامع الأموى هو المرجع .

وفى الصالحية - أمام دار الحديث الأشرفية - يقام ضريح تقى الدين التكريتى الذى توفى بدمشق عام ١٢٩٩ عن عمر يناهز الثمانين عاما وهو أحد مماليك السلطان قلاوون القدامى وشغل منصب الوزارة فى دمشق فى عهد خمسة سلاطين : قلاوون والأشرف خليل والناصر محمد وكتيبغا ولاجين . يعكس المبنى الطراز المملوكى الذى كان سائداً فى نهاية القرن الثالث عشر والنزى كان متأثراً بالإنشاءات الأيوبية .

يفتح باب الدخول الموجود فى الواجهة الجنوبية على بهو مستطيل تعلوه قبتان بنتوء بارز .

يؤدى البهو إلى القاعة الجنائزية على اليمين ، وهى مغطاة بقبة مقامة على عمودين أسطوانيين الشكل أحدهما بثمانية جوانب والآخر بستة عشر جانبا من الحجر المصقول . وعلى اليسار قاعة للصلاة مغطاة ببروز .

وقد تم تحويلها هذه الأيام إلى مكتب . أما الواجهة فهى من الحجر المصقول ومبنية بشكل جميل وبها أربعة شبابيك منخفضة اثنان على اثنان واثنان على قاعة الصلاة . ويعلو كل شباك ساكن حسب التقاليد الأيوبية . يوجد إطار حول الباب لنقش الكتابة عليه .

كما يغطى بقبة ذات ثلاثة صفوف من الزركشة Muqarnas يعلوها صدفة .

وقد استخدم الجص (الجبس) فى زخرفة صحن المسجد المخصص لإقامة الصلاة فى القرن الرابع عشر بعد نهب تثار خازان المدينة عام ١٢٠٠ وبعد الحريق الذى شب فى ضاحية الصالحية . والنمط الوحيد الباقى فى دمشق من هذا النوع هو المطابق للتقاليد الأندلسية التى انتشرت على جدران الحمراء وغرناطة .

وعلى الشاطئ الأيسر لنهر بردى وإلى الغرب من سوق الخيل وفى الموقع نفسه الذى كان يشنق فيه المجرمون ، أنشأ الأمير يلغا الجامع الكبير عام ١٢٤٧ ، وكان مملوكا للملك الناصر ويهوى ركوب الخيل ومغرمًا بالفن المعماري .

ونذكر ابن طولون أن يلغا كان حاكمًا لحماة ثم حلب ، وعندما عين فى دمشق عام ١٢٤٥ ، عمل إنشاء قبة النصر فى مسجد القدم وقيسارية خارج باب الفرادس وحمامين خارج باب الجابية .

وفى عام ١٢٤٧ شرع فى بناء مسجد القدم ، إلا أن السلطان قيد حريته وانتهى المسجد عام ١٣٦١ ، حيث وجدت بقايا نص محفور على لوحة خشبية فى الزاوية الشمالية الشرقية لصحن الصلاة . ووجد نص آخر فوق باب المؤذنة ، أن نائب دمشق سيف الدين تايىنك قد أمر بإصلاح المبنى "قبابه وقاعاته وطلاؤه على نفقته الخاصة" . وقد دمر المبنى بالكامل عام ١٩٧٥ أثناء التوسعة العمرانية . وكان يطابق فى بنائه الجامع الأموى . صحن مستطيل لإقامة الصلاة بطول ٦٢ × ١٢ مترًا ينقسم إلى قاعتين يفصل بينهما اثنتان من البواكى موازيان لحائط القبلة .

وتوجد على حائط القبلة لوحات جميلة من الجص المنحوت تشبه تلك الموجودة فى مسجد السلطان حسن بالقاهرة . وقد انهارت القبة فى القرن الثامن عشر . وفى القرن التاسع عشر ، وأثناء وجود القوات المصرية فى الشام فى عهد إبراهيم باشا ، تحول إلى مصنع للبسكوت .

يقع مسجد منجق فى حى الميدان جنوب مضمار سباق الخيل المعروف باسم مضمار الحصى ، والذى بناه الأمير سيف الدين منجق عام ١٣٦٨ بعد أن كان

وزيراً بالقاهرة وحاكماً على طرابلس ونائباً على دمشق مرتين . اشتهر بالعدل والكرم فأحبه الناس .

بذل منجق كل جهده للعناية بدمشق وأمر بتنظيف الحارات وأنشأ عدة مبان منها زاوية فى قرية الكسوة . تعتبر منذنة مسجد الميدان مطابقة للنمط المملوكى وهى الوحيدة التى ظلت قائمة حتى عهد قريب .

وفى حى باب السلام وعلى بعد مائتى متر من نهر بردى أقيم مسجد يعرف الآن باسم الزينبية ولكنه حل محل مسجد أقيم فى القرن الثانى عشر كان يعرف باسم مسجد الأقصاب (البوص) .

وهو مقام على موقع كنيسة بيزنطية قديمة ، ويقال إنها كانت تضم رؤوس عدد كبير من الصحابة الذين أعدمهم الخليفة معاوية ، ثم عدلت عام ١٢٣٤ - ٢٥ على يد الأمير الأيوبي الأشرف موسى ثم فى عام ١٣٢٨-٢٩ على يد النائب القوى تنكيز ، ثم هدمت بالكامل على يد محمد بن منجق الذى بنى مكانها عام ١٤٠٨ مسجداً لا يزال موجوداً حتى اليوم . يتكون المبنى من فناء يتوسطه حوض رئيسى محاط بأروقة ، ويفصل صحن الصلاة بخمسة أبواب .

استبدل البلاط القديم الملون للفناء فى النصف الأول من القرن العشرين ويوجد محراب فى صحن الصلاة لا زال موجوداً ومزوداً فى الوسط بلوحة كبيرة مرصعة بأحجار ملونة . كانت المنذنة مربعة الشكل ومقسمة إلى ثلاثة طوابق محددة ببروز .

وفى حى السويقة الذى يقع على طريق فلسطين ومصر أنشأ الأمير غرس الدين خليل التوريزى مجمعاً معمارياً ضخماً يضم مسجداً ومقبرة وحماماً . كان الأمير غرس الدين يشغل منصب الحاجب الأكبر بدمشق ابتداء من ١٤١٥ وتوفى فى يونية عام ١٤٢٣ .

احتفظ المسجد والمقبرة بالتكسية التى صممت من الخزف والتى أضفت على مجمع التوريزى مكانة ممتازة فى الفنون الإسلامية .

كما استخدمت بلاطات سداسية الشكل ملونة ومرسومة على دهان الخزف الشفاف وغطت الجدران الداخلية للمقبرة بارتفاع ثلاثة أمتار .

وقد استخدم عدد كبير من البلاطات بلغ ١٣٠٠ بلاطة وتخضع لأسلوب "عالمى" شوهد فى عدة مبان معاصرة . وفى القاهرة استخدم فى ضريح على نجم ولم يعرف تاريخ إنشائه على وجه التحديد ولكن الأسلوب يرجع إلى العصر المملوكى ، كما استخدم فى بيت المقدس فى المسجد الأقصى وفى دمشق فى مسجد الأقصاب وفى مئذنة مسجد البزورى القريب من مسجد التوريزى .

وقد انتزعت عدة بلاطات من هذا النوع من مسجد التوريزى ودخلت فى نهاية القرن التاسع عشر فى مجموعة متاحف لندن ونيويورك وبرلين وكوبنهاجن .

أما الحمام الذى أنشأه الأمير التوريزى على مقربة من مسجده الجنائزى فلم ينته بناؤه إلا فى عام ١٤٤٢ . ولا زال حتى اليوم فى حالة سليمة تماما دون إدخال أية إصلاحات عليه .

ويعتبر من أكثر الحمامات ذات الطابع المميز للعصر المملوكى والوحيد الذى أنشئ فى القرن الخامس عشر .

توجد ثلاث مآذن من القرن الخامس عشر : مئذنة هشام ومئذنة القلعى ومئذنة قايتباى وتعبر تماما عن تطور الزخرفة .

أنشئت المئذنة الأولى عام ١٤٢٧ فى سوق الصوف وبالقرب من مئذنة تنكيز . وفى أعلى المئذنة يوجد دهليز مغطى بإفريز محمول بخرجة مكونة من ثلاثة صفوف من الزخارف الجبسية الكبيرة .

وقد أنشأها كبير الوزراء بدمشق ، وهى قريبة الشبه بالمئذنة التى أنشأها تنكيز ، جذع ساقها ثمانى الأضلاع . وقد قسمت إلى عدة مستويات بلوحات مجوفة مع بروز خفيف ويعلوها ممر مغطى بإفريز . وعلى جميع أجزاء جذع الساق من القاعدة إلى القمة ، توجد زينة لتعطى انطبعا بالفوضى وعدم الانتظام . أفاريز من البازلت المدعم ،

شرفات صغيرة ، أطباق مزخرفة من الفسيفساء ، أعمدة صغيرة متراسة ، مشكايات مصممة بأقواس ثلاثية النصوص ، كوات بأقواس متعددة النصوص .

أنشئت منذنة القلعي حوالى عام ١٤٧٠ ورغم أنها لم تكتمل إلا أنها أكثر مآذن دمشق نقوشا وزخرفة . وأسفل المنذنة يوجد دهليز ذو اثني عشر ضلعاً وبه إفريز ودرابزين من الخشب .

تنتشر الزخرفة على مستويين منفصلين بواسطة شريط مسطح من لبنات العقد المزخرفة على شكل أكاليل زهور باللون الأسود والأبيض . وعلى كل واجهة من واجهات المستوى العلوى شريط بارز يكون شكلاً مربعاً يدور حول أربعة أحجار غير مصقولة من الخزف المزخرف باللون الأزرق وتدور على هيئة دائرة بداخلها ثلاثة تيجان تضم كوة صغيرة ، وزخرفة التشبيك الزهرى الهندسى بلون أسود على أرضية بيضاء لتزين الركنية غير المكتملة .

أما المستوى السفلى فيظهر فيه الزخرفة المملوكة : أعمدة صغيرة مدعومة ، قبة دائرية عند المهبط ، شرفات صغيرة مزركشة ، مشكاة ثلاثية الفصوص ، إفريز بشراشيف ، صدقات وكوات صغيرة ، أحجار مرصعة بشكل هندسى بلون أسود على أرضية بيضاء ، أحجار غير مصقولة ، أقراص وزجاج من الفسيفساء .

وفى عام ١٤٨٨ أمر السلطان أشرف قايتباى (١٤٦٨-١٤٩٦) بإنشاء المنذنة الغربية للجامع الأموى والتي دمرت عقب الحريق الذى شب فى ١٢ أكتوبر ١٤٧٩ ، وهى قريبة الشبه من طراز مآذن القاهرة . تنقسم المنذنة إلى ثلاثة طوابق ويقسم يتناقص بدهليزين على الزخارف الكبيرة للدرابزين المبنى من الحجر المفرغ .

تتميز الزخرفة فيها بالبساطة بالنسبة لمنذنة القلعي : مشكايات ذات أعمدة صغيرة وأقواس ثلاثية الفصوص حول كوة وأفريز من الحجر الأسود . تعتبر منذنة قايتباى نموذجاً لمنذنتين مملوكيتين فى دمشق : منذنة المدرسة السباعية ومنذنة جامع الملق .

وفى الفترة من أبريل ١٥٠٩ وفبراير ١٥١٥ بنى الأمير سباعى وهو آخر حكام المماليك بدمشق جامعا ومدرسة وزاوية وبداخلها مقبرته وذلك فى المنطقة الواقعة خارج باب الجابية . ولكى ينجز الأمير هذا العمل لم يتوان عن ترك أى مسجد مهجور أو مكان به مقبرة إلا ونزع منه الأحجار والمواد اللازمة للبناء والرخام والأعمدة اللازمة حيث واطب بانتظام على سلب ونهب تلك الأماكن حتى إن علماء دمشق أطلقوا على هذا المبنى اسم "جامع الجوامع" . وقد دفنت أم الأمير وابنته فى المقبرة التى بناها لنفسه . أما هو فقد قتل فى معركة مرج دابق ولم يدفن بدمشق .

يوجد عدد كبير من الآثار الأخرى التى أنشأها المماليك ووصلت إلينا فى حالة لا بأس بها كاملة أو مجزأة وأحيانا مشوهة بفعل الإصلاحات الخاطئة أو استخدم بعضها كمساكن . ومن هذه الآثار : مقبرة النجيبية (١٢٦٨) والغورلو (١٣١٩) وعرق (١٣٤٩) والشيبانى (١٣٢٣) والأرغوشا (١٣٤٨) وشيخ صالح (١٣٥٠) والجيكانية (١٣٥٢) ومدرسة الرشيدية ومقبرة أخرى مجهولة الاسم يقال إنها للشيخ حسن ومن طراز القرن الخامس عشر والمدرسة الأفريدونية (١٣٤٨) والولامية (١٤٤٣) والشادى بك (١٤٥٣) والصابونية (١٤٦٤) ومساجد سنجد دار (١٣٤٨) والطابائية (١٣٩٧) والمؤيد (١٣٩٩) والجوزة (١٤٠٢) والسقيفة (١٤١١) والورد والخانقاه الیونسية (١٣٨٢) والحمامات ، والسلطان الأشرف والمورد والقيمارية والناصرى والزین والسبیل والخزنة (١٤٠٥) .

كما اختفت فى أيامنا هذه آثار عديدة معروفة لدينا عن طريق كتب الآثار ؛ ومن هذه الآثار: المدرسة الشريفة ، والقداسية أو الخانتاه الدوايتاتية ، ولم يتم تحديد مواقعها إلا بصورة تقريبية . أما الآثار الأخرى مثل قصر الأبلق ودار السعادة أو القصر الذهبى لتنكيز ، فقد أمكن تحديد مواقعهم بدقة كبيرة .

المراجع

- ABD AL-QADER, (Émir), Un orthostate du temple de Hadad à Damas, *Syria*, XXVI, 1949, pp. 190-195.
- ABDUL-HAK, A. L'exposition des découvertes archéologiques de l'année 1952 au musée de Damas, *Annales Archéologiques de Syrie*, II, 1952, pp. 261-266.
- ABIAD, M., *Culture et éducation arabo-islamiques au Sham pendant les trois premiers siècles de l'Islam, d'après « Tarikh Madinat Dimashq »*, d'Ibn `Asakir (499/1105-571/1176), IFD, Damas, 1981.
- ABOULFÉDA, *Géographie*, tr. fr. S. Guyard, Paris, Imprimerie Nationale, 1833.
- ADLER, E. N., *Jewish Travellers*, edited with an introduction by Elkan Nathan Adler, London, G. Routledge & sons, Ltd., 1930.
- AIBACH, A.-N., La mosquée de Khaled b. al-Walid, première mosquée de la conquête islamique, (en arabe), *AAAS*, XXXV, 1985, pp. 417-431.
- AIGRAIN, R., Article « Arabie », *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique*, t. III, col. 1158-1339.
- AMANN, E., Article « Nestorius », *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1931, t. 11, pp. 75-158.
- AMBROISE, saint, *Lettres*, Paris, 1741.
- AMiet, P., *L'art antique du Proche-Orient*, Paris, Mazenod, 1977.
- ANGLURE, O. d', *Le saint voyage de Jérusalem en l'année 1395*, Paris, Société des anciens textes français, Firmin-Didot, 1878.
- Annales archéologiques syriennes*, numéro spécial Damas, vol. XXXV, 1985.
- ANON, Découverte de mosaïques du VIII^e siècle à la grande mosquée de Damas, *Syria*, X, 1929, pp. 180-181.
- ARCULFE, cf. WRIGHT T., *Early Travels in Palestine*, London, H.G. Bohn, 1848.
- ARISTOTE, *Politique*, Paris, Denoël-Gonthier, 1983.
- ARRIEN, *Histoire d'Alexandre*, tr. fr. Pierre Savinel, Paris, Éditions de Minuit, 1984.
- ASHTOR-SRAUSS, E., L'inquisition dans l'État mamlouk, *R.S.O.*, XXV, 1950, pp. 11-26.
- ASHTOR-SRAUSS, E., L'administration urbaine en Syrie médiévale, *R.S.O.*, XXXI, 1956, pp. 73-128.

- ATIL, E., *Renaissance of Islam. Art of the Mamluks*, Smithsonian Institution Press, Washington, D.C., 1981.
- Au pays de Baal et d'Astarté, 10 000 ans d'art en Syrie, Paris, Association française d'action artistique, 1983.
- AURENCHE, O., Les premières maisons et les premiers villages, *La Recherche*, n° 135, juillet/août 1982, pp. 880-889.
- AYALON, D., Esclavage mamelouk, *Oriental Notes and Studies*, n° 1, 1951, Jérusalem, pp. 29-31.
- AYALON, D., Studies on the Tansfer of the Abbasside Caliphate from Bagdad to Cairo, *Arabica*, VII, 1960, pp. 41-59.
- BAEDEKER, K., *Palestine et Syrie*, Leipzig, 1906.
- ABU AL-FARAJ, voir BARHEBRAEUS.
- BAIROCH, P., *De Jéricho à Mexico, villes et économie dans l'histoire*, Paris, Gallimard, 1985.
- BALADHURI, AL, *The Origins of the Islamic State*, tr. angl. de *Kitab Futuh al-Buldan*, t. 1, tr., P. Kh. Hitti, New-York, Columbia University, 1916 ; t. 2, tr., C. Murgotten, New-York, Columbia University, 1924.
- BARHEBRAEUS, Abu al-Faraj, *Chronicon Syriacum*, édition et traduction Bruns et Kirsch, Leipzig, 1789, 2 vol.
- BELIN, F.A., Du régime des fiefs militaires dans l'Islamisme et principalement en Turquie, *JA*, 6, XV, 1870, pp. 187-301.
- BENJAMIN DE TUDELE, *Voyage du célèbre Benjamin de Tudèle autour du monde commencé en l'an 1173*, 2 t. en 1 vol., La Haye, J. Neaulme, 1735.
- BERARDI, R., Espace et ville en pays d'Islam, *L'Espace social de la ville arabe*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1979, pp. 99-120.
- LA BROQUIÈRE, B. de, *Le voyage d'outremer de Bertrandon de la Broquière, premier écuyer tranchant et conseiller de Philippe le Bon duc de Bourgogne*, Paris, E. Leroux, 1892.
- BIANQUIS, T., Les derniers gouverneurs ikhchidides à Damas, *BEO*, XXIII, 1970, pp. 167-196.
- BIANQUIS, T., *Damas et la Syrie sous la domination fatimide (359-468/969-1076)*, 2 t., I.F.D., Damas, 1986-1989.
- BOIS, J., Article « Chalcédoine » (concile de), *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1923, t. 2, pp. 2189-2208.
- BOLDENSELE, G. de, cf. HÉTHOUM, 1529, feuillets LXVI à LXXVI.
- BOUHDIBA, A., *La sexualité en Islam*, Paris, Presses Universitaires de France, 1975.
- BOUVAT, L., Essai sur la civilisation timouride, *JA*, avril-juin 1926, pp. 193-299.
- BRAUN G. et H OGENBERG F., *Civitates orbis terrarum...*, Coloniae Agrippinae, typis T. Graminaei, 1572, plan de Damas, planche 106.
- BRÉHIER, L., *Histoire anonyme de la première croisade*, (édition et traduction), Paris, Les Belles Lettres, 1964.
- BRIEND, J., SEUX, M.-J., *Textes du Proche-Orient ancien et histoire d'Israël*, Paris, Éditions du Cerf, 1977.

- BRINNER, W. M., *A Chronicle of Damascus 1389-1397*, by Muhammad b. Sasra, Berkeley, University of California Press, 1963.
- BRUNSCHVIG, R., Urbanisme médiéval et droit musulman, *REI*, 1947, pp. 127-155.
- BUSSON DE JANSSENS, G., Les wakfs dans l'Islam contemporain, *REI*, 1951, pp. 1-72 et 1953, pp. 43-76.
- CAHEN, C., Une chronique syrienne du VI^e/XII^e siècle : Le Bustan al-jami, *B.E.O.*, VII-VIII, 1937-1938, pp. 113-158.
- CAHEN, C., Quelques chroniques anciennes relatives aux derniers Fatimides, *IFAO*, XXXVII, 1937-1938, pp. 1-27.
- CAHEN, C., *La Syrie du Nord à l'époque des Croisades*, Paris, P. Geuthner, 1940.
- CAHEN, C., L'évolution de l'iqṭā' du IX^e au XIII^e siècle. Contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales, *Annales*, VIII, 1953, pp. 25-52.
- CAHEN, C., L'histoire économique et sociale de l'Orient musulman médiéval, *Studia Islamica*, III, pp. 93-115, 1955.
- CAHEN, C., L'Islam et les minorités confessionnelles au cours de l'histoire, *Table ronde*, CXXVI, 1958, pp. 61-72.
- CAHEN, C., Mouvements populaires et autonomisme urbain dans l'Asie musulmane du Moyen Age, *Arabica*, V, 1958, pp. 225-250, VI, 1959, pp. 25-56 et 233-265.
- CAHEN, C., Bagdad au temps de ses derniers califes, *Arabica*, IX, 1962, pp. 289-302.
- CAHEN, C., Note d'historiographie syrienne, la première partie de l'histoire d'Ibn al-Qalanisi, *Arabic and Islamic Studies in Honor of H.A.R. Gibb*, Leyde, 1965, pp. 156-167.
- CAHEN, C., Y a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique ?, *The Islamic city*, Colloque édité par A.H. Hourani et S.M. Stern, University of Pennsylvania Press, B. Cassirer Ltd, Oxford, 1970, pp. 51-63.
- CAHEN, C., *Introduction à l'Histoire du monde musulman médiéval VI^e-XV^e siècles*, Paris, A. Maisonneuve, 1982.
- CAHEN, C., *Orient et Occident au temps des croisades*, Paris, Aubier, 1983.
- CAHEN, C., *L'Islam des origines au début de l'Empire ottoman*, Paris, Hachette, 1995.
- CARMOLY, É., *Relation d'Eldad le Danite, voyageur du IX^e siècle*, Paris, 1838.
- CARMOLY, É., *Itinéraires de la Terre Sainte des XIII^e, XIV^e, XV^e, XVI^e, XVII^e siècles*, traduits de l'hébreu, Bruxelles, A. Vandale, 1847.
- CASANOVA, L'étymologie de Damas, *Extrait du Journal asiatique*, janvier-février 1919, Paris, 1919.
- Catalogue du musée national de Damas*, Damas, 1976.
- CAUMONT, N. de, *Voyage d'outremer en Jherusalem par le seigneur de Caumont*, l'an 1418, Paris, A. Aubry, 1858.
- CHABAS, F., *Voyage d'un Égyptien en Syrie, en Phénicie, en Palestine, etc. au XIV^e siècle avant notre ère*, Paris, Maisonneuve, 1866.

- CHAFIQ IMAM, L'artisanat du verre à Damas, *BEO*, XXVII, 1974, pp. 141-181.
- CHAHAB, M., Les demeures de Tâmerlan à Damas, (en arabe), *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 432-439.
- CHALINE, C., *Les villes du monde arabe*, Paris, Masson, 1990.
- CHAMPDOR, A., *Saladin, le plus pur héros de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1956.
- CHEIKHO, Le P. L., Les églises chrétiennes de Damas, lors de la conquête arabe, d'après Ibn 'Asakir, *al-Machreq*, 1911, XIV^e année, pp. 800-803.
- CHUVIN, P., *Chronique des derniers païens*, Paris, les Belles Lettres/Fayard, 1990.
- COLONNA-CECCALDI, G., *Monuments antiques de Chypre, de Syrie et d'Égypte*, Paris, Didier et Cie, 1882.
- CONTENSON, H. de, Troisième campagne à Tell Ramad, 1966, rapport préliminaire, *AAAS*, XVII, 1967, pp. 17-24.
- CONTENSON, H. de, Quatrième et cinquième campagnes à Tell Ramad, 1967-1968, rapport préliminaire, *AAAS*, XIX, 1969, pp. 25-30.
- CONTENSON, H. de, Sixième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1969, rapport préliminaire, *AAAS*, XIX, 1969, pp. 31-35.
- CONTENSON, H. de, Septième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1970, rapport préliminaire, *AAAS*, XX, 1970, pp. 77-80.
- CONTENSON, H. de, Tell Ramad, a village of Syria of the 7th and 6th Millennia B.C., *Archaeology*, 24, 1971, pp. 278-285.
- CONTENSON, H. de, Tell Aswad, fouilles de 1971, *AAAS*, XXII, 1972, pp. 75-104.
- CONTENSON, H. de, Huitième campagne de fouilles à Tell Ramad en 1973, rapport préliminaire, *AAAS*, XXIV, 1974, pp. 17-24.
- CONTENSON, H. de, Les fouilles de Ghoraifé en 1974, *AAAS*, XXV, 1975, pp. 17-32.
- CONTENSON, H. de, Tell Aswad, fouilles de 1972, *AAAS*, XXVII — XXVIII, 1977-1978, pp. 207-215.
- CONTENSON, H. de, La région de Damas au néolithique, *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 9-29.
- CONTENSON, H. de, et VAN LIERE, W. J., Sondages à Tell Ramad en 1963, rapport préliminaire, *AAAS*, XIV, 1964, pp. 109-124.
- CONTENSON, H. de, et VAN LIERE, W. J., Seconde campagne à Telle Ramad, 1965, *AAAS*, XVI, 2, 1966, pp. 167-177.
- COURET, Comte, La prise de Jérusalem par les Perses en 614, *Revue de l'Orient chrétien*, Paris, 1897, pp. 125-164.
- CRESWELL, K. A. C., *A Provisional Bibliography of the Moslem architecture of Syria and Palestine*, London, 1924.
- CRESWELL, K. A. C., *Early Muslim Architecture*, Oxford, Clarendon Press, 1932-1940.
- CRESWELL, K. A. C., *A Short Account of Early Muslim Architecture*, Pelican Books A 407, Penguin Books, 1958.
- Damas extra-muros, Midan sultani*, PIFD, Damas, 1994.

- DEGEORGE, G., *Syrie, art, histoire, architecture*, Paris, Hermann, 1983.
- DEGEORGE, G., *Palmyre, métropole du désert*, Paris, Séguier, 1987.
- DEGEORGE, G., Le case di Damasco, *FMR*, n° 97, avril 1993, pp. 113-126.
- DEGEORGE, G., Le massacre de Damas continue, *L'Événement du jeudi*, 16-22 décembre 1993, pp. 97-100.
- DEGEORGE, G., Sous la grande mosquée de Damas, *Notre Histoire*, 108, février 1994, pp. 20-24.
- DEGEORGE, G., *Damas, des Ottomans à nos jours*, Paris, L'Harmattan, 1994.
- DEGEORGE, G., The Damascus massacre, *The Architectural Review*, April 1995, pp. 68-71.
- DELOREY, E. et WIET, G., Cénotaphes de deux dames musulmanes, *Syria*, II, 1921, pp. 221-225.
- DERENBOURG, H., *Anthologie de texte arabes inédits par Ousama et sur Ousama*, Paris, E. Leroux, 1893.
- DEVONSHIRE, Mme R.L., Relation d'un voyage du sultan Qaïtbay en Palestine et en Syrie, traduit de l'arabe, *Extrait du Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale*, t. XX, Le Caire, 1922, pp. 1-43.
- DEVONSHIRE, Mme R.L., Extrait de l'histoire de l'Égypte, vol. II, par Ahmed Ibn Iyas El Hanafy El Masry, *Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale*, XXV, 1925-1926, pp. 113-145.
- DICKIE, A. C., The Great Mosque of the Omeiyades, Damascus, *Palestine Expl. Fund*, Quarterly Statement, octobre 1897, pp. 268-282.
- DIMASHQI, *Manuel de la cosmographie du moyen âge*, tr. fr. par A.F.M. Mehren du *Kitab noukhat al-dahr*, Copenhague, C.A. Reitzel, 1874.
- DJAÏT, H., *Al-Kufa, Naissance de la ville islamique*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1986.
- DJAÏT, H., *La Grande Discorde, Religion et politique dans l'Islam des origines*, Paris, Gallimard, 1989.
- DODINET, M., LE BLANC, J., VALLAT, J.-P., VILLENEUVE, F., Le paysage antique en Syrie : l'exemple de Damas, *Syria*, LXVII, 2, 1990, pp. 339-368.
- DUPONT-SOMMER, A., *Les Araméens*, Paris, A. Maisonneuve, 1949.
- DUSSAUD, R., Numismatique des rois de Nabatène, *JA*, mars-avril 1904, pp. 189-238.
- DUSSAUD, R., Le Temple de Jupiter damascénien et ses transformations aux époques chrétiennes et musulmanes, *Syria*, III, 1922, pp. 219-250.
- DUSSAUD, R., *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paris, P. Geuthner, 1927.
- DUSSAUD, R., *La pénétration des Arabes en Syrie avant l'islam*, Paris, P. Geuthner, 1955.
- DUSSAUD, R., DESCHAMPS, P., et SEYRIG, H., *La Syrie antique et médiévale illustrée*, Paris, P. Geuthner, 1931.
- DUSSAUD, R. et MACLER, F., Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne, *Nouvelles archives des missions scientifiques*, t. X, Paris, 1903.

- ÉCOCHARD, M., et LE COEUR, C., *Les Bains de Damas*, IFD, Beyrouth, Impr. catholique, 1942-1943.
- ÉDIB, M., *Itinéraire de Constantinople à la Mecque*, Extrait du *Kitab Manasik al-Hajj*, tr. fr. M. Bianchi, Paris, Everat imprimeur, 1825.
- ÉLISSÉEFF, N., Les Monuments de Nur ad-Din, *BEO*, XIII, 1949-1951, pp. 5-43.
- ÉLISSÉEFF, N., Titulature de Nur ad-din d'après ses inscriptions, *BEO*, XIV, 1952-1954, pp. 155-196.
- ÉLISSÉEFF, N., A propos d'une inscription d'al-Malik al-Mu`azzam `Isa. Contribution à l'étude de son règne, *AAS*, IV et V, 1954, 1955, pp. 3-28.
- ÉLISSÉEFF, N., Corporations de Damas sous Nur al-din ; matériaux pour une topographie économique de Damas au XII^e siècle, *Arabica*, III, 1956, fasc. I, pp. 61-79.
- ÉLISSÉEFF, N., Nur ad-din, un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades, IFD, Damas, 1967.
- ÉLISSÉEFF, N., Damas à la lumière des théories de Jean Sauvaget, *The Islamic City*, B. Cassirer, Oxford and University of Pennsylvania Press, 1970, pp. 157-177.
- ÉLISSÉEFF, N., Un document contemporain de Nur ad-din, sa notice biographique par Ibn `Asakir, *BEO*, XXV, 1972, pp. 125-140.
- ÉLISSÉEFF, N., *L'Orient musulman au Moyen Age 622-1260*, Paris, Armand Colin, 1977.
- Encyclopédie de l'Islam*. EI¹, ancienne édition, Leyden et Paris, 1927. EI², nouvelle édition, Leyden et Paris, 1965.
- FINK, H. S., The role of Damascus in the History of the Crusades, *The Muslim World*, XLIX, janvier 1959, pp. 41-53.
- FRESCOBALDI, L., *Viaggio di Lionardo... in Egitto e Terra Santa...*, Roma, stamp. di C. Mordacchini, 1818.
- FRESCOBALDI, L., GUCCI, G., SIGOLI, S., *Visit to the Holy places of Égypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384*, traduit de l'italien par Fr. Théophilus, Jérusalem, Franciscan Press, 1948.
- FRITZ, G., article « Nicée » (1er concile de), *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1931, t. 11, pp. 399-415.
- GABRIELI, F., *Chroniques arabes des Croisades*, Paris, Sindbad, 1977.
- GARDET, L., *La cité musulmane, vie sociale et politique*, Paris, Librairie philosophique J. Vrin, 1981.
- GARCIN, J.-C., Le système militaire mamluk et le blocage de la société musulmane médiévale, *Annales islamologiques*, XXIV, Institut français d'archéologie orientale du Caire, pp. 93-110.
- GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *La Syrie à l'époque Mamelouke*, d'après les auteurs arabes, B.A.H., t. 3, Paris, P. Geuthner, 1923.
- GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *La Syrie au début du XV^e siècle d'après Qalqachandi*, Paris, P. Geuthener, 1923.
- GAUDEFROY-DEMOMBYNES, M., *Les institutions musulmanes*, Paris, Flammarion, 1946.

- GAUDEFRY-DÉMOMBYNES, M., et PLATONOV, S.F., *Le monde musulman et byzantin jusqu'aux Croisades*, Paris, E. de Boccard, 1931.
- GAULMIER, J., *La Zubda Kachf al-Mamalik de Khalil az-Zâhiri*, trad. inédite de Venture de Paradis, Beyrouth, 1950.
- GAYET, A., *L'Art Arabe*, Paris, Librairies — Imprimeries réunies, 1893.
- GEIGER, A., *Syrie et Liban* (avec 37 photographies sur Damas), Grenoble, B. Arthaud, 1932.
- GIRAULT DE PRANGEY, *Monuments arabes d'Égypte, de Syrie et d'Asie Mineure dessinés et mesurés de 1842 à 1845*, Paris, l'auteur, 1846.
- GOEJE, M. J. de, *Mémoire sur la conquête de la Syrie*, Leyde, E.J. Brill, 1864.
- GOUDARD, J., Damas et saint Jean Damascène, *Jérusalem*, 19, 1906-1907, pp. 241-246, pp. 279-283.
- GRABAR, O., La grande mosquée de Damas et les origines architecturales de la mosquée, *Bibliothèque des cahiers archéologiques*, Paris, Klincksieck, 1968.
- GRABAR, O., Survivances classiques dans l'art de l'Islam, *AAS*, XXI, 1971, pp. 371-380.
- GRABAR, O., *La formation de l'art islamique*, Paris, Flammarion, 1987.
- GUIDONI, E., *La ville européenne, formation et signification, du 4^e au 11^e siècle*, P. Mardaga, 1981.
- GUÉRIN, V., *Description géographique, historique, archéologique de la Palestine*, 7 vol., Paris, Impr. Nationale, 1868-1880.
- GUÉRIN, V., *La Terre Sainte* (26 gravures sur Damas), Paris, Plon et Cie, 1882.
- HADDAD, G., Damascus in the Writings of Classical and Arab Authors, *AAS*, Damas, 1951, pp. 157-164.
- HADDAD, E.N., Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni), *JPOS*, oct. 1920, pp. 209-214.
- HAITON, voir HÉTHOUM, prince de Gorigos.
- HAMBIS, L., Saint Louis et les Mongols, *JA*, 1970, pp. 25-33.
- HARAWI AL -, *Guide des lieux de pèlerinage*, tr. fr. du *Kitab al-isharat*... par J. Sourdel-Thomine, Damas, IFD, 1957.
- HARRY, M., *Damas, jardin de l'Islam*, Paris, J. Ferenczi et fils, 1948.
- HERZFELD, E., Damascus. Studies in Architecture, *Ars Islamica*, 1942, pp. 1-53 ; 1943, pp. 13-70 ; 1946, pp. 1-71 ; 1948, pp. 118-138.
- HÉTHOUM, prince de Gorigos, *Histoire orientale ou des Tartares de Haiton, parent du roi d'Arménie qui comprend...*, La Haye, J. Neaulme, 1735.
- HÉTHOUM, prince de Gorigos, *L'Hystoire merveilleuse, plaisante et récréative du grand empereur de Tartarie, seigneur des Tartres, nommé le grand Can...*, Paris, Jehan Saint Denys, 1529. Suivi de la relation de voyage de Guillaume de Boldensele.
- HITTI, K.-P., *History of Syria*, London, Mac Millan Ltd., 1951.
- HOEXTER, M., The role of the Qays and Yaman factions in local political divisions, *Asian and African Studies*, Jérusalem, 1973, vol.9, n° 2, pp. 249-311.

- HOUGHTON, L.C., Survey of the Salhiyé quarter, Damascus, A.A.R.P. 14, London, December 1978.
- HUMPHREYS, R.S., *From Saladin to the Mongols ; the Ayyubides of Damascus, 1193-1260*, State University of New-York Press, Albany, 1977.
- HUOT, J.-L., THALMANN, J.-P. et VALBELLE D., *Naissance des cités*, Paris, Nathan, 1990.
- IBN AL-`AMID, *Chronique des Ayyoubides (602-658/1205-6 -1259-60)*, tr. fr. A.-M. Eddé et F. Micheau, Documents relatifs à l'histoire des croisades, Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris, 1994.
- IBN `ASAKIR, *La description de Damas*, tr. fr. Nikita Elisséeff, Damas, IFD, 1959.
- IBN AL-ATHIR, *Histoire des Atabegs*, tr. fr. Barbier de Meynard, RHOC, II, 2, Paris, 1876.
- IBN BATOUTAH, *Voyages d'Ibn Batoutah*, tr. fr. C. Defrémery et B.R. Sanguinetti, Paris, Imprimerie impériale, 1853-1858.
- IBN AL-FAQIH AL-HAMADANI, *Abrégé du livre des pays*, tr. fr. H. Massé, IFD, Damas, 1973.
- IBN IYAS, voir WIET G.
- IBN HAWQAL, *Kitab surat al-ard*, publ. par J.H. Kramers, t. II de la BGA, 2 éd., Leyde, 1938 ; tr. fr. par WIET G., *Configuration de la terre*, Paris-Beyrouth, 1964.
- IBN AL-JAWZI, *La pensée vigile*, tr. fr. D. Reg, Paris, Sinbad, 1986.
- IBN JUBAYR, *Voyages*, tr. fr. M. Gaudetroy-Demombynes, Documents relatifs à l'histoire des croisades, 3 t. , Paris, P. Geuthner, 1949 -1956.
- IBN KHALDUN, *Discours sur l'Histoire universelle*, 3 t. , Paris, Sindbad, 1978.
- IBN KHALDUN, *Le voyage d'Occident et d'Orient*, tr. fr. A. Cheddadi, Paris, Sindbad, 1980.
- IBN KHALLIKAN, *Biographical Dictionary*, translated from arabic by B.M.G. de Slane, Paris, B. Duprat, 1842-1871.
- IBN KHURDADBEH, *Le livre des routes et des provinces*, tr. fr. C. Barbier de Meynard, Paris, Imprimerie impériale, 1865.
- IBN MUNQIDH, U., *Autobiographie*, tr. fr. H. Derenbourg, *Revue de l'Orient latin*, II, 1894, pp. 329-565.
- IBN MUNQIDH, U., *Des enseignements de la vie. Souvenirs d'un gentilhomme syrien du temps des croisades*, tr. fr. A. Miquel, Paris, Imprimerie nationale, 1983.
- IBN AL-QALANISI, *Damas de 1075 à 1154*, traduction d'un fragment de l'*Histoire de Damas...* par R. Le Tourneau, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1952.
- IBN RUSTEH, *Les atours précieux*, tr. fr. G. Wiet, Le Caire, 1955.
- Institut français de Damas, *Liste des publications, 1929-1959*, Paris, A. Maisonneuve, 1959.
- IBN SASRA, *al-Durra al-Mundi'a fi l- Dawla al-Zahiriya*, tr. anglaise W. M. Brinner, *A Chronicle of Damascus, 1389-1397*, University of California Press, Berkeley, 1963.

- IBN SHADDAD, *La description de Damas*, (texte arabe), Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1956.
- IBN AL-SUQA'I, M., *Tali kitab wafayat al-'ayan*, édit. et tr. fr. J. Sublet, IFD, Damas, 1974.
- IDRISI, Géographie, tr. fr. P. -A. Jaubert, Philo press, Amsterdam, 1975.
- ISFAHANI, Imad al-din al-, *Conquête de la Syrie et de la Palestine par Saladin*, Paris, P. Geuthner, 1972.
- ISSA BEY, A., *Histoire des bimaristans à l'époque islamique*, Le Caire, Imprimerie P. Barbey, 1928.
- JALABERT, L., Article « Damas », *Dictionnaire d'archéologie chrétienne*, IV, cols 119-45, 1920.
- JEAN d'ASIE, *The Third part of the Ecclesiastical history of John...*, tr. angl. R. Payne, Smith, Oxford, 1860.
- JÉROME, saint, *Oeuvres choisies de saint Jérôme*, Lyon-Paris, Périsse frères, 1837-1840.
- JÉROME, saint, *Lettres de saint Jérôme*, Paris, Imprimerie de F. Didot, 1829.
- JOHN OF WÜRZBURG, Description of the Holy Land (AD 1160-1170), *Palestine Pilgrim's Text Society*, vol. V, London, 1890.
- JOMIER, J., Le Mahmal et la caravane égyptienne des pèlerins de La Mecque (XIII^e-XX^e siècle), *Rech. Arch. Phil. Hist.* XX, IFAO, le Caire, 1953.
- JONES, A. H. M., *The cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford, Clarendon Press, 1971.
- JOSÈPHE, F., *La guerre des Juifs*, tr. fr. P. Savinel, Paris, Les Éditions de Minuit, 1977.
- JOSÈPHE, F., *Antiquités judaïques*, tr. fr. J. Weill, Paris, E. Leroux, 1900-1911.
- JUGIE, M., Article « Monothélisme », *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1929, t. 10, pp. 2307-2324.
- JUGIE, M., Article « Eutychès », *Dictionnaire de théologie catholique*, Letouzey et Ané, Paris, 1924, t. 5, pp. 1582-1610.
- JULIEN, l'Empereur, *Discours*, tr. fr. C. Lacombrade, Paris, Les Belles Lettres, 1964.
- JUSTIN, *Oeuvres complètes de Justin*, (Abrégé de l'Histoire universelle de Trogue-Pompée), tr. fr. J. Pierrot et E. Boitard, Paris, Garnier frères, 1862.
- KEMP, P., *Territoires d'Islam*, Paris, Sindbad, 1982.
- KING, D. J. C., *The Defences of the Citadel of Damascus. A Great Mohammedan Fortress of the Time of Crusades*, *Archeologia*, 94, 1951, pp. 57-96.
- KLENGEL, H., City and land of Damascus in the cuneiform tradition, *AAAS*, XXXV, Damas, 1985, pp. 49-57.
- KURD `ALI, M., *Ghuta Dimashq*, Publications de l'Académie arabe de Damas, Damas, 1952.
- KREMER, A. von, *Topographie von Damaskus*, Denkschriften der Wiener Kaiserlichen Akademie, phil.- hist. Klasse 5 : II (1854), pp. 1-51, Klasse 6 : II (1855), pp. 1-36.

LA BROQUIÈRE, B. de, *Le Voyage d'Outremer*, publié et annoté par Ch. Schefer et H. Cordier, Paris, E. Leroux, 1892. (Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie, XII).

La Jordanie de l'âge de la pierre à l'époque byzantine, *Rencontres de l'École du Louvre*, Paris, La documentation française, 1987.

LAMMENS, le P. H., Études sur le règne du calife omayyade Mo'awia I^{er}, *Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth*, vols I et II, 1906-1907.

LAMMENS, le P. H., Études sur le règne du calife omayyade Mo'awia I^{er}, troisième série, La jeunesse du calife Yazid I^{er}, Paris, P. Geuthner, 1908.

LAMMENS, le P. H., Le « Triumvirat », Abou Bakr, `Omar et Abou Obaida, *Mélanges de la faculté orientale de Beyrouth*, vol. IV, 1910, pp. 113-144.

LAMMENS, le P. H., Le califat de Yazid I^{er}, *Mélanges de la Faculté orientale de Beyrouth*, vols. IV à VII, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1910-1914.

LAMMENS, le P. H., *La Syrie, précis historique...*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1921, 2 vol.

LAMMENS, le P. H., L'avènement des Marwanides et le califat de Marwan I^{er}, *Mélanges de l'Université Saint-Joseph*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1927, tome XII, fasc.2, pp. 43-147.

LAMMENS, le P. H., *Études sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1930.

LANE, F. C., *Andrea Barbarigo, Merchant of Venice 1418-1449*, Baltimore, The Johns Hopkins Press, 1944.

LANE-POOLE, S., *The Muhammedan Dynasties*, Westminster, 1894. Réédit. Khayats, Beyrouth, 1966.

LAOUST, H., Remarques sur les expéditions du Kasrawan sous les premiers Mamluks, *Bulletin du musée de Beyrouth*, IV, 1940, pp. 93-115.

LAOUST, H., *Les gouverneurs de Damas sous les Mamlouks et les premiers Ottomans (1260-1744)*. Traduction des Annales d'Ibn Tulun et d'Ibn Jum'a, IFD, Damas, 1952.

LAOUST, H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, Payot, 1965.

LAPERROUSAZ, E.-M., Collectif sous la direction de, *La Palestine à l'époque perse*, Paris, Les Éditions du Cerf, 1994.

LAPIDUS, I. M., *Muslim cities in the later Middle Ages*, Cambridge, Harvard University Press, 1967.

LAPIDUS, I. M., Muslim Urban Society in Mamluk Syria, *The Islamic City*, A.H. Hourani et S.M. Stern, University of Pennsylvania Press, B. Cassirer Ltd., Oxford, 1970.

LASSUS, J., Notes sur les mosaïques de Jérusalem et de Damas, *BEO*, III, 1933, pp. 31-42.

LECERF, J., et TRESSE, R., Les `Arâda de Damas, *BEO*, VII-VIII, 1937-1938, pp. 237-264.

LE STRANGE, G., *Palestine under the Moslems. A description of Syria and the Holy Land from 650 to 1500*, London, Alexander P. Watt, 1890.

LETHABY, W.R., The Church of St. John at Damascus. *The Builder*, 17 mars, 1894.

- LE TOURNEAU, R., *Damas de 1075 à 1154*. Traduction annotée d'un fragment de l'histoire de Damas d'Ibn al-Qalanisi, IFD, Damas, 1952.
- LIBANIOS, *Autobiographie*, Paris, Les Belles Lettres, 1979.
- LOREY, E. de, Les mosaïques de la mosquée des Omayyades à Damas, *Syria*, XII, 1931, pp. 326-349.
- LUCIEN DE SAMOSATE, *Oeuvres complètes*, tr. fr. E. Talbot, Paris, Hachette, 2 vol., 1912.
- MANDEVILLE, J. de, *Voyage à Jérusalem*, Lyon, B. Buyer, 1480.
- MANDEVILLE, J. de, *Voyage autour de la terre*, tr. fr. C. Deluz, Paris, Les Belles Lettres, 1993.
- MAQRIZI, Ahmad al -, cf. QATREMÈRE E.-M.
- MARAVAL, P., *Récits des premiers pèlerins chrétiens au Proche-Orient, (IV^e-VII^e siècle)*, Paris, les Éditions du Cerf, 1996.
- MARÇAIS, G., La Mosquée d'El-Walid à Damas et son influence sur l'architecture musulmane d'Occident, *Revue africaine*, I, 1906, pp. 37-56.
- MARÇAIS, G., La conception des villes dans l'Islam, *Revue d'Alger*, n° 10, t. II, 1945, p. 525.
- MARÇAIS, G., L'urbanisme musulman, *Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman*, t. 1, Alger, Imprimerie officielle, 1957, pp. 219-231.
- MARÇAIS, W., L'Islamisme et la vie urbaine, *CR. Ac. I.B.L.*, 1928, pp. 86-100.
- MARIN, F.-L.-C., *Histoire de Saladin, sulthan d'Égypte et de Syrie*, Paris, Tiliard, 1758.
- MASSIGNON, L., Les sept dormants, *REI*, 1954, pp. 61-89.
- MASSON, P., *Éléments d'une bibliographie française de la Syrie*, Paris, E. Champion, 1919.
- MASSON, P., *Bibliographie française de la Syrie*, Marseille, Typographie et Lithographie Barlatier, 1919.
- MASSON, R.P. J., *Voyage en Égypte de Félix Fabri, 1483*, Paris, PIFAO, 1975.
- MAS'UDI, *Les Prairies d'Or*, texte et trad. par C. Barbier de Meynard et Pavet de Courteille, Paris, Imprimerie impériale, 9 vol., 1861-1917.
- MAS'UDI, *Les Prairies d'Or*, tr. fr. de Barbier de Meynard et Pavet de Courteille revue et corrigée par C. Pellat, Paris, Société asiatique, 4 vol. 1962-1989.
- MAUSSION DE FAVIÈRES, J. de, Notes sur les bains de Damas, avec 22 photographies, *B E O*, XVII, 1961-1962, pp. 121-132.
- MAYER, L.A., *Mamluk Costume : A Survey*, Genève, A. Kundig, 1952.
- MAYER, L.A., *Islamic Woodcarvers and their Works*, Genève, A. Kundig, 1958.
- MEHREN, A.-F., Cinquième extrait de la cosmographie de Dimashqi, *Nouvelles Annales des voyages*, juin 1864, pp. 257-308.
- MEINECKE, M., Die osmanische Architektur des 16. Jahrhunderts in Damaskus, *Fifth International Congress of Turkish Art*, 1979, pp. 575-595.

MEINECKE, M., Der Survey des Damaszener Altstadtviertels as-Salihiyay, *Damaszener Mitteilungen*, vol.1, Mainz am Rhein, Verlag Philipp von Zabern, 1983, pp. 189-241.

MEINECKE, M., The old Quarter of as-Salihiya Damascus : development and recent changes, AAAS, XXXV, Damas, 1985, pp. 31-47.

MEINECKE, M., Syrian Blue-and-white Tiles of the 9 th/15 th Century, *Damaszener Mitteilungen*, vol.3, 1988, pp. 203-214.

Mémoires sur la ville de Damas, *Nouveaux Mémoires des missions de la Compagnie de Jésus dans le Levant*, t. VI, Paris, Pissot, 1727, pp. 114-173.

MICHEL LE SYRIEN, *Chronique syriaque*, ed. J.-B. Chabot, texte et traduction, 4 vol., Paris, 1899-1914.

MILLER K., *Mappae Arabicae*, Selbstverlag des Herausgebers, Stuttgart, 1926-1927.

MIQUEL, A., *La géographie humaine du monde musulman*, Paris, Publications de l'École des Hautes Etudes en Sciences sociales, 4 t. , 1967-1988.

MOAZ, Kh., Le Mausolée d'Ibn al-Muqaddam, *Mélanges de... l'Institut Français de Damas*, Beyrouth, Imprimerie catholique, I, 1929, pp. 67-74.

MOAZ, Kh., et ORY, S., *Inscriptions arabes de Damas ; les stèles funéraires, I, Cimetière de Bab al-Saghir*, IFD, Damas, 1977.

MOSTO, A. da, *L'antico regno di Damasco*, Tipografia Fratelli Centenari, Roma, 1888.

AL-MUQADDASI, *Description de l'Occident Musulman au IV^e/X^e siècle*, tr. fr. C. Pellat, Alger, Editions Carbonel, 1950.

AL-MUQADDASI, *La meilleure répartition pour la connaissance des provinces*, traduction partielle annotée par A. Miquel, Damas, IFD, 1963.

NASIR-I KHOSRAW, *Relation de voyage en Syrie, en Palestine, en Égypte, en Arabie et en Perse*, publié, traduit et annoté par Ch. Schefer, Paris. E. Leroux, 1881.

NASRALLAH, MGR. J., *Les souvenirs chrétiens de Damas*, Harissa, 1944.

NASRALLAH, MGR. J., Le Qalamoun à l'époque romano-byzantine, AAS, II, 1952, pp. 149-168 ; VI, 1956, pp. 63-86 ; VIII, 1958, pp. 59-80.

NASRALLAH, MGR. J., Damas et la Damascène : leurs églises à l'époque byzantine, *Proche-Orient chrétien*, XXXV, 1-2, 1985, pp. 36-58 et pp. 264-276.

NAU, F., L'histoire ecclésiastique de Jean d'Asie patriarche jacobite de Constantinople (m.585), *Revue de l'Orient chrétien*, Paris, 1897, t. 2, pp. 455-493.

NAU, F., Les Arabes chrétiens de la Mésopotamie et de la Syrie du VI^e au VII^e siècle, *Cahiers de la Société Asiatique*, Paris, Imprimerie Nationale, 1933.

NEUMANN, G.-A., Ludolphus de Sudheim, De itinere Terre Sancte, *Archives de l'Orient latin*, Paris, E. Leroux, t. II, pp. 305-376.

NIZAM AL-MULK, *Traité de gouvernement*, Paris, Sindbad, 1984.

NU'AYMI, AL-, *Histoire des madrasas de Damas*, éditée par Ja `far al Hasani, (en arabe), 2 vol., Damas, Imprimerie du Progrès, 1951.

- OTTO-DORN, K., *L'art de l'Islam*, Paris, Albin Michel, 1967.
- OUÉCHEK, E., *Index général de la « Description de Damas » de Sauvage*, Damas, IFD, 1954.
- PARROT, A., *Abraham et son temps*, Delachaux et Niestlé, 1962.
- PATAI, R., *Jordan, Lebanon, Syria, an annotated bibliography*, New-Haven, Hiraf Press, 1957.
- PAUPHILET, A., *Historiens et chroniqueurs du Moyen Age*, Paris, Gallimard, 1963, p. 287.
- PAYNE SMITH, R., *The third Part of the Ecclesiastical History of John Bishop of Ephesus*, University Press, Oxford, 1860.
- PETACHIA DE RATISBONNE, *Travels of Rabbi Petachia of Ratisbonne...*, London, Trubner, 1856.
- PETERS, F. E., City planning in Greco-Roman Syria: some new considerations, *Damaszener Mitteilungen*, vol. 1, 1983, pp. 269-277.
- PETIT, P., *Libanius et la vie municipale à Antioche au IV^e siècle ap. J.-C.*, Paris, Geuthener, 1955.
- PHOCAS, J., The Pilgrimage of J. Phocas in the Holy Land (in the year 1185 A.D.), *Palestine Pilgrim's Text Society*, vol. V, London, 1889.
- PITARD, W. T., *Ancient Damascus*, Eisenbrauns, Winona Lake, Indiana, 1987.
- PITARD, W. T., The Identity of Bir-Hadad of the Melqart Stela, *Bulletin of the American School of Oriental Research*, 272, 1988.
- POGGIBONSI, Fra N. da, *Libro d'Oltremare or A Voyage beyond the Seas (1346-1350)*, tr. anglaise T. Bellorini and E. Hoade, Jérusalem, Franciscan Press, 1945.
- POLIAK, A.N., La féodalité islamique, *Revue des études islamiques*, 1936, pp. 247-265.
- POLIAK, A.N., The Ayyubid Feudalism, *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1939, pp. 428-432.
- POPPER, W., *Égypt and Syria under the Circassian Sultans*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1955.
- POPPER, W., *History of Égypt, 1382-1469 AD*, translated from the Arabic Annals of Ibn Taghribirdi, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1960.
- PORTER, Rev. J.-L., *Five years in Damascus, with travels and Researches in Palmyra...*, 2 vol., London, John Murray, 1855.
- POUZET, L., Maghrébins à Damas au VII^e/XIII^e siècle, *BEO*, XXVIII, 1975, pp. 167-193.
- POUZET, L., *Damas au VII^e/XIII^e siècle. Vie et structures religieuses dans une métropole islamique*, Beyrouth, Dar el-Machreq, 1991.
- PREAUX, C., *Le monde hellénistique*, Paris, Presses Universitaires de France, 1978.
- PRESCOTT, H.F.M., *Le Voyage de Jérusalem au XV^e siècle*, Paris, Arthaud, 1959.

PTOLÉMÉE, *Traduction latine de la Géographie de Ptolémée par Jacop d'Angiolo*, Florence, vers 1470. (Bibliothèque Nationale, manuscrits latins 4802).

QUATREMÈRE, E.-M., *Histoire des sultans Mamelouks de l'Égypte*, tr. fr. du *Kitab al-suluk* de Maqrizi. Paris, B. Duprat, 2 vol., 1837-1845.

QUATREMÈRE, E.-M., Extrait des *ʿuyun al-tawarikh*, les sources des histoires, (description de la mosquée des Omayyades) par Muhammad B. Shakir, *Histoire des sultans Mamelouks de l'Égypte*, II, 1, pp. 262-277.

RABBATH, E., *Les Chrétiens dans l'Islam des premiers temps*.

1. *L'Orient chrétien à la veille de l'Islam*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, XXIII, 1980.

2. *Mahomet, prophète arabe et fondateur d'État*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, XXIII, 1981.

RADI, A., *Damas et sa région. Étude de géographie régionale*, Thèse dactylographiée de l'Université Paris I, Paris, 1976.

RAVAISSE, P., *Zoubdat Kachf el-Mamalik par Khalil ed-Dahiry*, Paris, Imprimerie Nationale, 1894.

REINACH, T., *Textes d'auteurs grecs et romains relatifs au jadaïsme*, Paris, E. Leroux, 1895.

REINACH, T., *L'Hellénisme en Syrie*, Paris, F. Alcan, 1914.

REY-COQUAIS, J.-P., Syrie romaine, de Pompée à Dioclétien, *Journal of Roman Studies*, 68, 1978, pp. 44-73.

RIANT, Comte P. -E.-D., *Archives de l'Orient latin*, 2 t., Paris, E. Leroux, 1881-1883.

RIHAWI, Abd al-Qader al-, *Mosquée Yalbugha à Damas*, (en arabe), AAAS, XXIV, 1974.

RIHAWI, Abd al-Qader al-, *Caravansérails de Damas*, (en arabe), AAAS, XXV, 1975, pp. 47-82.

RIHAWI, Abd al-Qader al-, *Damascus. Its History, Development and Artistic Heritage*, Damascus, 1977.

RODINSON, M., *Mahomet*, Paris, Éditions du Seuil, 1961.

ROUX, J.-P., *Histoire des Turcs*, Paris, Fayard, 1984.

SABA, G. et SALZWEDEL, K., Typologie des caravansérails dans la vieille ville de Damas, *Cahiers de la recherche architecturale*, 10/11, avril 1982, pp. 52-59.

SACK, D., *Damaskus*, Mainz am Rhein, Verlag Philipp von Zabern, 1989.

SACY, S. de, *Chrestomathie arabe*, Paris, Imprimerie impériale, 1806.

SIVAN, E., La genèse de la Contre-Croisade, un traité damascain du début du XII^e siècle, *JA*, CLIV, 1966, pp. 197-224.

SIVAN, E., Réfugiés syro-palestiniens au temps des croisades, *REI*, XXV, 1967, pp. 135-147.

SIVAN, E., *L'Islam et la Croisade*, Paris, Maisonneuve, 1968.

SAUVAGET, J., Le Cénotaphe de Saladin, *Revue des Arts Asiatiques*, VI, Paris, 1929-1930.

SAUVAGET, J., La Citadelle de Damas, *Syria*, XI, 1930, pp. 59-90 et pp. 216-241.

- SAUVAGET, J., Un bain damasquin du XIII^e siècle, *Syria*, 1930, pp. 370-380.
- SAUVAGET, J., *Les monuments historiques de Damas*, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1932.
- SAUVAGET, J., Décrets mamelouks de Syrie, *BEO*, II, 1932, pp. 1-52 ; III, 1933, pp. 1-29 ; XII, 1947-48, pp. 5-60.
- SAUVAGET, J., Les Perles choisies d'Ibn ach-Chihna, *Matériaux pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, t. II, Beyrouth, IFD, 1933.
- SAUVAGET, J., L'architecture musulmane en Syrie, *Revue des Arts Asiatiques*, 1934, pp. 19-51.
- SAUVAGET, J., Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, *REI*, 8, 1934, pp. 421-480.
- SAUVAGET, J., Caravansérails syriens I et II, *Ars islamica*, VI, 1939, pp. 48-55 et VII, 1940, pp. 1-19.
- SAUVAGET, J., *La poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks*, Paris, Adrien-Maisonneuve, 1941.
- SAUVAGET, J., *La Mosquée omeyyade de Médine*, Paris, Vanoest, 1947.
- SAUVAGET, J., Notes sur quelques monuments musulmans de Syrie à propos d'une étude récente, *Syria*, XXIV, 1944-1945, pp. 211-231 et *Syria*, XXV, 1946-1948, pp. 259-267.
- SAUVAGET, J., Une ancienne représentation de Damas au musée du Louvre, *BEO*, XI, 1945-1946, pp. 5-12.
- SAUVAGET, J., *Quatre décrets seldjoukides*, Beyrouth, IFD, 1947.
- SAUVAGET, J., *Relation de la Chine et de l'Inde*, tr. fr. d'un anonyme du IX^e siècle, Paris, Les Belles Lettres, 1948.
- SAUVAGET, J., La chronique de Damas d'al-Jazari, années 689-698 H., *Bibliothèque de l'École Pratique des Hautes-Études*, fascicule 294, Paris, 1949.
- SAUVAGET, J., Le Plan antique de Damas, *Syria*, 26, 1949, pp. 314-358.
- SAUVAGET, J., Noms et surnoms des Mamelouks, *J.A.*, 1950, fasc. n°1, pp. 31-58.
- SAUVAGET, J., Les Trésors d'or de Sibṭ ibn al-ʿAjami, *Matériaux pour servir à l'histoire de la ville d'Alep*, t. II, Beyrouth, IFD, 1950.
- SAUVAGET, J., *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman. Éléments de Bibliographie*, Paris, Adrien Maisonneuve, 1961.
- SAUVAGET, J., *Introduction à la céramique musulmane*, Paris, P. Geuthner, 1966.
- SAUVAGET, J., *Historiens arabes*, Paris, Adrien Maisonneuve, 1988.
- SAUVAGET, J., ÉCOCHARD, M., SOURDEL-THOMINE, J., *Les Monuments ayyubides de Damas*, IFD, Damas, 4 fasc., 1938-1950.
- SAUVAGET, J. et WEULERSSE, J., *Damas et la Syrie du Sud*, Office touristique de la république syrienne, Damas, 1936.
- SAUVAIRE, H., La description de Damas, *J.A.*, 9^e série, t. III, n°2, 1894, pp. 251-270-271-318, n°3, 1894, pp. 385-501, t. IV, n°2, 1894, pp. 242-331, n°3, 1894, pp. 460-464, t. V, n°2, 1895, pp. 269-312, n°3, 1895, pp. 377-386, t. VI, n°2, 1895, pp. 221-313, n°3, 1895, pp. 409-484, t. VII, n°2, 1896, pp. 185-285, n°3, 1896, pp. 369-421, 423-424, 425-459.

SCHARABI, M., Der Suq von Damaskus und zwei traditionelle Handelsanlagen : Khan Jaqmaq und Khan Sulayman Pasha, *Damaszener Mitteilungen*, vol.1, 1983, pp. 285-305.

SCHEFER, Ch., Voyage du magnifique et très illustre chevalier et procureur de Saint-Marc Domenico Trevisan, *Recueil de voyages et de documents pour servir à l'histoire de la géographie*, Paris, E. Leroux, 1884.

SCHEFER, Ch., Note sur un tableau du Louvre naguère attribué à Gentile Bellini, *Gazette des Beaux-Arts*, XIV, 1895.

SCHILTBERGER, J., *Reisen des Johannes Schiltberger aus Munchen in Europa, Asia und Afrika von 1394 bis 1427*, München, Aus Rosten des Herausgebers, 1859.

SCHULTHESS, F., Christlich-palästinische Fragmente aus der Omajjaden-Moschee zu Damaskus..., Berlin, Weidmann, 1905.

SCHWAB, M., Al-Harizi et ses pègrinations en Terre Sainte (vers 1217), *Archives de l'Orient latin*, t. 1, Paris, E. Leroux, 1881, pp. 231-244.

SEURAT, M., La ville arabe orientale, *Esprit*, février 1986.

SEYRIG, H., Sur les ères de quelques villes de Syrie, *Syria*, XXVII, 1950.

SHARAF AL-DIN, 'A., *Histoire de Timur-Bec, connu sous le nom du Grand Tamerlan*, tr. fr. F. Pétis de la Croix, Paris, D. Hortemels, 4 vol., 1722.

SHMAYSANI, H., *Madaris Dimashq fi al-'asr al-Ayyubi*, Beyrouth, Dar al-Afaq, 1983.

SIGOLI, S., *Viaggio al Monte Sinai*, Milano, G. Silvestri, 1841.

SOBERNHHEIM, M., Die Inschriften der Zitadelle von Damaskus, *Der Islam*, 12, 1921, pp. 1-28.

SOURDEL, D., Le vizirat abbasside de 749 à 936, 2 vol., Damas, IFD, 1959-1960.

SOURDEL, D., Réflexions sur la diffusion de la madrasa en Orient du XI^e au XIII^e siècle, *REI*, 44, 1976, pp. 165-184.

SOURDEL, D., *L'islam médiéval*, Paris, Presses Universitaires de France, 1979.

SOURDEL-THOMINE, J., Locaux d'enseignement et madrasas dans l'Islam médiéval, *REI*, 44, 1976, pp. 185-197.

SOURDEL-THOMINE, J., Les anciens lieux de pèlerinage damascains d'après les sources arabes, *B.E.O.*, XIV, 1952-1954, pp. 65-85.

SOURDEL-THOMINE, J. et SOURDEL, D., Nouveaux documents sur l'histoire religieuse et sociale de Damas au Moyen-Age, *REI*, XXXII, 1964, pp. 1-15.

SOURDEL-THOMINE, J. et SOURDEL, D., A propos des documents de la grande mosquée de Damas conservés à Istanbul. Résultats de la seconde enquête, *REI*, XXXIII, 1965, pp. 77-85.

SOUSTIEL, J., *La céramique islamique*, Paris, Vilo, 1985.

SPIERS, R.-Ph., The Omeyyad Mosque, Damascus, *The Builder*, 17 february 1894.

SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of the Omeiyades, Damascus, *Architectural Review*, VIII, 1900, pp. 80-88, pp. 103-114 et pp. 158-169.

- SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of the Omeiyades, *Journal of the Royal Institute of British Architects*, vol.IV, Third series, nov. 1896 - oct. 1897, p. 25-41 et pp. 57-65.
- SPIERS, R.-Ph., The Great Mosque of Damascus, *Palestine Expl. Fund. Quart. Stat.*, octobre 1897, pp. 282-301.
- STARCKY, J., Pétra et la Nabatène, *Supplément au dictionnaire de la Bible de Vigouroux*, VII, Paris, Letouzey et Ané, 1966, pp. 886-1018.
- STARCKY, J. et GAWLIKOWSKI, M., *Palmyre*, Paris, J. Maisonneuve, 1985.
- STRABON, *Géographie*, tr. fr. A. Tardieu, Paris, Hachette, 1867.
- SUBLET, J., tr. fr. du *Tâlt kitâb wafayât al-A`yân*, de Ibn as-Suqâ'i, IFD, Damas, 1974.
- SUBLET, J., Le séquestre sur les jardins de la Ghouta, Damas 666/1267, *SI*, XLIII, 1976, pp. 81-86.
- SUDHEIM, L. de, De itinere Terre Sancte, *Archives de l'Orient latin*, t. 2, Paris, E. Leroux, 1884.
- SURIANO, Fra F., *Treatise on the Holy Land*, Jérusalem, Franciscan Press, 1949.
- Syrie, mémoire et civilisation*, Catalogue d'exposition, Paris, Flammarion, 1993.
- TABARI, *Annales*, Paris, Imprimerie impériale, 1867-1871.
- TABARI, *Mohammed sceau des prophètes*, Paris, Sindbad, 1980.
- TABARI, *Les quatre premiers califes*, Paris, Sindbad, 1981.
- TABARI, *Les Omayyades*, Paris, Sindbad, 1983.
- TALAS, M. A., *L'enseignement chez les Arabes. La madrasa Nizamiyya et son histoire*, Paris, P. Geuthner, 1939.
- TALAS, M. A., *Les Mosquées de Damas d'après Yusuf ibn Abd al-Hadi*, Beyrouth, 1943.
- THÉNAUD, J., *Le Voyage d'Outremer*, suivi de *La relation de l'Ambassade de Domenico Trevisan auprès du Soudan d'Égypte*, Paris, E. Leroux, 1884.
- THOUMIN, R., Notes sur l'aménagement et la distribution des eaux à Damas et dans sa Ghouta, *BEO*, V, 1934, pp. 1-26.
- THOUMIN, R., *Géographie humaine de la Syrie centrale*, Tours, Imprimerie Arrault, 1936.
- THOUMIN, R., Damas. Notes sur la répartition de la population par l'origine et par religion, *Revue de géographie alpine*, 25, 1937, pp. 663-697.
- TOUEIR, K., Céramiques mameloukes à Damas, *BEO*, XXVI, 1973, pp. 209-217.
- TRESSE, R., L'irrigation dans la Ghouta de Damas, *REI*, 1929, pp. 463-574.
- TUDÈLE, B. de, *Voyage du célèbre Benjamin de Tudèle autour du monde commencé en l'an 1173 en Amsterdam, aux dépens de la Compagnie (1734)*, 2 tomes en 1 vol., La Haye, J. Neaulme, 1735.
- VAN BERCHEM, M., Notes sur les Croisades, *JA*, janv.-juin 1902, pp. 385-456.
- VAN BERCHEM, M., Notes archéologiques sur la mosquée des Ommayades, *BEO*, VII-VIII, 1937-1938.

- VAN LIERE, W. J. et CONTENSON, H., Holocene Environment and early Settlement in the Levant, AAAS, XIV, 1964, pp. 125-128.
- VAN LIERE, W. J. et CONTENSON, H., A note on five Early Neolithic sites in Inland Syria, AAAS, XIII, 1963, pp. 173-209.
- VARTHÉMA, L. di, *Les Voyages*, tr. fr. J. Balarin de Raconis, Paris, E. Leroux, 1888.
- VÉRONE, J. de, Le Pèlerinage du Moine Augustin Jacques de Vérone (1335), publié par R. Röhricht, *Extrait de la Revue de l'Orient Latin*, t. III, n°2, Paris, 1895.
- Voyage en Terre Sainte d'un maire de Bordeaux au XIV^e siècle*, par Thomas Brygg, Gênes, 1884.
- WACHOLDER, B. Z., *Nicolaus of Damascus*, Berkeley and Los Angeles, University of California Press, 1962.
- WATT, W. M., *Mahomet à La Mecque*, Paris, Payot, 1977.
- WATZINGER, C. et WULZINGER, K., *Damaskus, Die Islamische Stadt*, Berlin und Leipzig, W. de Gruyter, 1924.
- WATZINGER, C. et WULZINGER, K., *Damaskus, Die Antike Stadt*, Berlin und Leipzig, W. de Gruyter, 1921.
- WIET, G., Les Inscriptions arabes de Damas, *Syria*, III, 1922, pp. 153-163.
- WIET, G., Les inscriptions de Saladin, *Syria*, III, 1922, pp. 307-328.
- WIET, G., Notes d'épigraphie syro-musulmane, *Syria*, V, 1924, pp. 216-253 ; *Syria*, VI, 1925, pp. 150-173 ; *Syria*, VII, 1926, pp. 46-66 et pp. 153-177.
- WIET, G., Les biographies du Manhal Safi, *Mémoires présentées à l'Institut d'Égypte*, XIX, Le Caire, 1932.
- WIET, G., La madrasa Khaidariya à Damas, *Mélanges Gaudefroy-Demombynes*, 1935, pp. 17-23.
- WIET, G., Répertoire des décrets mamelouks, *Mélanges R. Dussaud*, II, Paris, 1939, pp. 521-537.
- WIET, G., *Histoire des Mamluks Circassiens (872-906)*, tr. fr. de la *Chronique* d'Ibn Iyas al-Hanafi al-Misri, IFAO, Le Caire, 1945.
- WIET, G., *Les marchands d'épices sous les sultans Mamlouks*, *Cahiers d'Histoire Égyptienne*, VII, 1955, pp. 83-147.
- WIET, G., L'Empire néo-byzantin des Omeyyades et l'Empire néo-sassanide des Abbassides, *Cahiers d'histoire mondiale*, 1953, pp. 62-71.
- WIET, G., *Journal d'un bourgeois du Caire*. Chronique d'Ibn Iyas traduite et annotée par Gaston Wiet. (Suite de l'Histoire des Mamlouks Circassiens éditée en 1945), Paris, Bibliothèque de l'École pratique des Hautes Études, 2t., 1955-1960.
- WIET, G., SAUVAGET, J et COMBE E., *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, PIFAO, Le Caire, 16 tomes, 1931-1964.
- WILL, E., *Histoire politique du monde hellénistique*, Presses Universitaires de Nancy, 1979.
- WOOLLEY, C.L., *Ur en Chaldée*, Payot, Paris, 1938.
- WRIGHT, T., *Early Travels in Palestine*, London, H.G. Bohn, 1848.

YAHYA, F., *Inventaire archéologique des Caravansérails de Damas*, Thèse de l'Université d'Aix-en-Provence, 1979.

Yaqubi, *Les Pays*, tr. fr. Gaston Wiet, Le Caire, 1937.

YAQUT, *Dictionnaire géographique, historique et littéraire de la Perse et des contrées adjacentes*, tr. fr. C. Barbier de Meynard, Paris, Imprimerie impériale, 1861.

ZIADEH, N., *Urban life in Syria under the early Mamluks*, Beirut, Printed at the American Press, 1953.

ZIADEH, N., *Damascus under the Mamluks*, Oklahoma, 1964.

ZUHDI, B., Le royaume araméen de Damas (en arabe), AAS, VII et IX, 1958 et 1959, pp. 85-102.

المؤلف في سطور :

جيرار دييجورج

هو مؤرخ ومهندس معماري وأستاذ بمدرسة الهندسة المعمارية بباريس . وله مؤلفات أخرى منها : سوريا - الفن والتاريخ والهندسة المعمارية (١٩٨٣) ، باريس - الناشر هيرمان ، تدمير عاصمة الصحراء (باريس - الناشر سيجوييه - ١٩٨٧) . كما اشترك في كتاب زنوبيا ملكة تدمر (ميلانو - ١٩٩٢) .

المترجم فى سطور :

محمد رفعت عواد

من مواليد القاهرة . حصل على ليسانس الآداب ، قسم اللغة الفرنسية ، ودبلوم التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس سنة ١٩٥٦ . درس فى جامعة السوربون حصل خلالها على ثلاثة دبلومات عليا فى الأدب الفرنسى واللغة وعلم النفس والفن . عمل فى سوريا فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٠ زار خلالها عدة أماكن : دمشق ، وحمص وحماة وحلب واللاذقية وصافيتا والسلمية موطن الإسماعيليين . عمل خبيراً لليونسكو بالكونغو كينشاسا ، ومترجماً بالشعبة الوطنية لليونسكو بالرياض ، ومترجماً بوزارة البترول ووزارة الدفاع السعودية . عمل مترجماً برئاسة الجمهورية ومترجماً بوكالة الأنباء الفرنسية ، وأستاذ اللغة الفرنسية بكلية الشرطة ، ومديراً عاما للترجمة بالهيئة العامة للاستعلامات بوزارة الإعلام . قام بترجمة ومراجعة عدة كتب ونشرات ووثائق باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفينتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التفريعات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلى
١١- مختارات شعرية	فيسواقا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرائك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيقى
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر السانى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يعنى طريف الخولى وبدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وآلف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	يكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطولى وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول ب. نيكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتين	حياة جاسم محمد

جمال عيد الرحيم	بريجيت شيفر	واحة سيوة وموسيقاما	٢٧-
أنور مغيث	ألن تورين	نقد الحداثة	٢٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الحسد والإغريق	٢٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين باربر	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكافيو پاث	اللهب المزدوج	٤٣-
مارلين تادرس	الدوس هكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت دينيا وجون فاين	التراث المفقود	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاني	فرانسوا تروما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عيد الوهاب علوب	ه. ت. نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد براءة وعثمانى الميلاود ويوسف الأنطكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ. م. بينياليستى	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	٥١-
لطفى فطيم وعادل دمرداش	ب. ثوفاليس ورس. روجسيفيتز وروجر بيل	العلاج النفسى التديعى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ. ف. ألنجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج. مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	جون بزلكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيتش	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
بإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض	ألان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات شعرية	٦٧-
أشرف الصباغ	فالتين واسبوتين	نتاشا المعجز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	للعالم الإسلامى فى لؤلؤ القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد هشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرعى	٧١-
فؤاد مجلى	ت. س. إلويوت	السياسى المعجز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	چين ب. تومبكتز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل. ا. سيمينوفا	صلاح الدين والمالوك فى مصر	٧٤-

- ٧٤- فن التراجم والسير الذاتية أندريه موروا
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي مجموعة من المؤلفين
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢) رينيه ويليك
٧٨- العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية رونالد ووبرتسون
٧٩- شعرية التأليف بوليس أوسبنسكي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين
٨١- الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن
٨٢- مسرح ميغيل ميغيل دي أونامونو
٨٣- مختارات شعرية غوتفريد بن
٨٤- موسوعة الأدب والنقد (ج١) مجموعة من المؤلفين
٨٥- منصور الحلاج (مسرحة) صلاح زكي أقطاي
٨٦- طول الليل (رواية) جمال مير صادقي
٨٧- نون والقلم (رواية) جلال آل أحمد
٨٨- الابتلاء بالتغريب جلال آل أحمد
٨٩- الطريق الثالث أنتوني جيندز
٩٠- رسم السيف وقصص أخرى بورخيس وآخرون
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق باربرا لاسوتسكا - بشونباك
٩٢- نساب وخاضع المسرح الإسباني أمريكا المعاصر كارلوس ميغيل
٩٣- محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش
٩٤- مسرحيتا الحب الأول والصحة صمويل بيكيت
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني أنطونيو بوירו باييخو
٩٦- ثلاث زنبقات ووردية وقصص أخرى نخبة
٩٧- هوية فرنسا (مج١) فرنان برودل
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني مجموعة من المؤلفين
٩٩- تاريخ السينما العالمية (١٩٨٥-١٩٨٠) ديفيد روبنسون
١٠٠- مسالة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون
١٠١- النص الروائي: تقنيات ومناهج بيرنار فاليط
١٠٢- السياسة والتسامح عبد الكبير الخطيبي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آباء (شعر) عبد الوهاب المؤدب
١٠٤- أوبرا ماهوجني (مسرحية) برتولت بريشت
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع جيرارچينيت
١٠٦- الأدب الأندلسي ماريا خيسوس روبييرامتي
١٠٧- صورة الفنان في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر نخبة من الشعراء
١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي مجموعة من المؤلفين
١٠٩- حروب المياه جون بولوك وعادل درويش
١١٠- النساء في العالم التامى حسنة بيجوم
١١١- المرأة والجريمة فرانسيس هيدسون
١١٢- الاحتجاج الهادي أرلين علوي ماكليود
- أحمد درويش
عبد المقصود عبد الكريم
مجاهد عبد المنعم مجاهد
أحمد محمود ونورا أمين
سعيد الغانمي وناصر حلاوي
مكارم الغمري
محمد طارق الشرقاوي
محمود السيد علي
خالد المعالي
عبد الحميد شبيحة
عبد الرازق بركات
أحمد فتحي يوسف شتا
ماجدة العناني
إبراهيم الدسوقي شتا
أحمد زايد ومحمد محيي الدين
محمد إبراهيم مبروك
محمد هناء عبد الفتاح
نادية جمال الدين
عبد الوهاب علوب
فوزية العشماوي
سري محمد عبد اللطيف
إنوار الخراط
بشير السباعي
أشرف الصباغ
إبراهيم قنديل
إبراهيم فتحي
رشيد بنحدو
عز الدين الكتاني الإدريسي
محمد بنيس
عبد الغفار مكاوي
عبد العزيز شبيب
أشرف على عدلوي
محمد عبد الله الجعدي
محمود علي مكي
هاشم أحمد محمد
منى قطان
ريهام حسين إبراهيم
إكرام يوسف

- ١١٣- راية التمرد سادى يلاتت
١١٤- مسرحيات حماد كونجى وسكان المستقع رول شوينكا
١١٥- غرفة تخص المرأة وحده فرجينيا وولف
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا تلسون
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام ليلى أحمد
١١٨- النهضة النسائية فى مصر بيث يارون
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى أميرة الأزهرى سنبل
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط ليلى أبو لغد
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان جوزيف فوجت
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية أننيل ألكسندرو فنادولينا
١٢٤- الفجر الكائن: أوهام الرأسمالية العالمية جون جراى
١٢٥- التحليل الموسيقى سيدرك ثورپ ديفى
١٢٦- فعل القراءة فولفانج إيسر
١٢٧- إرهاب (مسرحية) صفاء فتحى
١٢٨- الأدب المقارن سوزان ياسنيت
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروت
١٣٠- الشرق يصعد ثانية أندريه جوندرو فرانك
١٣١- مصر القديمة التاريخ الاجتماعى مجموعة من المؤلفين
١٣٢- ثقافة العولة مايك فينرستون
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية) طارق على
١٣٤- تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧- منكرات ضابط فى العلة الفرنسية على مصر جوزيف مارى مواريه
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف أندريه جلوكسمان
١٣٩- باريسفالى (مسرحية) ريتشارد فاچنر
١٤٠- حيث تلقى الأنهار هيربرت ميسن
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى ديرك لايدر
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية) كارلو جولوفنى
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية) كارلوس فوينتس
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية) ميچيل دى لبيس
١٤٧- مسرحيتان تانكريد دورست
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية إنريكى أندرسون إمبرت
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأبونيس عاطف فضول
١٥٠- التجربة الإغريقية روبرت ج. ليتمان
- أحمد حسان
نسيم مجلى
سمية رمضان
نهاد أحمد سالم
منى إبراهيم وهالة كمال
لميس النقاش
بإشراف: روف عباس
مجموعة من المترجمين
محمد الجندى وإيزابيل كمال
منيرة كروان
أنور محمد إبراهيم
أحمد فؤاد بليغ
سمحة الخولى
عبد الوهاب علوب
بشير السباعى
أميرة حسن نورية
محمد أبو العطا وآخرون
شوقى جلال
لويس بقطر
عبد الوهاب علوب
طلعت الشايب
أحمد محمود
ماهر شفيق فريد
سحر توفيق
كاميليا صبحى
وجيه سمعان عبد المسيح
مصطفى ماهر
أمل الجبورى
نعيم عطية
حسن بيومى
عدلى السمرى
سلامة محمد سليمان
أحمد حسان
على عبدالرؤف البعبعى
عبدالغفار مكارى
على إبراهيم منوفى
أسامة إسبر
منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهند وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام القراغة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنيال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زبدان عبدالطيم زبدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيرى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبوليون (حياة من نود)	جان لاکوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتنبيين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رايندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل ليليبس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حصين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصنة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- الله الأسمى الأرمي من التلحينيات إلى التلحينيات	فتمنشت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كركتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات ميجل	ميخائيل إنورد	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	يزدج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

- ١٨٩- التمس والبصرة مقالات في بلاغة النقد المعاصر پول دى مان سعيد الفانمى
- ١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس محسن سيد قرجانى
- ١٩١- الكلام وأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وآخرون مصطفى حجازى السيد
- ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراهى محمود علاوى
- ١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز محمد عبد الواحد محمد
- ١٩٤- مختارات من النقد الانجلو-امريكى الحديث مجموعة من النقاد ماهر شفيق فريد
- ١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح محمد علاء الدين منصور
- ١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالنتين راسبوتين أشرف الصباغ
- ١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى جلال السعيد الحفناوى
- ١٩٨- الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وآخرون إبراهيم سلامة إبراهيم
- ١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لانداز جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل جيرمى سيبروك فخزى ليبى
- ٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس أحمد الأنصارى
- ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢) رينيه ويليك مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ٢٠٣- الشعر والشاعرية أطفاف حسين حالى جلال السعيد الحفناوى
- ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شانازر أحمد هويدى
- ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى- سفورزا أحمد مستجير
- ٢٠٦- الهيبولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك على يوسف على
- ٢٠٧- ليل أفريقى (رواية) رامون خوتاسندير محمد أبو العطا
- ٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان محمد أحمد صالح
- ٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر) سنائى الغزنوى يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١١- فردينان دوسوسير جوناثان كلر محمود حمدي عبد الفنى
- ٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين يوسف عبدالفتاح فرج
- ٢١٣- مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبد الناصر ريمون فلاود سيد أحمد على الناصرى
- ٢١٤- قواعد جديدة للمنجم فى علم الاجتماع أنتونى جيننز محمد محيى الدين
- ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراهى محمود علاوى
- ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٧- مسرحيتان ظليعتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر نادية البنهاوى
- ٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خوليو كورتاثان على إبراهيم منوفى
- ٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشجورو طلعت الشايب
- ٢٢٠- الهيبولية فى الكون بارى باركر على يوسف على
- ٢٢١- شعرية كفافى جريجورى جوزداتيس رفعت سلام
- ٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراى نسيم مجلى
- ٢٢٣- العلم فى مجتمع حر باول فيرابند السيد محمد نفاذى
- ٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس منى عبدالظاهر إبراهيم
- ٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابريل جارشيا ماركيث السيد عبدالظاهر السيد
- ٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هريت لورانس طاهر محمد على البريرى

السيد عبدالظاهر عبدالله	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	خوسيه ماري ديث بوركي	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيغان	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	عن الذباب والفران والبشر	فرانسواز جاكوب	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	الرافيل أو الجبل الجنيد (مسرحية)	خايمي سالوم بيدال	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	ما بعد المعلومات	توم ستونير	٢٣٢-
طلعت الشايب	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	أرثر هيرمان	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	الإسلام في السودان	ج. سينسر تريمنجهام	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	ديوان شمس تيريزي (ج١)	مولانا جلال الدين الرومي	٢٣٥-
أحمد الطيب	الولاية	ميشيل شوكيفيتش	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	مصر أرض الوادي	روبيرت فيدين	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربي مندولي أحمد	العولة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكاد	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلا راماز - رايوخ	٢٣٩-
صلاح محجوب إدريس	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاي حافظ	٢٤٠-
ابتهام عبدالله	في انتظار البرابرة (رواية)	ج. م. كوتزي	٢٤١-
صبري محمد حسن	سبعة أنماط من القموض	وليام إمبسون	٢٤٢-
بإشراف: صلاح فضل	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	الغليان (رواية)	لورا إسكييل	٢٤٤-
توفيق علي منصور	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	٢٤٥-
علي إبراهيم منوفي	مختارات قصصية	جايريل جارثيا ماركيت	٢٤٦-
محمد طارق الشرفاوي	الثقافة الجامعية والحداثة في مصر	والتر أرمبرست	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	٢٤٨-
رفعت سلام	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	جورديون مارشال	٢٥١-
علي بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	٢٥٢-
حسن بيومي	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: الفلسفة	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: أفلاطون	ديف روينسون وجودي جروفز	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	أقدم لك: ديكارت	ديف روينسون وكريس جارات	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلي وايت	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	الفجر	سير أنجوس فريزر	٢٥٨-
فاروجان كازانچيان	مختارات من الشعر الأرمي عبر العصور	نخبة	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	موسوعة علم الاجتماع (ج٣)	جورديون مارشال	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	زكي نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العلا	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوتا	٢٦٢-
علي يوسف علي	الكشف عن حافة الزمن	جون جرين	٢٦٣-
لويس عوض	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلي	٢٦٤-

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبد المنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروكي
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزي (ج٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	وليم چيفور بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الاصول الاجتماعية والثقافية لحركة مراهي في مصر	جوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكي
٢٧٥-	ث. س. إليوت شاعرًا وثاقلاً وكاتبًا مسرحيًا	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبد القادر التمساني
٢٧٧-	الجنينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨-	البيدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والتصويب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس وولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرؤوف الهمبي
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوربيديس	أحمد عثمان
٢٨٥-	رحلة حواجة حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائي	ديفيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩-	ديوان منوچهری الدامغانی	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبد المنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	فوانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	فوانشيسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل وبيل موريز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ليونيسيوس ثواكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة يوربيديس في الأدب اليوناني والفرنسي (ج١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء چاميه وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة يوربيديس في الأدب اليوناني والفرنسي (ج٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢-	أقدم لك: فنجنشتمين	جون هيتون وجودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

- ٢٠٣- أقدم لك: بوذا جين هوب ويورن فان لون إمام عبد الفتاح إمام
- ٢٠٤- أقدم لك: ماركس ريوس إمام عبد الفتاح إمام
- ٢٠٥- الجلد (رواية) كروزيو مالابارته صلاح عبد الصبور
- ٢٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ جان فرانسوا ليوتار نبيل سعد
- ٢٠٧- أقدم لك: الشعور ديفيد بايينو وهوارد سلينا محمود مكي
- ٢٠٨- أقدم لك: علم الوراثة ستيف جوتز ويورن فان لو ممدوح عبد المنعم
- ٢٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت جمال الجزيري
- ٢١٠- أقدم لك: يونج ماجي هايد ومايكل ماكجنس محيي الدين مزيد
- ٢١١- مقال في المنهج الفلسفي ر.ج كولنجود فاطمة إسماعيل
- ٢١٢- روح الشعب الأسود وليم ديويوس أسعد حليم
- ٢١٣- أمثال فلسطينية (شعر) خاير بيان محمد عبدالله الجعدي
- ٢١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم جانيس مينيك هويدا السباعي
- ٢١٥- جرامشي في العالم العربي ميشيل بروندينو والطاهر ليب كاميليا صبحي
- ٢١٦- محاكمة سقراط أي. ف. ستون نسيم مجلي
- ٢١٧- بلا غد س. شير لايموفا- س. زنيكين أشرف الصباغ
- ٢١٨- الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٩- صور دريدا جايتري اسبيفاك وكريستوفر نوريس حسام نابل
- ٢٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج مؤلف مجهول محمد علاء الدين منصور
- ٢٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ٢، ج. ١) ليفي بروفنسال بإشراف: صلاح فضل
- ٢٢٢- وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي ديليو يوجين كليتيار خالد مقلح حمزة
- ٢٢٣- فن الساتورا تراث يوناني قديم هانم محمد فوزي
- ٢٢٤- اللعب بالنار (رواية) أشرف أسدي محمود علاوي
- ٢٢٥- عالم الآثار (رواية) فيليب يوسان كرستين يوسف
- ٢٢٦- المعرفة والمصلحة يورجين هابرماس حسن صقر
- ٢٢٧- مختارات شعرية مترجمة (ج. ١) نخبة توفيق علي منصور
- ٢٢٨- يوسف وزليخا (شعر) نور الدين عبد الرحمن الجامي عبد العزيز بقوش
- ٢٢٩- رسائل عبد الميلاذ (شعر) تد هيوز محمد عيد إبراهيم
- ٢٣٠- كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد سامي صلاح
- ٢٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى ستيفن جري سامية دياب
- ٢٣٢- شهر العسل وقصص أخرى نخبة علي إبراهيم منوفي
- ٢٣٣- الإسلام في بريطانيا من ١٦٨٥-١٥٥٨ نبيل مطر بكر عباس
- ٢٣٤- لقطات من المستقبل أورثر كلارك مصطفى إبراهيم فهمي
- ٢٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية ناتالي ساروت فتحى العشري
- ٢٣٦- متون الأهرام نصوص مصرية قديمة حسن صابر
- ٢٣٧- فلسفة الولا جوزايا رويس أحمد الانتصاري
- ٢٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى نخبة جلال الحفناوي
- ٢٣٩- تاريخ الأدب في إيران (ج. ٢) إدوارد براون محمد علاء الدين منصور
- ٢٤٠- اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربروجل فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمي
٢٤٢-	سلامان وأيسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	يوته ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧-	الصبيبة الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج١)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	تسملطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بايون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بايون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مروتجى	محمود علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	مقون هرمس	تيموثى فريك ويثير غاندى	عمر الفاروق عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١-	التصحر: التهديد والمواجهة	الآن جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حدائق شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بويلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصورة الأولى في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أوميرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام السنن (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	ستيل باث	٣٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جوتثر جراس	٣٨٠- حديث عن الخسارة
رائيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادى	بهاء الدين محمد إسفنديار	٣٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد على بهزادراد	٣٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبى النسوى
بهاء چاهين	چون دن	٣٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازى	٣٨٨- مواظ سعدى الشيرازى (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. فى. روبرتس	٣٩٠- الأرضيات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشى	٣٩١- الحافلة الليكية (رواية)
عبداللطيف عبداللطيف	فرناندو دى لاجرانجا	٣٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخسرى	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣- فى قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٣٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٣٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٣٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتى شين	٣٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب نودى وهوارد ريد	٣٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وألن كوركس	٣٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنديه	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زيادون ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكينج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كوار	٤٠٣- رية المطر والملايس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جين	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبانيون فى القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغورة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيئر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج. ٢، ج. ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	باسكال كازانوف	٤١٤- الجمهورية العالمية للأدب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينيات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بنوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جده) رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزبر الحاكمة في مصر العثمانية جين ماثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية جون مارلو	نسليم مجلى
٤٢٠-	مكره ميجاس (قصة فلسفية) فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١) ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طابوس إلى فرح محمود طلوعى	محمود علوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية) باي إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الحزاة الخفية محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل ليود سينسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندرجى كليموسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو كريس موروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكياغلى باتريك كبرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١) فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحلة هندي في بلاد الشرق العربى شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بيبرس	هايدة سيف النولة
٤٣٩-	موت المراهبي (رواية) صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد	محمد طارق الشراوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها كيس فرستينغ	محمد طارق الشراوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر پرويز نائل خاتلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود ألكسندر كوكبين وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم ج. پ. ماك إيثنى وأوسكار زاريت	ممدوح عبد المنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور ديلا ن إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبد المنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزبورن ويورين فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مجدد)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسني (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المويسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتز جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكأن	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهري إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	البؤلة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وشبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الفتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	يام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عثمانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيوو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جاميل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبييرت يابوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهاوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالطعم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	مُسْرَل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند مُسْرَل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البيغاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	الطلمانية والنوع والنولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جويث تاكر ومارجريت مريونز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رويكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبد المنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهمى
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقي جليانولى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	أدم صيرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأمثلة المأكرة (مسرحية)	كارلو جولونوى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرثع (رواية)	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عيد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحدائث	شوى مالمى دوجلاس	شوى مالمى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإنسان	أرنولد واشنطن وبوتا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الواع الفرنسى بمصر من العلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كروى ووليم رانكين	محى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفيل إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	يداع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جيتو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذي حدث في "حدث" ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشراوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابي	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	سمويل منتجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار بكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر في نصص يوسف الشارونى	كيت دانيلز	محمد الحيدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهالوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	نصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نسيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هانشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وأن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلى وليتا جانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرد	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرؤوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر القرنى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإسرائيلية الأمريكية القرن النابى والعشرين	اناثولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بولريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين سارداروبووين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالصي أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساغان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتنى	صبرى محمدي التهامى
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خاثنيتو بينابيتنى	صبرى محمدي التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير رويرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعولة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وجودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف التولية (مج ١)	جون فيزد ويول سترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الصمى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس وروى أرمنز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج ٢)	إكوانى باتولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريز	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكى
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزیز
٦٠٣-	النقد الثقافى	أرثر أيزابوچر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

صبري محمد حسن	هاري سينت فيليبي	٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (ج١)
صبري محمد حسن	هاري سينت فيليبي	٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (ج٢)
شوقي جلال	أنجر فوج	٦٠٩- الانتخاب الثقافي
على إبراهيم منوفي	رفائيل لويث جوشمان	٦١٠- العمارة المدججة
فخرى صالح	تيري إيجلتون	٦١١- النقد والأيدولوجية
محمد محمد يونس	فضل الله بن حامد الحسيني	٦١٢- رسالة النفسية
محمد فريد حجاب	كولن مايكل هول	٦١٣- السياحة والسياسة
منى قطان	فوزية أسعد	٦١٤- بيت الأقصر الكبير (رواية)
محمد رفعت عواد	أليس بيسيريني	٦١٥- عرض الأحداث التي وقعت في بغداد من ١٩٧٧ إلى ١٩٩١
أحمد محمود	روبرت يانج	٦١٦- أساطير بيضاء
أحمد محمود	هوواس بيك	٦١٧- الفولكلور والبحر
جلال البنا	تشارلز فيليبس	٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة
عايدة الباجوري	ريمون استانبولي	٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس
بشير السباعي	توماش ماستناك	٦٢٠- السلام الصليبي
فؤاد عكود	وليم ي. آدمز	٦٢١- النوبة المعبر الحضاري
أمير نبيه وعبدالرحمن حجازي	أى تشينغ	٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين
يوسف عبدالفتاح	سعيد قانعي	٦٢٣- نوادر جحا الإيراني
عمر الفاروق عمر	ريتيه جينو	٦٢٤- أزمة العالم الحديث
محمد برادة	جان جينيه	٦٢٥- الجرح السري
توفيق على منصور	نخبة	٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (ج٢)
عبدالوهاب علوب	نخبة	٦٢٧- حكايات إيرانية
مجدى محمود المليجي	تشارلز داروين	٦٢٨- أصل الأنواع
عزة الخميسى	نيقولاس جويات	٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية
صبري محمد حسن	أحمد بللو	٦٣٠- سيرتى الذاتية
بإشراف: حسن طلب	نخبة	٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقي المعاصر
رانيا محمد	دولورس برامون	٦٣٢- المسلمون واليهود في مملكة فالنسيا
حمادة إبراهيم	نخبة	٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)
مصطفى البهنساوي	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	٦٣٤- مكتبة الإسكندرية
سمير كريم	جودة عبد الخالق	٦٣٥- التثبيت والتكيف في مصر
سامية محمد جلال	جناب شهاب الدين	٦٣٦- حج يولنده
بدر الرفاعي	ف. روبرت هنتر	٦٣٧- مصر الخديوية
فؤاد عبد المطلب	روبرت بن ودين	٦٣٨- الديمقراطية والشعر
أحمد شافعي	تشارلز سيميك	٦٣٩- فندق الأرق (شعر)
حسن حبشي	الأميرة أناكومينا	٦٤٠- ألكسياد
محمد قدرى عمارة	برتراند رسل	٦٤١- برتراند رسل (مختارات)
ممدوح عبد المنعم	جوناثان ميلر وبورين فان لون	٦٤٢- أقدم لك. داروين والتطور
سمير عبدالحميد إبراهيم	عبد الماجد الدرايبادي	٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)
فتح الله الشيخ	هوارد د. تيرنر	٦٤٤- العلوم عند المسلمين

عبد الوهاب علوب	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	السياسة الفارسية الأمريكية ومسابرها الداخلية	٦٤٥-
عبد الوهاب علوب	سپهر نبيج	قصة الثورة الإيرانية	٦٤٦-
فتحى العشرى	جون نينيه	رسائل من مصر	٦٤٧-
خليل كلفت	بياتريث سارلو	بورخيس	٦٤٨-
سحر يوسف	جى دى موباسان	الخوف وقصص خرافية أخرى	٦٤٩-
عبد الوهاب علوب	روجر أوين	الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	٦٥٠-
أمل الصبان	وثائق قديمة	ديليسيب الذى لا نعرفه	٦٥١-
حسن نصر الدين	كلود ترونكر	آلهة مصر القديمة	٦٥٢-
سمير جريس	إيريش كستتر	مدرسة الطغاة (مسرحية)	٦٥٣-
عبد الرحمن الخميسي	نصوص قديمة	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	٦٥٤-
حليم طوسون ومحمود ماهر طه	إيزابيلى فرانكو	أساطير وآلهة	٦٥٥-
ممدوح البستوى	ألفونسو ساسترى	خيز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيات)	٦٥٦-
خالد عباس	مرثيديس غارشيا أرينال	محاكم التفتيش والموريسكيون	٦٥٧-
صبرى التهامى	خوان رامون خيمينيث	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	٦٥٨-
عبد اللطيف عبد الحليم	نخبة	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	٦٥٩-
هاشم أحمد محمد	ريتشارد فايفيلد	نافذة على أحدث العلوم	٦٦٠-
صبرى التهامى	نخبة	روائع أندلسية إسلامية	٦٦١-
صبرى التهامى	داسو سالدبار	رحلة إلى الجنود	٦٦٢-
أحمد شافعى	ليوسيل كليفتون	امراة عادية	٦٦٣-
عصام زكريا	ستيفن كوهان ولنا راي هارك	الرجل على الشاشة	٦٦٤-
هاشم أحمد محمد	بول دافيز	عوالم أخرى	٦٦٥-
جمال عبد الناصر ومنحت الجيار وجمال جاد الرب	رولفجانج اتش كليمن	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	٦٦٦-
على ليلة	ألفن جولندر	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	٦٦٧-
ليلى الجبالى	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ثقافات العولمة	٦٦٨-
نسيم مجلى	وول شوينكا	ثلاث مسرحيات	٦٦٩-
ماهر البيطولى	جوستاف أدولفو بكر	أشعار جوستاف أدولفو	٦٧٠-
على عبدالأمير صالح	جيمس بولدين	قل لي كم مضى على رحيل القطار؟	٦٧١-
إبتهال سالم	نخبة	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	٦٧٢-
جلال الحفناوى	محمد إقبال	ضرب الكليم (شعر)	٦٧٣-
محمد علاء الدين منصور	آية الله العظمى الخمينى	ديوان الإمام الخمينى	٦٧٤-
بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٥-
بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى	مارتن برنال	أثينا السوداء (ج٢، ج١)	٦٧٦-
أحمد كمال الدين حلمى	إيوارد جرانفيل براون	تاريخ الأدب في إيران (ج١، ج٢)	٦٧٧-
أحمد كمال الدين حلمى	إيوارد جرانفيل براون	تاريخ الأدب في إيران (ج١، ج٢)	٦٧٨-
توفيق على منصور	وليام شكسبير	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	٦٧٩-
سمير عبد ربه	وول شوينكا	سنوات الطفولة (رواية)	٦٨٠-
أحمد الشيمى	ستانلى قش	هل يوجد نص في هذا الفصل؟	٦٨١-
صبرى محمد حسن	بن أوكرى	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	٦٨٢-

صبرى محمد حسن	ت. م. ألوكو	سكين واحد لكل رجل (رواية)	٦٨٣-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١)	٦٨٤-
رزق أحمد بهنسى	أوراثيو كيروجا	الأعمال القصصية الكاملة (المصراة) (ج٢)	٦٨٥-
سحر توفيق	ماكسين مونج كنجستون	امراة محاربة (رواية)	٦٨٦-
ماجدة الغنائى	فتانة حاج سيد جوادى	محبوبة (رواية)	٦٨٧-
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى	فيليب م. دوبر ورينشارد أ. موار	الانفجارات الثلاثة العظمى	٦٨٨-
هناء عبد الفتاح	تادوش روجيفيتش	الملف (مسرحية)	٦٨٩-
رمسيس عوض	(مختارات)	محاكم التفتيش فى فرنسا	٦٩٠-
رمسيس عوض	(مختارات)	ألبرت أينشتين: حياته وغراميات	٦٩١-
حمدي الجابرى	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	أقدم لك: الوجودية	٦٩٢-
جمال الجزيرى	حاتيم برشيت وآخرون	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	٦٩٣-
حمدي الجابرى	جيف كولنر وبيل مايبيلن	أقدم لك: دريدا	٦٩٤-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روبنسون وجودى جروف	أقدم لك: رسل	٦٩٥-
إمام عبدالفتاح إمام	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	أقدم لك: روسو	٦٩٦-
إمام عبدالفتاح إمام	روبرت ودفين وجودى جروف	أقدم لك: أرسطو	٦٩٧-
إمام عبدالفتاح إمام	ليود سينسر وأندريجي كروز	أقدم لك: عصر التنوير	٦٩٨-
جمال الجزيرى	إيفان وارد وأوسكار زاريت	أقدم لك: التحليل النفسى	٦٩٩-
بسمة عبدالرحمن	ماريو فوجاش	الكاتب وواقعه	٧٠٠-
منى البرنس	وليم رود فيفيان	الذاكرة والحدائق	٧٠١-
محمود علاوى	أحمد وكيليان	الأمثال الفارسية	٧٠٢-
أمين الشواربى	إدوارد جرانفيل براون	تاريخ الأدب فى إيران (ج٢)	٧٠٣-
محمد علاء الدين منصور وآخرون	مولانا جلال الدين الرومى	فيه ما فيه	٧٠٤-
عبدالحميد مذكور	الإمام الغزالى	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	٧٠٥-
عزت عامر	جونسون ف. يان	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	٧٠٦-
وفاء عبدالقادر	هوارد كاليجل وآخرون	أقدم لك: فالتز بنيامين	٧٠٧-
رعوف عباس	دونالد مالكولم ريد	فراغة من؟	٧٠٨-
عادل نجيب بشرى	ألفريد أدلر	معنى الحياة	٧٠٩-
دعاء محمد الخطيب	يان ماتشباى وجوموران إليس	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	٧١٠-
هناء عبد الفتاح	ميرزا محمد هادى رسوا	درة التاج	٧١١-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج١)	٧١٢-
سليمان البستانى	هوميروس	ميراث الترجمة: الإلياذة (ج٢)	٧١٣-
ختا صاوه	لامنيه	ميراث الترجمة: حديث القلوب	٧١٤-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج١)	٧١٥-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٢)	٧١٦-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٣)	٧١٧-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٤)	٧١٨-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٥)	٧١٩-
نخبة من المترجمين	مجموعة من المؤلفين	جامعة كل المعارف (ج٦)	٧٢٠-
مصطفى لبيب عبد الفنى	ه. أ. ولفسون	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	٧٢١-

رغم الكلام غير الموثق الذي قيل كثيراً عن شخصيات غامضة مثل إبراهيم ونوح، فقد اتضح اليوم وتأكد تماماً أن دمشق اتبعثت وظهرت للوجود من قرية يرجع تاريخها للعصر الحجري المصقول. ذكرت دمشق في وثائق إلبا Elba على جدران معبد الكرنك حيث كانت في الألفية الأولى قبل الميلاد عاصمة أقوى مملكة آرامية قبل أن تحتل من الفرس ثم الإغريق فالرومان. وبعد ذلك صارت عاصمة الإمبراطورية الأموية المترامية الأطراف التي تمتد حنودها من المحيط الأطلنطي غرباً حتى الهند والسند شرقاً، وكان ذلك عصرها الذهبي والذي لا زالت آثاره باقية حتى اليوم رغم عوامل الزمن. فهي هو الجامع الشهير الذي اقترن اسمه بالأسرة الأموية.

وفي عصر الحروب الصليبية وما نجم عنها لفترة قصيرة من انتهاكات ومذابح إلى أن اعتلى السلطة قادة بواسل أمثال نورالدين وصلاح الدين وبيبرس، وأصبحت دمشق مركز الهجوم المضاد وقاعدة للحملة العديدة التي حققت النصر على الصليبيين. وباتحاد سوريا مع مصر أيام حكم المماليك، أمكن صد هجوم التتار. وفي عام ١٤٠١، كانت دمشق توصف بأنها "شامة الحسن والجمال على جبين العالم" إلى أن احتلها تيمور لك فأصابها بطعنة قاتلة، فأدخلها في دهايلز الانهيار والتدهور. وازداد الوضع سوءاً بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة إلى أوروبا إلى هذا الطريق. وفي عام ١٥١٦، سقطت دمشق بلا مقاومة في أيدي العثمانيين بقيادة سليم الأول. وقد ساعد انتشار العمران في دمشق وتراثها التاريخي العريق إلى أن تقف على قدميها على قدم المساواة مع القاهرة وأصفهان وفاس المغربية.

